رواية

بلال فضل

أم ميمي



إلى كل الأغاني الحلوة
التي هوّنت المشوار

جميع الشخصيات والأحداث والوقائع والأماكن والألفاظ الواردة في هذه الرواية لا علاقة لها بواقعنا الذي هو - كما تعلم– أرقى وأطهر وأجمل من أن ترد فيه مثل هذه الشخصيات والأحداث والوقائع والأماكن والألفاظ

لذا لزم التنويه.

في الطريق إلى أم ميمي!

تعودت حين أحكي الحكاية أن أقول إن ما أوصلني إلى العيش مع أم ميمي: ثديان بولنديان لهما حَلَمَتان فريدتان، رأيتهما في فيلم للكبار فقط، ذات ليلة شتاء بدأت جميلة ثم قَلَبت بغمّ. ومع أن ذلك ليس ما حدث بالضبط، لكنه لم يكن بعيداً عما حدث بالفعل.

يومها، كنت أتصور أن يد الأقدار «رمتني عن قوسِ مِحنَةٍ»، حين اختارت لي من بين آلاف الشقق والغرف والمطارح المفروشة في شوارع وحواري القاهرة والجيزة، أن أسكن في غرفةٍ بلا باب، في شقة بلا روح، مع امرأة غريبة الأطوار، لكنك تحتاج أحياناً إلى ربع قرن من الزمان، لتدرك كم أحسنت إليك الأيام، حين اختصتك بأكثر تجاربها عبثية.

بدأت الحكاية في خريف عام 1991، بعد أن أتاح لي مجموع درجاتي في الثانوية العامة فرصة الالتحاق بكلية الإعلام جامعة القاهرة، وإذا كنت لا تعلم، فقد كان يلزم للالتحاق بكلية جامعية، أن تسجل رغباتك في الكليات المناسبة لمجموع درجاتك في استمارة يطلقون عليها اسماً شاعرياً لا علاقة له بمضمونها: «استمارة الرغبات»، ليختار لك منها مكتب التنسيق الجامعي الكلية المتاحة طبقاً لإجراءات لا يعلمها إلا المسؤولون في وزارة التعليم العالي، ولا يُشكِّك فيها أحد ترييحاً للدماغ.

كانت لدي وقتها تصورات مشوّشة عما يجب أن أدرسه، كانت رغبتي الأولى في الاستمارة دراسة الإعلام في كليته الوحيدة وقتها بجامعة القاهرة، لكن الرغبة الثانية كانت الالتحاق بكلية الهندسة قسم بترول، والثالثة الالتحاق بكلية الآثار، أما الرابعة فكانت دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية. لم أكن واثقاً تماماً في أي من تلك الرغبات المتضاربة، لكن رغبتي الأكثر وضوحاً كانت مفارقة

جحيم العيش في ظل أبي بأي شكل، بعد أن ضبطت نفسي متلبساً بإشهار سكين المطبخ في وجهه، صحيح أن ذلك حدث في الحلم، لكنه كان مؤشراً خطيراً على قرب نفاد صبري من عنفه وقسوته.

في الوقت نفسه، كان لدي حُلم عمّا يجب أن أفعله في حياتي، حلم أكثر وضوحاً من رغبات الاستمارة، لكني لم أكن أجرؤ على إعلانه لأسرتي، وهو دخول دنيا الفن ممثلاً أو كاتباً أو مخرجاً أو مطرباً أو كل ما سبق، وكنت أظن أن إقامتي في القاهرة للدراسة في كلية يرضى عنها أهلي، ستتيح لي تحقيق ذلك الحلم، بعد أن ألتحق سراً بمعهد السينما أو بمعهد الفنون المسرحية للدراسة المسائية في أحدهما أو كليهما، ولم يكن لدي تصور محدد لتحقيق ذلك الحلم، لكن ذلك لم يمنعني من الاستسلام لنشوته.

كانت أمي قد أدركت أن خروجي من البيت لأبتعد عن الصدام المتكرر مع أبي، سيكون راحة للجميع، خاصة أن أجواء البيت المسمومة بدأت تؤثر على إخوتي الأصغر مني، لكنها كانت ترى أنه من الأفضل لي ما دمت راغباً في دراسة الإعلام، أن ألتحق بقسم الإعلام بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وقد كانت له سمعة معقولة وقتها، وكان الالتحاق به سيبقيني في كنف أسرتها في الإسكندرية، بدلاً من إقامتي وحيداً في القاهرة التي كانت ستزيدها قلقاً علي لديها ما يكفي منه ويفيض، خاصة أن الوقت كان قد فات على اللحاق بمكان متاح في المدينة الجامعية في القاهرة، ولذلك رأت أن إقامتي مع جدتي وأخوالي في الإسكندرية، ستعفيني من الاحتياج إلى الإقامة في شقق الطلبة، ولن يحرمني مما أستحقه من أكل بيتي آمن دائماً وشهي أحياناً، وهدوم منتظمة الغسيل والمكوى، وفرص مضمونة للحُموم المتكرر، والجلوس الآمن على قعدة تواليت نظيفة، لكنني رفضت ذلك وفضلت مفارقة كَنَف وكنيف أهلي في الإسكندرية، لأطارد أحلامي في القاهرة، حتى لو عشت فيها عيشة المغتربين المضنية.

حين تعقّد الخلاف مع أبي بسبب اختياري لكلية لم يرض عنها، بدلاً من دراسة الطب أو الهندسة، أقسم أنه لن يساهم في الإنفاق على دراستي بمليم، متصوراً أنني أجبن من تفضيل العيش الضنك على العيش في ظله، لكنني قررت تحدي قراره بالإنفاق على نفسي في العام الدراسي الأول، معتمداً على مخزون نقود ادّخرتها من عملي على مدار سنة كاملة بعد تخرجي من الثانوية العامة، على أمل أن أنجح بتفوق في عامي الدراسي الأول، فأحصل حينها على منحة دراسية تمكنني من

عبور باقي سنوات الدراسة بسلام، ولم أكن أتعامل مع ذلك القرار بوصفه اختياراً شجاعاً أو طائشاً، بل كنت أعتبره مسألة حياة أو موت.

جعلني ما استمعت إليه من آراء وفتاوى بعض المعارف طيلة الفترة التي سبقت الانتهاء من إجراءات التقديم في الجامعة، أوقن أن القبول في المعهد العالي للسينما أو المعهد العالي للفنون المسرحية، سيكون من رابع المستحيلات بدون واسطة جامدة من داخل الوسط الفني، ولذلك زاد تفضيلي لوضع كلية الإعلام على رأس اختياراتي، بعد أن استهوتني نصيحة صديق بدا مطلعاً على خبايا الأمور، بأن ألتحق بقسم الإذاعة والتلفزيون في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، بوصفه باباً خلفياً مضموناً لدخول عالم السينما بعد تخرجي، لأن هناك صلة قرابة بين دراسة التلفزيون ودراسة السينما، ستساعدني على دخول عالم السينما بشكل أيسر في المستقبل، وهو ما اتضح خطله وهطله فيما بعد.

ولأنني أوقن أن الإنسان منّا يمكن أن يستغني عن أموال ودعم أبيه، لكنه أضأل من أن يستغني عن دعوات ورضا أمه، فقد صارحت أمي بما أنتويه قبل أن أكتشف متأخراً أن صراحتي لم يكن لها أي لازمة، فقد كان التخصص يبدأ في السنة الثالثة من الدراسة، ولذلك لم يُنبني من صراحتي المتسرعة، إلا حلفان أمي بالله العظيم ثلاثة، أنها ستقاطعني «القاطوعة الفاصولة»، إن لم أختر قسم الصحافة وحده دون غيره من أقسام كلية الإعلام، لأنه القسم الأبعد عن غضب الله ومغويات الدنيا التي لم يكن لديها تصور واضح عن طبيعتها، لكنها كانت متأكدة من ضعفي أمام تلك المغويات، ولكي يطمئن قلبها إلى أنني لن أطاوع همزات الشياطين بعد ابتعادي عنها، جعلتني أقسم على ذلك وأنا أضع يدي على المصحف قبل أذان مغرب ليلة النصف من شعبان، لتضمن أنني سأخاف من عواقب الحنث باليمين وأنا صائم ومتوضئ، ومع أنني لم أكن في الحقيقة صائماً ولا متوضئاً، فإنني عقدت العزم على أن أبرّ بقسمي لها، وإن كنت قد عزمت على العمل في الصحافة الفنية مع أول فرصة تسنح لي، لعلي أدخل من منفذ الحوارات الصحفية مع الفنانين، إلى عالم السينما الذي «لحس دماغي» طبقاً لتشخيص أمي الذي كان دقيقاً للأمانة.

في فترةٍ حافلةٍ بالمواجهات مع أبي الذي كان يراهن على فشلي في تحقيق ما أنتويته، كان لدى أمي الكثير لتقدمه لي، أهمه دعواتها التي لا تنقطع والمغمّسة بالدموع التي لا تنضب، ومع أنها لم تكن قادرة على تقديم مساعدات نقدية سخية، فإنها قامت بتقديم مساعدات عينية أهمها بدلتان شتويتان،

الأولى كحلية اللون، والأخرى يمكن أن تعتبر أقرب لون متاح لوصفها هو اللون الكمّوني، مع أن تابل الكمّون كان أكثر اتساقاً في مظهره، وقد ظنّت أمي أن البدلتين تليقان بمقام جامعة القاهرة، التي كانت بالنسبة لها كطالبة درست في السبعينات في جامعة الإسكندرية، قُدساً عالي المقام، يستحق الذهاب إليه بالبدلة والكرافتة، ولأنني فشلت فشلاً ذريعاً في تعلم ربط الكرافتات، فقد اكتفت أمي بمنحي البدلتين «حاف» دون كرافتات، وأهدتني معهما قميصين ناصعي البياض اتضح فيما بعد أنهما سريعيّ الكرمشة، وجزمة سوداء ذات كورنيش تزيّنه نقوش مربكة، قامت بتفصيلها في ورشة لصناعة الأحذية تقع في حي «المكس» السكندري، كانت تتعامل معها منذ سنوات، لأنها لم تكن تجد مقاسات ملائمة لقدميّ الضخمتين في محلات الأحذية العادية.

كان ذلك الدعم العيني سبباً في طلوع عيني فيما بعد، من فرط السخرية التي انهال بها عليّ زملائي، ومع ذلك اضطرتني الميزانية المحدودة لأن أظل وفياً لكسوة أمي التي لم أكن أملك غيرها سوى قميصين، أولهما أخضر تشوبه خطوط طولية سوداء، وثانيهما أزرق تقسمه مربعات بيضاء، كنت قد حصلت عليهما كـ«معونة شتاء غير مشروطة» من زوج خالتي الذي كان يشترك معي في ضخامة الجسد فقط، وقد نالهما من تريقة الصِحاب ما نال البدلتين، وهي تريقة لم تتوقف إلا بعد أن عرفت الطريق إلى وكالة البلح بفضل رجل لعين سآتيك بذكره فيما هو آت.

قبل أيام من «نزولي» الرسمي إلى القاهرة، لألحق بالدراسة التي كنت قد تأخرت عنها ثلاثة أسابيع، كشفت أمي عن معونة أكثر أهمية كانت تحضرها لي سراً، ولم تعلنها إلا بعد أن انتهت من كافة ترتيباتها. كانت تلك المعونة عرضاً لا يمكن رفضه، بأن أسكن في شقة بمدينة نصر يسكنها طلبة بجامعة الأزهر، من بينهم ابن أخت صديقة لها، كانت أمي قد زاملتها في دراستها الجامعية، وكانت هي التي دلتها على سكة تلك الشقة، التي بدت لأمي منقذة لي من التلطيم في بحر القاهرة الغريق، ومطمئنة لها على نجاتي من مصائد الشيطان المنصوبة في أرجاء القاهرة، لأن الساكنين في تلك الشقة كانوا «شباب محترم ومتدين وعارفين ربنا كويس وكلهم من الأزهريين حفظة كتاب الله وهيقوّوك لو الشيطان زيّن لك طريق النجاسة»، وأنا والشيطان استمعنا إلى أمي بهدوء شديد، وكتمنا الضحك احتراماً لمشاعرها، فقد كنا نرتب منذ فترة لما ننوي فعله في «طريق النجاسة» بمجرد استقرارنا في القاهرة.

كنت أنا وست الكل خلال نزولاتنا السابقة إلى القاهرة لإنجاز أوراق قبولي بالكلية، قد فشلنا في العثور على سكن مناسب قريبٍ من جامعة القاهرة، فلم نكن نعرف أن بحثنا كان يجب أن يبدأ منذ مطلع فصل الصيف، حين تخلو شقق الطلبة من ساكنيها العائدين إلى بيوت أهاليهم، برغم أن بعضهم كان يحجزها لنفسه طيلة الصيف، حتى لو قام مالكوها برفع قيمة الإيجار.

لم تكن ميزانيتي تسمح بالسكن في شقة مفروشة بمفردي أو في غرفة غير مفروشة، ولذلك حصرنا نطاق البحث منذ البداية في الغرف المفروشة اختصاراً للوقت والجهد، فوجدنا غرفاً متاحة في شقق جميلة وقريبة من الجامعة، لكن سعرها كان أغلى بكثير من طاقتي، ووجدنا غرفاً متاحة في شقق معفّنة دلنا عليها سمسار اسمه المعلم ذهني، لم أعد أذكر من الذي نصح أمي باللجوء إلى محله المختار الكائن في قهوة بائسة تقع في ممر متفرع من ميدان الجيزة، لكنني أذكر أنه كان شخصاً مثيراً للريبة، ليس لأن عينه اليسرى كانت عوراء، فقد عرفت عوراً ثِقات بعد ذلك، وليس لأنه لم يكن يهتم بنظافته بشكل لا تخطئه الأنف، بل لأن مظهره ومَخبره كانا يجعلانه أقرب إلى مُخبر منه إلى سمسار، وقد اتضح فيما بعد أنه كان مخبراً يتخذ من السمسرة غطاءً لاصطياد زبائن لضباط الجيزة.

أصر ذهني على أن يتقاضى منا مئة جنيه كعربون قبل أن يرينا أي شقة، قائلاً إن ذلك العربون شرط إثبات جدية، لأنه لا يحب اللف على الفاضي، وأنه سيخصمه من عمولته التي تعادل إيجار شهرين من إيجار الغرفة التي سيعثر عليها لنا «زي شكّة الدبوس»، وحين سألته أمي عما سيحدث للعربون إذا فشل في العثور لنا على غرفة في أسرع وقت، رسم ابتسامة هازئة على شفتيه، وطلب منها بعد لحظات صمت أن تسأل عنه كويّس، لأنها لو فعلت لما سألته سؤالاً كهذا، وهو الذي يعرف شقق الجيزة ومطارحها كما يعرف بطن يده.

لم يطل الوقت، حتى اكتشفنا أن ذهني السمسار كان هجاصاً عتيداً، وأن أمي لو كانت قد سألت عنه كويّس، لوفرنا المئة جنيه التي خسرناها، لأنه اختار لنا مجموعة منتقاة على الفرّازة من أوسخ وأحطّ الشقق المفروشة الموجودة في المنطقة المحيطة بميدان الجيزة، ومع أنني لم أكن متشدداً في مواصفات الغرفة التي أريد أن أسكن فيها، فإنني وافقت أمي في رفضها القاطع لأغلب الشقق التي دخلناها، لكنني اختلفت معها بسبب رفضها لغرفة منفردة مفروشة تقع فوق سطوح عمارة تقع خلف معهد الرمد الملاصق لكوبري عباس، لأنها أقسمت أنها لن تسمح لي «وهي عايشة» بالعيش

فوق السطوح أو في بدرون تحت الأرض، وأن سُكنة مثل هذه لن تجلب لي فقط المرض مع دخول الشتاء، بل ستجلب لها المرض قبل ذلك من فرط حزنها على حالي، ولم تكن تعلم أنني بعد أقل من عامين سأسكن «وهي عايشة» على بعد خطوات من تلك الغرفة، ولكن في شقة أسوأ حالاً من الذي تبطّرت عليه، وأنني سأسكن قبل ذلك في ما هو ألعن وأضلّ منها.

في المرة قبل الأخيرة التي ذهبنا فيها مع ذهني لمعاينة المزيد من الشقق القميئة، كانت أمي هادئة في إعلان رفضها لكل اختياراته، ولم أكن أعرف أن سبب هدوئها هو الوعد الذي تلقته من صديقتها بحسم موضوع شقة الشباب الصالح، والتي أخّرت إطلاعي على تفاصيلها، بسبب بعدها عن جامعة القاهرة، على أمل أن يجد لنا ذهني شقة معقولة الوحاشة في محيط الجامعة أو ميدان الجيزة، وإن كنا قد اقتنعنا بعد ثاني مرة أنه يتعمد اختيار الشقق التي يضمن نفورنا منها، لكي يضرب على مقدم أتعابه، خاصة أنه لم يكن يتعب نفسه بالذهاب معنا إلى شوارع بعيدة عن مقهاه الأثير.

تأكد لي ذلك حين ذهبت إليه لآخر مرة منفرداً، في الوقت الذي ذهبت أمي لزيارة صديقتها للاتفاق النهائي على تفاصيل إقامتي في «شقة الشباب الصالح»، فقابلني مقابلة ناشفة حين عرف أنني سأذهب معه لتفقد الشقق لوحدي، وقال لي بضيق: «طب ليه تتعبني معاك طالما ماما هي اللي هتختار في الآخر»، وحين قلت غاضباً إنني وحدي الذي أملك قرار اختيار الغرفة التي أسكن فيها، لأنني الذي سأدفع قيمة إيجارها، أطلق ضحكة مستفزة، ثم ترك شيشته ونهض ليصحبني إلى غرفة أحقر من كل ما سبق أن رأيناه، تقع على سطح عمارة تقع في شارع يحمل اسم «عبود الزمر»، يقع على بعد خطوات من ميدان الجيزة، وحين رآني أنظر مذهولاً إلى اللافتة التي تحمل اسم الشارع، فهم استغرابي وقال لي إنهم لم يسموا الشارع على اسم قاتل الرئيس السادات، بل على اسم أحد أبطال حرب أكتوبر، عرفت فيما بعد أنه كان من أبناء منطقة ناهية في محافظة الجيزة.

لكي يحبّبني ذهني في الشقة قال بحماس غير مفهوم إن العمارة تقع على بعد خطوات من مطعم (المانش) للفول والفلافل الذي قال إنه مملوك لتمساح النيل السباح الشهير عبد اللطيف أبو هيف الذي اشتهر بعبوره المانش في زمن بعيد، وأنه يأتي من حين لآخر لتفقد المطعم ويمكن أن أحظى بمقابلته، فهززت رأسي متصنعاً الانبهار مع أنني لم أكن قد سمعت عنه من قبل، ثم أضاف بنفس

الحماس قائلاً إن العمارة التالية بها أقدم فرع لمطعم المنوفي الكبابجي الذي لم أكن أعرف وقتها أنه مطعم شهير، وحين سألته ساخراً عن علاقتي كساكن محتمل لتلك الغرفة بالمطعمين، وهل سأحصل على خصم منهما إذا سكنت في الغرفة، صوّب لي نظرة غاضبة من عينه السليمة، وقال بغلظة: «ابقى سلم على ماما»، ثم تركني ومشى، وحين لحقت به معلناً غضبي لأنه قام بتضييع وقتي باصطحابي إلى شقة فوق السطوح، مع أننا أبلغناه قبلها بأن السكن فوق السطوح أمر مستبعد تماماً، وطلبت منه أن يعيد لي العربون الذي أخذه، لأنه لم يكن أميناً في أداء عمله، لم يكلف نفسه عناء النظر إلي بأي من عينيه، وتركني واتجه إلى باب السلم، وقبل أن ينزل التفت لي وقال بعد شخرة قصيرة: «ابقى خلي ماما تيجي تاخدهم».

حين التقيت بأمي في محطة «باب الحديد»، لنستقل القطار عائدين إلى الإسكندرية، لم أبلغها طبعاً بما قاله ذهني، ولم تحضر سيرته في حوارنا، لأنها بادرت إلى إبلاغي بانتهاء الاتفاق على موضوع شقة الشباب الصالح، وحين أخبرتني بالمبلغ الذي سأدفعه في إيجار غرفتي فيها، غمرتني فرحة جاهدت في إخفاء آثارها، لكيلا أثير شكوك أمي، فقد اكتشفت أن ما كنت سأدفعه في تلك الغرفة، أقل بحوالي سبعين جنيهاً مما كنت سأدفعه للسكن في أي شقة قريبة من جامعة القاهرة. صحيح أن «شقة الشباب الصالح» كانت تقع في مدينة نصر البعيدة عن جامعة القاهرة مسافة ساعة من الزمن أو أقل قليلاً، وأن قدراً مما كنت سأوفره من فلوس إيجارها سيضيع على المواصلات، لكن الأهم أنني أصبحت أمتلك فائضاً مالياً شهرياً، كان سيمكنني من تحقيق حلمي بحضور بعض أفلام مهرجان القاهرة السينمائي الدولي الذي كان سيبدأ في شهر نوفمبر، وكان بفضل صمود رئيسه الكاتب سعد الدين وهبة في وجه الرقابة على المصنفات الفنية، قد نال سمعة جابت الآفاق، وبلغت كل من بلغوا سن الضياع من أمثالي، ممن كانت فكرة رؤية المشاهد العارية على شاشة السينما تمثل بالنسبة لهم حدثاً فريداً.

حين حان الموعد المرتقب لنزولي إلى القاهرة لبدء الدراسة، رفضتُ عرض أمي بأن تذهب معي إلى «شقة الشباب الصالح» للتعرف عليها والسلام على رفاق سكني فيها قبل سفرها إلى الكويت، للحاق بعملها الذي أخذت إجازة منه من أجل خاطري، وقلت لها غاضباً إن ذلك سينتقص من منظري أمامهم، وسيظهرني بمظهر العيل الننّوس الذي تصحبه أمه إلى الحضانة، فتفهمت أمي موقفي، وأهدتني وهي تودعني جهاز كاسيت ناشيونال وبعض شرائط القرآن الكريم، وكتاب «أبلة نظيرة» لطبخ أشهى الأكلات، الذي أهدته لها أمها قبل زواجها، وجاء الوقت لتورثه لي لكي

يساعدني على أداء واجباتي في شقة الصالحين، التي قالت لها صديقتها إن شبابها يتقاسمون مسؤوليات الطبخ وغسيل الأطباق وتنظيف الشقة.

وبينما كانت ست الكل تسهب في نصائحها ووصاياها، كنت مشغولاً بالتفكير في خبر قرأته في صحيفة اليوم عن قرار إدارة مهرجان القاهرة برفع أسعار تذاكر عروض الأفلام إلى 5 جنيهات، وهو ما كان سيحد من قدرتي على دخول أفلام المهرجان المليئة بـ«الكاسيات العاريات المائلات المميلات كأسنان البُخت»، طبقاً لتوصيفات خطباء المساجد الغاضبين، التي كانت تجعلني أذهب إلى بعيد في تفسير أسنان البُخت وتخيله، لأكون ربما الإنسان الوحيد الذي كانت سيرة «أسنان البُخت» تثيره جنسياً، قبل أن يعرف ما تعنيه أسنان البُخت.

لا أريد أن أضيع وقتك في سرد تفاصيل إقامتي القصيرة في شقة مدينة نصر البضينة، ولا في سرد حكايتي مع مهرجان القاهرة السينمائي الدولي وأفلامه الساخنة الهاربة من مقص الرقيب، فما يهمني الآن من حكاية الشقة والمهرجان، هو المشهد الختامي الذي أفضى بي إلى شقة «أم ميمي»، بعد أن تعرضت للطرد من شقة الصالحين، دون أن أهنأ بتحقيق حلمي بدخول كل ما تمنيته من أفلام المهرجان، لأنني ضُبطت متلبساً بعد أول مرة دخلت فيها فيلماً بولندياً «ساخناً» في سينما «روكسي»، التي كانت الأقرب إلى محل إقامتي بمدينة نصر، ولم يكن من ضبطني إلا واحداً من أولئك «الصالحين»، الذين سكنت معهم في تلك الشقة الواقعة بإحدى عمارات شارع خضر التوني المتفرع من شارع يوسف عباس الملاصق لبوابة ستاد القاهرة والقريب من نادي الزهور.

لم أكن أعلم أن ذلك الشاب «الصالح» يحب التردد من حين إلى آخر على مطعم مجاور لسينما روكسي بعد أن ينتهي من مذاكرته مع زميل له يسكن في روكسي، ولا أن مشاهدته لي بالصدفة في تلك الليلة، ستكون سبباً في إنهاء إقامتي في تلك الشقة التي كان رخصها نعمة مهداة من الله، أضعتُها حين اتبعت خطوات الشيطان إلى المهرجان.

لم أكن أعلم أيضاً أنني قد ضُبطت ليلتها متلبساً، إلا حين عدت إلى «شقة الصالحين» قبيل منتصف الليل وأنا أمشي الهوينى، محاولاً تثبيت ملامح حَلمتي ثديي البطلة البولندية، اللتين بدتا فريدتيّ التكوين واللون، بالنسبة لشاب لم يكن رصيده الشحيح من أفلام السكس ومجلاته قد هداه إلى وجود ذلك التنوع الكوني الواسع في الحَلَمات، التي كان يظن أنها خلقت جميعاً من «استامبة

واحدة»، لكن تلك الملامح «الحلماتية» الوردية المائلة بشكل مدهش، والتي حرصت على تثبيتها في الذاكرة، طارت فور رؤيتي لحقيبتي مرزوعةً إلى جوار جهاز الكاسيت أمام باب الشقة، لأفهم بعد أن طرقت الباب، بأن سر رزعتهما هناك، أنني أمسيتُ مطروداً من جنة الشباب الصالح، منذ أن عاد ذاك الأخ إلى الشقة، وحكى لإخوته كيف رآني أخوض معركة ضارية أمام شباك تذاكر سينما روكسي، كأنني أرملة تخوض معركة في طابور العيش لتطعم أيتامها، على حد تعبيره الغاضب.

كل ذلك أبلغه لي من وراء الباب بصوت حاسم متهدج، طالب الطب الأخ الدكتور عبد الجواد «أمين الشقة» كما كان يلقبه الإخوة الصالحون، وهو لقب كان يستفزني طيلة الفترة التي أقمتها في الشقة، مع أن الشقة كانت حافلة بمثيرات الاستفزاز وموجعات المحاشم، ليزول قدر لا بأس به من شعوري بالمرارة الناتجة عن طردي، حين ألقيت من خلف الباب كلمة احتجاجية على ذلك الطرد المهين، الذي تم دون مواجهتي بفعلتي أو حتى «استتابتي» عنها، وكان مما قلته في نهاية كلمتي عبارات غاضبة خصصت بها الأخ عبد الجواد، تحاشيت فيها شتيمة الأم، لكي لا يبلغ ذلك أمي عبر صديقتها فتغضب مني، لكنني لم أفوّت فرصة السخرية من لقبه الأثير قائلاً: «وبعدين إيه حكاية أمين الشقة دي يا سي خرا.. تكونش فاكر نفسك أمين الأمة يا معرّص.. هي دي شقة أصلاً يا شراميط.. ده إنتو عميتوني فِسا وشخير وريحة شرابات معفّنة.. يلعن أبوكو على أبو سُكنتكو الخرا»، بالإضافة إلى شتائم متفرقة مما لا تقال في هذا الموقف بالذات، بل تُقال في كل المواقف التي يجمع الإنسان فيها بين شعوره بالمرارة وقلة الحيلة.

لكن مفعول شتائمي المريح للنفس لم يدم طويلاً، تماماً كأي مخدر موضعي، وتكرارها بيني وبين نفسي لم يساهم في تدفئتي حين لفحني البرد، وأنا نائم على بسطة سلم العمارة تحت شباك مكسور الزجاج، تتدفق منه صواريخ الهواء البارد، دون أن يكون لدي ما ألتحفه سوى البدلتين الحيلة، ولا ما أفترشه سوى كتبي ومجلاتي، التي تركوها بجوار شنطتي كاملة العدد، وكأنهم ما صدقوا الخلاص منها، لما كانت تحفل به من صور «نجمات السينما الكاسيات العاريات المائلات المميلات كأسنان البُخت».

مرت ساعة أو ساعتان، قبل أن يغلبني النوم من فرط التعب، بعد أن تآلف جسدي مع البرد، وكنت قد بدأت يا دوبك في استعادة ملامح الحلمتين البولنديتين اللتين كنت أظنهما لم يُخلق مثلهما في

البلاد، لكن تلك الملامح الفاتنة غامت قبل لحظات من اكتمال تشكلها، حين فوجئت بيدٍ تمتد نحوي لتهزني وتوقظني. كانت تلك يد أحد شباب الشقة الصالحين، الذي كان يخفي تعاطفاً مع الطالحين من أمثالي، لأن لديه أخاً أصغر يفوقني طلاحاً وصرمحة، ولذلك لم ترضه بهدلتي، فقرر أن يدلني على غرفة متاحة في شقة بأحد المناطق المتفرعة من شارع الهرم، تملكها سيدة عجوز قال إن اسمها أم ميمي، كان قد سكن فيها العام الماضي، بعد أن دلّه عليها واحد من بلديّاته كان قد سبقه إليها خلال دراسته في جامعة القاهرة، لكنه لم يستمر في السكن هناك، لأن الشقة كانت بعيدة جداً عن مقر دراسته في جامعة الأزهر، وكل ذلك حكاه لي بصوت خفيض وهو يتلفت حوله حرصاً على ألا يكتشف بقية الشباب الصالح تعاطفه مع «تفاحة فاسقة يمكن أن تفسد بقية القفص»، طبقاً لما قاله «أمين الشقة» في حيثيات حكم طردي.

قال الشاب الصالح المجدع إنني محظوظ لأن الغرفة التي سكنها لفترة قصيرة في العام الماضي ما زالت خالية، كما علم من أم ميمي التي اتصلت به قبل عشرة أيام، وطلبت منه أن يدلها على ساكن، بعد أن ظلت الغرفة التي تؤجرها خالية منذ بداية العام الدراسي، وحين طلبتُ منه أن يعطيني رقم هاتفها لأتصل بها في الصباح الباكر وأتفق معها على موعد، قال إن الشقة ليس فيها تليفون، لكن هناك بقالاً ابن حلال يجاورها، اسمه عم سيد، يمكن حين أسكن في الشقة أن أعطي رقمه لمن أردت وسينادينى لأرد على المكالمة مقابل مبلغ زهيد سيتفق معي عليه، وطمأنني أن أم ميمي لا تغادر الشقة إلا للشديد القوي، وتعود إليها سريعاً، ولذلك لن تكون مهمة الوصول إليها صعبة، ثم منحني عنوان الشقة مكتوباً في ورقة، وحين قلت إني أخاف من خبط المشوار على الفاضي، لأجد أن الغرفة قد تم تأجيرها، خصوصاً أن عشرة أيام قد مضت على مكالمتها له، قال لي بوضوح إنني حين أرى الشقة، سأدرك أنها ليست مطمعاً لأحد، ولا يمكن أن تكون على قائمة اختيارات أحد إلا إذا كان مهدداً بالنوم في الشارع مثلي، وقد أقلقني ما قاله بالطبع، لكن قلقي لم يطُل، حين سمعت رقم إيجار الغرفة، فقد كان أقل بقليل من الرقم الذي كنت أدفعه في شقة الشباب الصالح، وأقل بكثير من أي شقة لا تبعد عن جامعة القاهرة أكثر من ربع ساعة كما قال لي الشاب المجدع، الذي لم يكن دقيقاً في معلوماته، كما علمت بعد فوات الأوان، وبعد عبوري اليومي لنفق «نصر الدين» في أول شارع الهرم، الذي يُهزم ويطلع دين من يضطر لعبوره مرتين كل يوم.

لم أكن أحتاج إلى حسابات طويلة لأدرك أنني بالانتقال إلى تلك الشقة التي سبقتها سمعتها السيئة، سأوفر كل يوم نصف جنيه مرة واحدة، من خلال فرق السعر بين تذكرة «ميني باص نِمرة 39

ألماظة - جامعة القاهرة» البالغ ثمنها نصف جنيه، وبين تذكرة أي أتوبيس بين الهرم وجامعة القاهرة يبلغ ثمنها ربع جنيه، وبالطبع كنت أعقل من أن أفكر في الأتوبيسات التي يبلغ سعر تذكرتها عشرة قروش، لأن تجارب من ركبوها لم تكن تشجع قط على اختيارها.

كل هذا كنت مشغولاً باستحلاب تأمله، وقد نشرت الفرحة دفئها في عروقي، لأواصل الدعاء للصالح المتواطئ طيلة الليل، بأن يقذف الله في قلبه حب السينما، ويلحقه برواد مهرجان القاهرة السينمائي الدولي قبل أن تنتهي دورته الحالية، لعله يحظى في أحد أفلامه بفاتنة رجراجة الثديين مشدودة الردفين فريدة «الحلمتين»، تؤنس ملامحها وحشة قلبه، وتُطَرِّي «نشفان» معيشته وسط أولئك الغلاظ، الذين لو ساكنهم ملاك صالح لطفش من ركب الفضيلة، وانضم إلى جيش إبليس طائعاً مختاراً.

مع بزوغ شمس النهار، ركبت أول (ميني باص) يمر في شارع يوسف عباس، ليحملني إلى محطته الأخيرة في جامعة القاهرة، لا لأذهب كما تعودت كل صباح، إلى مبنى الكلية الكائن في معهد الإحصاء في شارع الدقي، الذي كان طلبة الفرقة الأولى من كلية الإعلام قد نُفوا إليه، في تلك الأيام من عام 1991 التي لم يكن للكلية فيها بعد مبنى رسمي، ولكن لأركب مواصلة أخرى تذهب بي إلى شارع الهرم، حيث مَثُلت لأول مرة في حضرة أم ميمي، التي وجدتها مرزوعة في الشقة كما قال لي الشاب المجدع، الذي اتضح أنه لم يكن دقيقاً في وصفه للمساحة التي سأسكنها بأنها «غرفة»، فلم يكن من الدقيق وصفها بالغرفة أو بالحجرة أو حتى بالمطرح، فقد كانت أشبه بالـ«حُقّ» حَقّاً وصدقاً، بل هي إن جئت للحق، «حُقّ» يضمه «حُقّ» أكبر قليلاً، هو شقة أم ميمي المكونة من «حُقّين» وفراغ مستطيل تافه ينتحل صفة الصالة، و«زنقور» تعيس يهين أحقر مطابخ الأرض أن يشترك معها في وصفه بالمطبخ، و«شِبه» حمّام مخلخل البلاط لا يجعله جديراً بتسميته بالحمّام إلا كونه ينضح بروائح ثقيلة الوطأة.

لكنك برغم كل هذا الوصف الانفعالي، الذي لا يوفي حقارة المكان حقها اللائق من الاحتقار، لن تستغرب لو قلت لك إنني فور رؤيتي للحُقّ الذي سأسكنه، وقبل أن أكثر من الحديث مع أم ميمي، كنت قد دفعت لها إيجار شهرين مقدماً، لأن الشاب المجدع كان قد أحسن إلي، حين هيّأني نفسياً للتعامل مع وضاعة الشقة، وحين نبّهني إلى حقيقة لم أكن سأغفل عنها، وهو أنني لست في وقت كهذا حِمل المخاطرة بالتبطر على تلك الغرفة، لأن البديل عنها هو النوم في الشارع أو العودة إلى

الإسكندرية أجر أذيال الخيبة، ولذلك قررت أن أرضى بتلك الغرفة الحقيرة، على أمل أن أجد بديلاً عنها في إجازة نصف السنة.

ضحكت أم ميمي حين سألتها عما إذا كان هناك عقد لأقوم بإمضائه، وطلبت مني أن نقرأ الفاتحة لأنها «أبرك» من أي عقد، وقالت إنها لن تطلب مني «شهر تأمين» كما يفعل غيرها، مفسرة ذلك بقولها: «أنا هآمنك على نفسي يا ابني.. يبقى آخد منك تأمين إزاي»، ثم نبهتني إلى أن ابنها البكري ميمي يسكن معنا في الشقة، لكنه يأتي للبيات فيها فقط، بعد أن ينهي عمله كل يوم، لكن ميمي يعرف جيداً بحكم التجارب السابقة أن دخول غرفتي سيكون حصرياً لي، ومع ذلك سيكون من حقي أن أحظى ببهجة الجلوس في الصالة القميئة متى أردت، معتذرة عن عدم وجود تلفزيون في الشقة لأنها لا تحب الوشّ ووجع الدماغ، وأنها تفضل الاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم طيلة اليوم، ثم ألقت نظرة ممتعضة إلى جهاز الكاسيت المستقر إلى جوار الشنطة، وطلبت مني أن أحرص على خفض صوته حين أقوم بتشغيله، لأن صوت الأغاني يدخل الفقر إلى البيوت ويطرد منها الملائكة، «خصوصاً أغاني اليومين دول اللي كلها خبط ورزع».

كانت الدقائق التي جمعتني بأم ميمي قد جعلتني أرتاح إليها، فقد بدت لي منذ النظرة الأولى سيدة طيبة، ربما لأنني كنت أحتاج إلى أن أشعر بذلك، وربما لأن وجهها الملظلظ كان بشوشاً وهي ترحب بي، وأنها حين ضحكت زاد وجهها لطفاً وبشاشة، أو ربما لأنها كانت «تزكّ» قليلاً حين تمشي، وتكحّ من حين لآخر، وهما تفصيلتان امتزجتا مع لقب «أم» الذي تحمله، ومع ذوقها الغنائي الكلاسيكي، فساهم ذلك المزيج في شعوري بالارتياح إليها أكثر.

لم يكن الوقت مناسباً لمناقشة تصورات أم ميمي عن الفقر والبيوت التي تستنظفها الملائكة وتدخلها، فطمأنتها إلى أنني سأحرص على ذلك كلما قمت بتشغيل الكاسيت أو الراديو، ومن باب فتح أي كلام ودود معها، قلت إنني لا أملك إلا شرائط قرآن أهدتها لي أمي مع الكاسيت، وشريطاً للست فيروز وآخر لسيد مكاوي، فطبطبت على كتفي ودعت لأمي وطلبت مني أن أسلم عليها إلى أن تلتقيها حين تزورني، ثم أثنت على ذائقتي الغنائية لأنها أيضاً تحب أفلام فيروز وأنور وجدي، وتحب الشيخ سيد مكاوي لإنه راجل كفيف وبركة، ثم طلبت مني أن أضع حاجتي في الدولاب الذي لم يكن يتخيّر في قبحه عمّا حوله، وقبل أن تخرج من الغرفة، التفتت مستدركة: «صحيح نسيت أقولك.. بلاش تفتح الشباك.. عشان الشارع ضيق وهيملا لك الأودة عَفَرة وتراب

وناموس»، فقلت مخفياً صدمتي من الخنقة المقبلة إنني لست مهتماً بفتح الشباك خصوصاً في الشتاء، أما الصيف فما زال بعيداً حتى نعمل حساب الناموس، فابتسمت وقالت لي إن الناموس هنا لا يعترف بالفصول وإنه متوفر صيفاً وشتاءً، وبعد أن وضعت رجلها خارج الغرفة أضافت معلومة جديدة أكثر أهمية: «آه صحيح.. وبلاش تقفل باب الأودة.. عشان لو اتقفل هتتحبس في الأودة لغاية ما نلاقي نجار يكسر الباب.. أو ساعتها هتضطر تفتح الشباك عشان تنطّ منه للشارع»، وحين لمحت على وجهي خيبة أمل لم أتمكن من إخفائها هذه المرة، قالت بحنان مشوب بالعتاب: «إيه مالك؟ زعلان عشان الباب ما بيقفلش؟ يا سيدي ابقى اضرب عشرات في الحمام»، لتجمعنا بعد تلك العبارة الكاشفة عن فراسة مدهشة، ضحكة عريضة مشتركة غمّستها بشخرة واضحة، ضحكة تكررت كثيراً في ذلك «الحُقّ» الذي سأظل أحمله معي إلى الأبد.

هي أم ميمي مع أن ميمي
أصلاً ليس بميمي!

كانت شقة أم ميمي تقع في الدور الأرضي لبيت من دورين، هو أول بيت قبيح يصادفك على اليمين حين تنعطف من شارع الهرم نحو ذلك الشارع المريب، الذي لا يعلم أحد الملابسات التي أصبح فيها شارعاً، ولا من اختار أن يجعله الشارع الوحيد ربما في مصر، الذي لا يحمل اسماً محدداً، برغم أن شوارع مصر تحفل بأسماء تبدأ بشارل ديجول وباتريس لومومبا ولا تنتهي بابن زنبل الرمّال وابن سندر، مروراً بشارع عبد الحميد مصطفى وشارع مصطفى عبد الحميد، فضلاً عن شوارع الأعناب والنخيل والفواكه والثمار والأشجار وسائر الكائنات، إلا أن ذلك الشارع بلغ شأناً من الضِعَة لدى الدولة المصرية ممثلة في محافظة الجيزة فاختارت له أن يحمل اسم «شارع خلف كازينو إيزيس»، بس.

وبرغم أن مدخل الشارع أوسع بقليل وأعفن بكثير من فتحة شرج وحيد القرن، فإن ممثلي أقدم دولة في العالم، لم يمنحوه توصيف «عطفة» أو «زقاق» أو «حارة»، برغم أن هناك عطفات وأزقة وحواري في أحياء القاهرة والجيزة القديمة أوسع منه بكثير، واختاروا توصيفه بأنه «شارع»، لكنهم لم يسبغوا عليه شرف حمل اسم ما، بل ربطوه بذلك الملهى الليلي الكائن بمنطقة «حسن محمد»، الذي لم أتشرف حتى الآن بمعرفة دوره الذي استوجب إطلاق اسمه على تلك المنطقة المكتظة بالسكان والواقعة بين شارعي الهرم وفيصل، تماماً مثلما لم أفهم لماذا أطلقت اللجنة المختصة بتسمية الشوارع اسم «خلف كازينو إيزيس» على الشارع الذي يقع فيه بيت أم ميمي، وهل كان ذلك انتقاماً ما قام به أحد الموظفين في حق أحد سكان الشارع.

لكن افتراض وجود انتقام لسبب أو لآخر، طرح لدي تساؤلاً عن الاسم الذي كان يحمله الشارع قبل حدوث ذلك الانتقام المفترض، بل وقبل بناء كازينو وملهى إيزيس الذي يعود تاريخ بنائه إلى

الستينات. كان يستحيل طبعاً أن نتصور أن أحد مُلّاك الملهى الليلي قد قام بدفع رشوة لأعضاء اللجنة ليربطوا اسم الشارع بالملهى للأبد، فالشارع ليس أمَلَة على الإطلاق، وإذا كان ينبغي دفع رشوة فغالباً ستكون لإزالة التشويه الذي يلحقه منظر الشارع بسمعة الملهى، الذي يقال إن مطرباً عملاقاً مثل محمد عبد المطلب شارك في إنشائه مع أحد أصهاره، وظل صوته يلعلع فيه حتى مات، وإذا ذكرنا أنفسنا أننا في نهاية المطاف نعيش في مصر، وعلى تخوم منطقة الطالبية التي لم تعرف المنطق منذ نهاية حكم الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين، وأن المسألة كلها لا تعدو أن تكون استسهالاً أو كسلاً، فلماذا لم يعترض أحد سكان الشارع عبر العقود الماضية على ذلك الاسم، أو يطلب تسمية الشارع باسم أقدم ساكنيه كما جرت العادة، إلا إذا كان هناك اتفاق جماعي بين الأجيال المتعاقبة من السكان على احتقار الشارع و«الاستعرار» منه؟

الغريب أنني حين توطدت علاقتي بسكان الشارع فيما بعد، لم ألمس لدى أحدهم ضيقاً بتلك التسمية العجيبة لشارعهم، حتى إن عم سيد البقال أحد أعيان الشارع وندوبه المميزة، فاجأني حين أثرت معه الموضوع بأن الحكومة تستحق الشكر، لأنها وفرت المجهود على سكان الشارع، حين منحته اسماً يحمل وصف موقعه، لأن ذلك يسهل مهمتهم في إرشاد القادمين إلى الشارع لسبب أو لآخر، بعكس سكان حي المعادي مثلاً، الذين يدوخ من يذهب إليهم دوخة الإبل، بسبب إطلاق أرقام على شوارعهم، وحين حاولت أن أشرح له نظريتي في احتقار الحكومة للشارع، بدليل أنها لم تكرر فعلتها مع غيره من شوارع، عاملني كأنني مخبر مزقوق عليه لأستدرجه للغلط في الحكومة، وأنهى النقاش بجفاء قائلاً: «انت باين عليك فاضي يا ابني، هو اسم الشارع هيفرق معاك في إيه، ما تسكن وانت ساكت».

بالأمانة، كنت فاضياً إلى حد ما حين شغلني ذلك الموضوع، خصوصاً أن الفترة التي انتظمت فيها في حضور محاضراتي منذ سكنت في شقة أم ميمي، كشفت لي أن الدراسة في كلية الإعلام لم تكن صعبة إلى الحد الذي تصورت، وفيما عدا معاناتي في مادة اللغة الإنجليزية، كنت قادراً على إنجاز ما هو مطلوب مني في وقت قصير، وإيجاد وقت كافٍ لما تسمح به الميزانية من التسلية، ولأن البند المخصص لذلك كان ضئيلاً إلى حد محزن، فقد حاولت شغل بعض وقتي بإشباع هوسي بحل لغز تسمية الشارع، لينتهي ذلك الهوس بفعل شخرة حادة تلقيتها عندما سوّلت لي نفسي أن أذهب بعد فترة إلى مبنى محافظة الجيزة في شارع الهرم ذات يومٍ دراسي خفيف المحاضرات،

لأبحث بوصفي طالباً في كلية الإعلام عن مختص يساعدني على حل اللغز لكتابة الإجابة في تحقيق صحفي ستنشره جريدة الكلية عن أغرب أسماء الشوارع في القاهرة والجيزة.

كانت تلك الشخرة قد انبعثت من حلق موظف الاستعلامات الرابض على مدخل مبنى المحافظة، الذي لم أكن أعلم أن توصيفه الوظيفي يتطلب منه أن يشخر لمن ينشغل بأسئلة كهذه، وأشهد أنه أدى وظيفته بأمانة، فلم يكتف بالشخرة التي خشيت على أحباله الصوتية أن تنقطع من حدتها، بل أعقبها بحجة منطقية أفحمتني حين قال: «ما يسمّوه يا أخي زي ما يسمّوه.. هو انت هتسكن فيه ولا هتشتريه.. وبعدين هي المواضيع خِلصت يعني عشان تكتبوا عن الهيافات دي»، وقبل أن أحصل على فرصة لكي أشرح له أهمية التفاصيل الصغيرة في دنيا الصحافة، قرر التصعيد فجأة وأدار رأسه في الفراغ المحيط به صارخاً: «ما تندهوا لنا حد من الأمن في أم الليلة الخرا دي»، ولم يكن مناسباً في تلك الأيام التي كان يسودها لَبَش الإرهاب، أن أخاطر بفكرة إقناع القادمين من أفراد الأمن أنني رجل هايف، لم يفعل شيئاً سوى ممارسة حقه في معرفة سر تسمية شارعه، لكي يسكن فيه عن اقتناع.

يهمني الآن أن تعرف أن استفاضتي في الحديث عن اسم الشارع الذي يقع فيه بيت أم ميمي، ليس وراءه رغبة في تأخير تعريفك أكثر على أم ميمي نفسها، لأنني لم أكن سأفعل لو لم يكن ذلك ضرورياً لوضعك في أجواء علاقتي بأم ميمي نفسها، التي عاشت معي وماتت على يدي، دون أن أعرف اسمها الحقيقي الذي توارى خلف لقب «أم ميمي»، فكما فشلت محاولتي في العثور على تفسير لتسمية الشارع، فشلت محاولتي في العثور على تفسير لسر حمل اسم ميمي لذلك اللقب الذي لا يناديها أحد بغيره حتى ابنها وابنتها، وحين حاولت أن أسأل عن اسمها الحقيقي، لأشبع هوسي بالتفاصيل، لم يكن حظي بأفضل من حظي حين قررت أن أسأل الحكومة عن سر استنكافها عن اختيار اسم معتبر لشارع «خلف كازينو إيزيس».

لكن أم ميمي لم تشخر لي مشكورة حين سألتها، ليس لأن حلقها كان مُتعباً، بل لأنها حمّلت سؤالي أكثر مما يحتمل، فقابلته في البدء بصمت لم أفهمه، لكنه دفعني لتغيير الموضوع، وحين امتد صمتها إلى اليوم التالي، وظننته خصاماً سيطول، حاولتُ إنهاء صمتها متودداً، ومستغلاً ما سبق أن قالته عن استجداعها لي، فاتضح أنها ظنت حين سألتها عن اسمها، أنني سأسأل بعد ذلك عن اسم أمها، وسرحت في ظنونها أكثر، فتخيلت أنني أريد أن أعمل لها عملاً سفلياً، لكي أستعجل لها

الموت وآخذ الشقة وضع يد، أو «وضع يتّ»، بنص ما قالته أم ميمي المبتلاة بلدغة في الدال وبانعدام كامل في الثقة في القريبين منها، فضلا عن «الغريبين» من أمثالي، وهو ما دفعني إلى تبديد مخاوفها بتمني طول العمر ودوام الصحة لها، وتذكيرها بأنني عابر سبيل لا ينتوي الإقامة الطويلة، ولكي لا أجرح مشاعرها، لم أقل لها إنني عازم على البحث عن بديل للسكن معها في إجازة نصف العام، بل قلت إنني سأنتقل في العام القادم إلى شقة يسكنها أحد أقاربي، لأنها أقرب إلى جامعة القاهرة، توفيراً للوقت وفلوس المواصلات، وأنني لم أكن أبتغي من سؤالي سوى التعرف عليها أكثر، مضيفاً بحسم: «لكن طالما ده بيقلقِك يتقطع لساني لو سألك السؤال ده تاني»، لتتأثر أم ميمي بما لمسته من صدق كلامي، وتعود المياه بيننا لمجاريها، بأسرع ما تضرب مجاري الشقة كلما أطال أحد في الاستحمام.

أعلم أنني لم أحدثك بعد عن ميمي نفسه، مع أنه كان موجوداً في الصورة منذ سكنت في الشقة، لكن دعني أستبق الحديث بالتفصيل عنه، بالإشارة السريعة إلى موقفه، حين حاولت استغلال الروقان الذي جمعنا يوماً ما، لأعرف منه اسم أمه الحقيقي، لكنني فوجئت أن سؤالي البريء أطار الروقان وكهرَبَ الجو، وجعله يرمقني بنظرة غامضة، ظننتها زغرة زاجرة، فبدأت أتهيأ للقول إن العشم وحده هو الذي دفعني للسؤال من باب تزجية الفراغ، لأفاجأ أن غموض نظرته لم يكن خداع نظر، بل كان مستنداً إلى حيرته التي لا أدري هل كانت حقيقية أم مؤقتة ونابعة عن سكره البيِّن أم سوقاً للهبل على الشيطنة؟ وإلا لما قال لي ملوحاً بزجاجة «راس العبد» مشروبه الروحي المفضل بسبب رخصه وقوة تأثيره: «طب تصدق والنعمة دي على عيني وعافيتي مش فاكر دلوقتي، أصل أنا وعيت ع الدنيا لقيت كل اللي حواليا بيقولوا لها يا ام ميمي، ده حتى قرايبي اللي في الضاهر باينهم مايعرفوش اسمها أصلاً.. كل مايشتموني يقولوا لي يا ابن الوسخة وساعات حرام عشان الكدب خيبة.. بيقولوا لي يا ابن اللبوة.. إنت عارف إن أنا أصلاً ما عرفتش غير لما جيت أخش المدرسة إن أنا اسمي أصلاً مش ميمي». ولأن صمته طال بعد ما قاله، ولأنني لم يدخل دماغي حكاية أنه لا يعرف اسم أمه، وأدركت أنها ربما كانت تحمل اسماً يستعرّ المرء منه، لذلك قررت أن أشبع فضولي بالحصول على إجابة للسؤال الجديد الذي بات مطروحاً: «أمال انت إسمك إيه أصلا يا ميمي»، ومع أنني افترضت أن لعبي لدور نديم الراح ليلتها سيمنحني إجابة فورية للسؤال، فإنه كبسني عندما قال بجفاء طارئ يشي بسرٍ ما: «أحه يعني وهيفرق معاك اسمي بإيه.. إذا كان مافرقش معايا أنا أساساً».

ربما لأنني لم أكن شغوفاً بمعرفة اسم ميمي الحقيقي، لأنه بالفعل لن يفرق معي ولا معه، فقد كان اسمه الحقيقي أول لغز يتم حله دون أن أسعى إلى ذلك، فقد باحت لي به أمه ذات «ضُهريّة» جمعة ونحن نحتسي الشاي بعد أن أخذنا على بعض وأصبح بيننا كلام وحواديت. كانت رغبة الحكي تتملكها يومها بشدة لم أمانعها بسبب شعوري بالملل الذي تبدد على الفور وانقلب إلى ضحك عاصف، حين قالت لي إن اسم ميمي الحقيقي هو عزت، وهو اسم لم أكن لأتوقعه بأي حال من الأحوال، ليس فقط لأنني لم أعرف وقتها أي عزت في الكون، سوى عزت العلايلي الممثل، بل لأن ميمي نفسه لم يكن يبدو قط كعزت، وهو ما كان في الأصل سبباً لحمله اسم عزت.

تقول أمه في تفسير ذلك إنها عندما أنجبت ميمي كان «حلو حلاوة بنت وسخة.. أحلى حتى من أخته فاتن الكَرتة اللي طلعت شبه العرص أبوها.. والخيبة إننا سمّيناها فاتن.. قال يعني اسمها هيغطّي على خِلقتها العِكرة.. هنعمل إيه بقى.. الدنيا حظوظ.. انت عارف إن الوله ميمي كان أحلى من كل بنات باب الشعرية والضاهر.. كان طالع لي الخالق الناطق وأنا عيِّلة.. انت ما شفتنيش أصلك من بتاع أربعين سنة.. كنت ولا هند رستم في عزها.. بس لاجل الحق بزازي كانت صغيرة مش زيها.. بس مش لدرجة بزاز لَموني.. يعني أكبر شويتين.. وياما وِلعت خناقات بين رجّالة باب الشعرية ورجّالة الضاهر من تحت راسي.. تلاقيك دلوقتي عمّال تقول الولية دي بتشتغلني.. عاذراك.. أصل العيا ابن وسخة وبيهدّ.. بكره أمك تعيا وتعرف.. ولا بلاش عشان أمك بنت حلال.. حسب كلامك يعني أنا ما عاشرتهاش.. المهم يا سيدي لما وِلِدت الواد ميمي.. كنت فرحانة أوي بيه.. قلت إيه.. هاسميه ميمي.. على اسم واد يهودي كنت دايماً ألعب معاه واحنا صغيرين.. كنت كلام في سرك بالعب معاه عريس وعروسة.. قبل ما يسيب هو وأهله الحتة والبلد كلها.. الله أعلم فين أراضيه دلوقتي.. المهم لما قلت هاكتبه في الشهادة كمال بس هنقوله يا ميمي.. قامت أمي الله يحرقها.. ما كنتش أطيقها على فكرة.. عشان كانت ست مفترية وجِلدة ولسانها زِفِر.. قالت لي وماله ياختي سمّيه كمال ودلّعيه ميمي.. عشان عيال الحتة تبعبصه وتنطّ عليه وتكسر عينه.. وابقي شُخّي على قبري لو ده ما حصلش.. وبصراحة لقيت عندها حق.. فقلت أسميه عزت.. أهو اسم أنشف شوية.. بس فضلت برضه طول عمري أقوله يا ميمي، والاسم لزق فيه».

وبرغم أن علاقة ميمي بأمه، كانت تمر وقت سماعي للحكاية بمنحنى هبوط حرج، فإن قلب الأم دفعها لأن تقطع استرسالها في الحكي، لتقسم بالأيمان المغلظة أن ما حذّرت منه الجدة لم يحدث

قط، لأن الحارة شهدت ميلاد أطفال أحلى منه بكثير، فحملوا عن عزت الشهير بميمي ذلك العبء الذي حذرت منه الجدة، وأزالوا عن أمه عبء ذهابها إلى قبر أمها للتبول عليه.

بالمناسبة كان «العيا» الذي تلقي عليه أم ميمي بلائمة تحويلها من قمر ليموني البِزاز، إلى كتلة مِبعجَرة من الدهون والآلام، هو مرض الربو اللعين الذي كنت أظن قبل سكني مع أم ميمي أنه انقرض من مصر مع انقراض مرض السل وسائر الأمراض الصدرية التي كانت تصاب بها بطلات روايات مصطفى لطفي المنفلوطي. كانت المرة الأولى التي عرفت فيها بأن أم ميمي مصابة بذلك المرض، بعد أن تسلمت منها الغرفة، ومع أول كوباية شاي جمعتنا، أخذت تملي تعليماتها التي انحصرت في: «ما تجيبش شراميط في الشقة وأنا هنا.. عندك يوم الخميس اللي بانزل فيه الضاهر أزور أهلي.. لو عرفت تسرّب واحدة.. سرّبها ماشي بس خُد بالك ميمي لو قفشكو هيقاسمك فيها.. تاني هام إوعى تاكل لحمة أو زفر من غير ما تعزم عليّ.. أنا سمعي تقيل شوية بس مناخيري بتلقط طبيخ الشارع اللي ورانا فهامرمطك لو طلعت بخيل.. ما فيش أوسخ من المعرّصين إلا البُخلا.. تالت هام إوعى يوزّك عقلك بالليل وأنا نايمة تقرب لي وتوسّخ.. عشان تبقى فاهم أنا عيّانة وعندي الربو.. يعني لو كحيت في وشك هتتعدي ويطلع عين أمك.. ده طبعاً غير إنك مش هتسلم من إيديا اللي مش هتسيبك إلا لما تقطع لك بتاعك».

ولأنني لم أكن راغباً في وضع أي حواجز نفسية بيني وبينها منذ البداية، لم أرد أن أُسَفِّه من اعتقادها بأنها يمكن أن تكون مطمعاً للراغبين، فلم أقل لها مثلاً: «أنا اللي هاسبقك وأقطع بتاعي بإيدي لو فكّر يقرّب لك»، بل رسمت على وجهي ملامح الخشية من تحذيرها، وقلت لها بصوت متهدج: «بصي يا ست الكل أنا واد غلبان وبتاع ربنا وماليش في المسخرة وقلة الأدب.. غير إن أصلاً ظروفي مش ولا بد.. ومش لاقي أصلاً اللي أجيب بيه زَفَر عشان أجيب نسوان.. فاطّمني خالص بالنسبة لموضوع النسوان والبخل.. أما موضوع إني أقرب لك يعني لو الشيطان غَوَاني فدي حاجة ربنا يعين عليها بس انتي برضه لو سمحتي اقعدي حشمة بره أودتك عشان الشيطان شاطر»، ولم يكن غريباً أن تؤتي إجابتي أُكُلها فوراً، لأرى كيف تورد وجهها خجلاً، قبل أن تعدني بجدية أنها ستحرص على ذلك، لكي نتعاون أنا وهي في إخزاء الشيطان الذي كانت واثقة أنه سيكون رابعنا في حالة وجود ميمي ابنها في الشقة وثالثنا في حالة غيابه.

لكن، دعك الآن من تصور أم ميمي أنني ربما أكون راغباً في دعكها أو التحرش بها، والذي عرفت فيما بعد أنه لم يكن تصوراً مغموساً في البارانويا، بل كان له ما يبرره في تاريخها الحافل، ودعني أحدثك قليلاً عن ميمي الذي لم تكن أمه مبالغة حين وصفته بالوسامة، فقد كان أشقر الملامح سايح الشعر محمرّ الخدود بهي الطلعة، لكنه كان أوسخ من عرفت، على كثرة من عرفت من أوساخ.

كيف تنال رضا ميمي عنك؟

كان عزت المتواري خلف اسم ميمي هو الساكن الثالث الذي يشاركنا في هواء الشقة القليل بضع ساعات من الليل عندما يعود منهكاً من عمله في ورشة ميكانيكا سيارات بباب الشعرية، موطن أم ميمي الأصلي، الذي نَزَحَت منه إلى شارع خلف كازينو إيزيس قبل سنوات طويلة، لأسباب مؤسفة تبينت لي بعد فوات الأوان.

كان ميمي يعود في تمام الحادية عشرة من كل ليلة، مصطحباً معه زجاجة نصف ممتلئة بما تيسر من أنواع الخمور الرديئة بدءاً من السبرتو - مشروبه في أيام الفَلَس– ومروراً بزجاجات الكونياك والأربعة والثمانين والكينا وروم (راس العبد) وانتهاءً بـ«منقوع البراطيش» الذي اكتشفت أنه ليس اسماً سينمائياً ساخراً، بل اسم شهرة لمشروب يتم تداوله بالفعل عند باعة الخمور الرخيصة، ويفتخر شاربه بقدرته على تحمله، ويعتبر ذلك دليلاً على رجولته و«جَمَدان» دماغه.

لم أكن قد سمعت بأي من تلك الأنواع قبل معرفة ميمي، ولولا أنه كان يبادر إلى تعريفي بها لما سمعت عنها، ولم يكن ميمي يُعرِّفني على ما كان يطفحه من باب الرغبة في أن نتقاسم صحبة الراح، بل كان ذلك التعريف يحدث كل مرة بشكل مختلف ضمن طقس متكامل كان لا يحلو له أداؤه إلا وهو واقف فوق رأسي وأنا أذاكر، وبالطبع لم يكن بمقدوري لأسباب تتعلق بضعف موقفي وخسّة موقفه، أن أرفض السماح له بأداء ذلك الطقس حولي، لأن أمه كانت حاسمة معي منذ البداية عندما أعطتني مفتاح شخصيته في كلمات قليلة: «لو عايز تكسب ميمي ما تزعّلوش أبداً.. ده واد شرموط وأنا عارفاه».

ولأن كلام أم ميمي كان واضحاً للغاية في رسالته: «لو عايز تكسب ميمي ما تزعلوش»، لم يكن من الحكمة أن أعترض ولو حتى بملامح الوجه المتبرمة على ميمي لا سقاه الله من خمر الجنة،

حين كان يأتي بزجاجة المنكر المتاحة له إلى البيت، وبعد أن يشرب أول كأسين، تأخذه النشوة فيقوم بوضع الزجاجة بين رجليه، فإذا كانت زجاجة «أربعة وتمانين» مثلاً يقول وقد طفح وجهه بالبشر متقمصاً شخصية سائق أتوبيس نقل عام: «شفت يا عرص.. آديني راكب أربعة وتمانين أهوه.. ماتيجي تركب بس ما تتشعبطش.. خش جوه وما تخافش مش هادقّر لك»، قبل أن ينفجر ضاحكاً ملء شدقيه اللذين تسيل منهما سوائل متباينة في لونها، متجانسة في إثارتها للقرف.

لكن ذلك الحال على كل ما به من فجاجة، كان أهون بكثير من طقوس ميمي في يوم الأحد، يوم عطلته الرسمية، الذي تعود أن يقضيه كاملاً في البيت، حيث يصحو من نومه في الرابعة عصراً، حين أكون قد عدت لتوي من الجامعة، فيطلق فور صحيانه شخرة عاصفة، يتبعها بجملة لا تتغير أبداً: «مش هاطفح ولا إيه يا ولية؟»، ثم يبقى ملازماً كنبته التي ينام عليها، والمطلة على غرفتي المحرومة من نعمة الباب المغلق، ممارساً طقوسه المفضلة في هرش كل أجزاء جسمه هرشاً حثيثاً، لا يتوقف إلا حين تستقر أمامه صينية الأكل الممتلئة حتى حوافها، بأكل كان يحضر مواده الخام معه في الليلة السابقة، وكلها مواد فاخرة مما لا يتوفر في البيت نفسه في الظروف العادية، ومما لا تأكله أمه نفسها طيلة الأسبوع، بل إنها كانت حتى لا تشاركه في الأكل، وتأخذ نصيبها المحدود الذي يمنحه لها، لتأكله في غرفتها، بينما يأكل هو منفرداً بتلذذ شديد من طعامة الأكل التي تحرك عاطفته تجاه أمه، فيناديها بعد أن ينتهي بنبرة صوت تخلو من الجفاف: «أنا شبعت يا امّه.. اظرفيني كوباية شاي»، لتخرج من غرفتها وتمسك بالصينية الخاوية على عروشها، وتأخذها إلى المطبخ لتنظيفها على الفور، إرضاءً لميمي الذي كان يكره رؤية المطبخ «مكركباً» خلال يوم إجازته، ثم تحضر له كوب شاي ليحبس به خلال استخدامه لعيدان نصف علبة كبريت في تنظيف أسنانه.

بعد آخر شفطة من كوب الشاي الثاني، يدخل ميمي إلى الحمام ليمارس هوايته المفضلة في الغناء أثناء التبرز ثم الاستحمام - الترتيب ليس شرطاً– ثم يخرج من حمامه القصير بفضل حالة المجاري المزرية، مرتدياً الفانلة الحمالات والبوكسر والشراب الصوف، وهي القطع الثلاث التي تشكل زيه الرسمي للعطلة برغم كوننا في عز الشتاء، وكان له في ذلك حكمة يفسر بها عدم خوفه من البقاء بملابس خفيفة في البرد القارس: «أصل البرد ده ما بيخششِ الجسم إلا من بطن الرجلين.. عشان كده لو انت مدفّي رجلك ما يهمكش.. باقي جسمك وخصوصاً بضانك هتدفيهم الشوربة والخمرة»، مع أنه لم يكن سيشعر بالبرد أصلاً، حتى لو خلع ملابسه وجلس في قلب

الشقة زلط ملط، فقد كان يجلس على الدوام ملاصقاً لوابور الجاز الذي يصر على بقائه مشتعلاً كعرض مستمر، يضفي المزيد من المتعة على جلوسه في الصالة، وهو يشرب ما جلبه من مزاج ليوم إجازته، ويمِزّ بالجبنة الرومي والفلفل الأخضر والبصل والخيار المخلل، ضابطاً دماغه على طقس اخترعه بعد قدومي إلى الشقة، وهو إجباري على أن أحضر بعض ما في غرفتي من مجلات لأقوم بقراءتها له، ليس كما كُتِبت بالعربي الفصيح، بل بعد أن أقوم بتحويلها إلى حكايات مسلية، تساعده على ضبط دماغه أكثر ومعرفة «الدنيا ماشية إزاي»، رافضاً عرضي بأن يشاركني الاستماع إلى البرامج والمسلسلات الليلية التي تقدمها إذاعة البرنامج العام، لكنه كان يكره الاستماع إلى الراديو بشكل عام، لأنه يصيبه بالصداع، ويكره بشكل خاص الاستماع إلى برامج مثل «قال الفيلسوف» و«لغتنا الجميلة» و«كتاب عربي علّم العالم» و«من تسجيلات الهواة»، التي كنت أعتبرها برامجي المفضلة وأحزن حين تفوتني بسبب صحبته الغتيتة.

ولأن ميزانيتي الضئيلة لم تكن تسمح إلا بشراء مجلة «روز اليوسف» كل أسبوع، من بين سائر المجلات التي يمكن أن يعرف منها ميمي أحوال الدنيا، فقد كنت أضطر بعد انتهائي من حكاية ما يهمه فيها، أن أختار بعضاً من مجلات سنوات الثمانينات التي كنت أشتريها بتراب الفلوس من أحد باعة الكتب القديمة على سور جامعة القاهرة وسور حديقة الأورمان، لأحكي لميمي من بين صفحاتها العتيقة عمّا حفلت به من مدلهمّات الخطوب، وهو ما قد يصيبك بحيرة لو أنك جئت في شتاء عام 1991، ورأيتني أحكي بحماس، وميمي يستمع باهتمام، إلى أنباء اشتعال حرب جزر الفوكلاند بين الأرجنتين وبريطانيا، وتصاعد المظاهرات ضد التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، واستفحال الجريمة المنظمة والإيدز في نيويورك، وزيادة عدد ضحايا الحرب العراقية الإيرانية، التي كانت بالتحديد خبراً صادماً لميمي الذي كان تعليقه الأول عليها قوله: «هو صدام ده ماحدش عارف يلمه.. هو ما حرّمش بعد العلقة اللي خدها في عاسيفة السحراء».

يسألني أحدكم، وهذا حقه: «طيب، لماذا صبرت على أداء طقس سخيف كهذا؟ لماذا لم تعض على غرفتك بالنواجذ وتتقّي شر سكير تافه كميمي؟ لماذا تخليت عن حقك في الرفض بهذه السهولة لمجرد أن أم ميمي قالت لك ذلك التحذير الشفهي الذي لا يمكن أن تستبعد أنها قالته لكي تجعلك أسهل انقياداً لرغبات ابنها؟»، سأقدر للسائل حسن نيته وسأمتن لكتمانه أي توصيفات سيئة يمكن أن يكون قد وصفني بها في سره، ولأنني رجل لا يحب خداع ذاته، سأتفهم توصيفه لموقفي المنسحق، لكنني أرجوه أن يتأكد بأنني لم أصل إلى ذلك الموقف من فراغ، وأن عدم تصديق ما

قالته أم ميمي عن ابنها جال بالفعل في خاطري الذي يرى سوء الظن من حُسن الفِطَن، ولذلك أحببت أن أتأكد من سوء ظني بنفسي، وليتني ما فعلت.

كنت قد عدت ذات يوم أحد إلى الشقة في التاسعة مساءً بعد أن تعمدت تضييع الوقت، لكي أعود فأجد ميمي وقد نام من فرط السكر، كما كان يحدث أحياناً عندما يكون مستوى خموره أوسخ من اللازم، لكنني ما إن دخلت المخروبة حتى وجدت أم ميمي جالسة في الصالة منهارة في البكاء وقد بدت في حالة يُرثى لها، في حين كان صوت ترجيع ميمي يأتي من الحمام، وهو ترجيعٌ لم يطل كثيراً، لأنه قطعه فور سماعه لصوتي، لأفاجأ به قادماً نحوي وهو يمسح فمه بفوطتي، قبل أن يرميها ممتلئة ببقايا قيئه في وجهي، ويهبّ فيّ هبّة تهون إلى جوارها هبّة بابور الجاز، موجهاً لي اتهامات شديدة اللهجة بأنني أفسدت عليه إجازته، لأنني أعرف أنه لا يحب أن يخرج فيها من البيت، وأنني كنت منذ أقمت لديهم مصدر التسلية الوحيد في شقة كئيبة ليس بها من وسائل التسلية سوى راديو أمه الترانزستور، بعد أن قامت أخته بالبرشطة على التلفزيون وأخذته إلى شقتها دون موافقته، فيكشف لي أن غياب التلفزيون عن الشقة لم يكن باختيار أمه المحبة لتشغيل إذاعة القرآن الكريم، بل كان غصباً عنها وبسبب خلافات عائلية لم تتبين طبيعتها، مضيفاً أنه بسبب قلة أصلي معه، سينام متعكر المزاج وسيصحو متعكنن المزاج، مما قد يتسبب في تبويظ شغل الزبائن وسيؤدي حتما إلى خناقات مع «أُسطاه» وزملاء ورشته، وربما طال في تلك الخناقات مفك أو مفتاح، فتطور الأمر إلى قطع عيشه، واضطراره لأن يترك الورشة ويبحث عن عمل جديد في «أيام خرا زي دي بنلاقي الشغل فيها بالضالّين».

وحين نظرت إلى أم ميمي مستنجداً، لكي توقف سيل شتائم ابنها المنهمر، أو تطلب منه أن يكون واقعياً بعض الشيء في اتهاماته، ولا يُحمِّل تأخيري عن منادمته فوق طاقته، وجدتها تنظر إليّ بخيبة أمل، كأنني قضيت على مستقبل ابنها، وأتيت بتأخيري شيئا إدّاً لن يمحوه، إلا أن أخرّ ساجداً بين يدي ميمي.

الكذب خيبة، ولذلك لن أقول لك إنني فكرت ولو لوهلة أن أصرخ في ميمي على طريقة المرحوم أنور السادات: «قف مكانك.. من أنت.. الزم حدودك يا ولد»، طالباً منه بأشد التعبيرات حزماً - وانضباطاً من باب المراعاة لسُكره– أن يتوقف عن معاملتي كأنني قِنّ الأرض المكلف بمنادمته، ثم أتخلى بعدها عن تواضعي الدائم، لأذكره بوضعه كميكانيكي سكير وبوضعي كطالب محترم

بكلية من كليات القمة يفترض أنه سيكون قد الدنيا، إذا خرج من تجربة السكن معه ومع أمه على خير.

ربما كان ينبغي أن أقوم بمواجهة عاصفة كذلك، لكنني لم أفعل، لأنني لم أكن حِمل المخاطرة بما وصلت إليه من استقرار كان لا بد أن يدوم، لكي أحقق حلمي بتمضية العام الدراسي على خير، والتقدم للمنحة الموعودة، بدلاً من أن أعود إلى بيت أبي أجر أذيال الفشل وأقدم فروض الطاعة، ولذلك لم أتوقف في البدء عند الحالة المزرية التي بدت عليها شقة أم ميمي منذ رأيتها، ولم أسلم نفسي لنظريات المؤامرة التي زارتني في أيام إقامتي الأولى في الشقة، وقالت لي إن قدوم الشاب الصالح الذي ظننته حنوناً لإرشادي إلى أم ميمي، لم يكن شفقة على حالي، بل كان جزءاً من تآمره مع إخوانه علي، لإلقائي في هذا الجُبّ الوضيع، لعل ذلك يهذبني ويجعلني أقرب إلى الله، لكنني طردت هذه التصورات سريعاً، واخترت أن أنظر إلى شقة أم ميمي بعين الرضا الكليلة عن كل عيب، طالما لم أجد بديلاً عنها، تماماً كما اخترت أن أحيط مشاعري بدرع سميك من البلادة، كانت متانته تقوى كلما تعرضت للاستهزاء والسخرية من بعض زملائي، مذكراً نفسي في لحظات الضعف أنني لا أخوض معركة عابرة، بل أخوض «أم معارك» حياتي التي عزمت أن أعيشها كما أريد، متحملاً كل ما يترتب على ذلك، لعلي أحقق في النهاية بعض أحلامي، فيكون ذلك خير عزاء للحظات الأسى والضنك.

لذلك لم أجد يومها مشكلة في الطبطبة على ميمي والاعتذار له، بل وقمت بتقبيل رأسه، وأنا أعده بأن ما حدث لن يتكرر، وبأنني سأحرص على أن أظل متفرغاً له طيلة إجازاته القادمة، لأنني لم أكن أتصور أن بقائي إلى جواره مهم بالنسبة له. ولأنني كنت أتحدث معه بصوت مختنق نابع عن محاولة إخفاء شعوري بالمذلة التي اضطرتني لعدم مواجهته، فقد «لَقَطَ» ميمي اختناق صوتي بوصفه تعبيراً عن ندم صادق، لأفاجأ به ينهمر في البكاء وهو يحتضنني بحرارة، بينما وقفت أنا متخشباً محتاراً، ولولا أن أم ميمي أنجدتني بتعليق، أخرجت به ميمي من «المود»، لظل يبكي في حضني فترة أطول: «يا اد ما تحضنش الجدع وانت واقف بالفانلة واللباس هيطمع فيك وانت أبيض وأجرودي وحزّ طيزك باين»، ولم أفهم سر ابتعاد ميمي السريع عني بعد تعليقها، ليستدير نحوها ويصرخ فيها قائلاً تعليقاً أشد إثارة للريبة: «ليه يعني.. انتي فاكراه زي جوزك الوسخ»، قبل أن يتجه إلى الحمام من جديد، ويأتينا بعد قليل صوته وقد رجع إلى الترجيع الذي كان قد توقف عنه فور رجوعي.

لم أركز وقتها فيما قصده ميمي بكلمة «جوزك»، وهل كان يعني بها أحداً تزوجته بعد أبيه الذي لم تكن سيرته تأتي حتى تلك اللحظة بالخير أو بالشر، وهل حاول ذلك الزوج الاعتداء عليه جنسياً ذات مساء عاصف؟ لم أحاول البحث عن تفسير، فقد كنت مشغولاً بأن أوضح لأم ميمي حقيقة كان لا بد من التأكيد عليها في التو واللحظة، لكيلا تكون قد ترسبت لديها عني فكرة خاطئة من محادثتنا السابقة فور وصولي إلى الشقة: «يا أم ميمي أنا صحيح قلت لك إني لا يمكن أجيب نسوان الشقة.. بس ده مش معناه إني خول ولا بتاع عيال.. أنا ماليش غير في النسوان.. ولازم تعرفي إني لا يمكن أبداً أن أفكر في ميمي تفكير وحش أو أهيج عليه.. لإن ميمي ده زي أخويا»، لكنها لم تتركني أسترسل في شرح نوازعي الجنسية، بل خطفت نظرة سريعة قلقة صوب الحمام، ثم أشارت لي لكي أقترب منها حيث تجلس، قائلة لي بصوت خفيض: «يا ابن الهبله أنا مش خايفة منك.. أنا خايفة عليك.. حاكم ميمي ده نِجِس.. وطالما طَوِّل معاك في الحضن لازم تقلق.. ده لو شاف خرم في الحيطة هينُطّ عليه.. بص خليني ساكتة.. أنا خلّصت ضميري وقلت لك اللي فيها».

قطمت أم ميمي كلامها، ونهضت داخلة إلى غرفتها، لتتركني في حيرة تضاعفت بعد خروج ميمي من الحمام وقد بدا أنه أفاق من هم عميق كان يثقل روحه، قائلاً لي بمودة كأن لم يكن بيننا زعل على الإطلاق: «خش غيّر أم البدلة الكمّوني اللي شكلها بيمغِص بضاني دي.. واستنضف لنا مجلتين تلاته على ما أكون وضّبت القعدة.. هُمّا تلات ساعات اللي فاضلين لي عشان أضبط أم مزاجي اللي انت نِكت أفكاره».

لم أكن أدرك وأنا أقوم بتغيير بدلتي والاستعداد للعب دور الأم الرؤوم التي تساعد طفلها على النوم، أن أسرع طريقة لمساعدة ميمي على النوم، لن تكون في مجلاتي الحديثة ولا القديمة، بل في كتاب (وسائل الاتصال نشأتها وتطورها) للدكتور خليل صابات، لأنني كنت كلما اخترت مجلة وبدأت القراءة منها، قاطعني ميمي بشخرة وقال لي إنه «سمع كسم الكلمتين دول قبل كده»، ولذلك هداني تفكيري إلى أن أستغل سُكر ميمي لقراءة فصل من ذلك الكتاب عن نشأة الصحافة الأهلية في مصر، بعد أن أقوم بحكاية ما أقرؤه عليه بوصفه حكاية أقلد فيها من أحبهم من مذيعي الراديو، وأجمع بين مذاكرة دروسي وتنويم ميمي، وكان من حسن حظي أن الملعون أدمن الاستماع إلى فصول الكتاب بعد ذلك، مفسراً ذلك بقوله: «باروح في النوم بسرعة عشان اللي بتقراه كله أسامي ورا بعض فبيدوش الطاسة بسرعة»، وكانت تلك التجربة فاتحة لتحويل سهراتي مع ميمي إلى مصدر لاستكشاف قدرتي على الحكي، بشكل يشد انتباه الجمهور، الذي لم يكن وقتها سوى ميمي

بفانلته وبوكسره وشرابه الصوفي، بالإضافة إلى أم ميمي التي كانت أحياناً تنشدّ لحكاية ما، فتعلق عليها من داخل غرفتها بضحكة أو تساؤل أو شخرة.

كان حسناً ما فعلت، حين اتخذت قراراً بالانحناء لعاصفة غضب ميمي، لأنني بعد يومين بالعدد من ذلك القرار وجدت نفسي محتاجاً لمقاسمته الصالة التي ينام فيها لأسباب لوجستية، حين اكتشفت أنني لا أسكن في غرفتي لوحدي، بل يقاسمني فيها فأران وبرص.

للأسف، لم تكن أم ميمي أمينة معي عندما سلمتني الغرفة، حين قالت لي بصوت ينضح بنبرات التهوين غير الأمين، إن الشقة «للأمانة» يعبر بها أحياناً فأر قادم من شقة الجيران المقفولة في الدور الأعلى، لكنه ليس فأراً مؤذياً، وأنني لو حرصت على تنظيف غرفتي أولاً بأول وإخلائها من أي «هِري أو فرافيت»، فإنني لن أقابله أبداً، وبرغم أن ذلك كان مقلقاً لي بشدة بسبب ذعري من الفئران، فإنني لجأت إلى نفسي التي كانت وقتها في بدايات توطيني لها على احتمال المكاره، وشخرت لها لأنني سمعت منها صوت «زمزقة»، وحذرتها من تكرار مثل هذه الزمزقة، وذكّرتها بما سمعته عن معاناة أحد زملائي في الكلية الذي تم طرده من المدينة الجامعية لأسباب سياسية، بعد أن ثبت اشتراكه في إحدى المظاهرات، فطلعت عيناه من اللف على سماسرة الجيزة الذين كانوا أنظف وأكفأ من ذهني الأعور، ومع ذلك لم يجد خرم إبرة متاحاً في محافظة الجيزة بأكملها، مع أنه كان مستعداً لأن يدفع مئة وخمسين جنيهاً كل شهر، أي أنه كان بالنسبة لي من المرفهين الذين يبعزقون فلوسهم على الأرض، لكنه مع ذلك لم يجد إلا غرفة مشتركة مع اثنين من أقاربه في منطقة لم أستوعب اسمها عندما قاله لأول مرة، «لعبة»، هكذا نطق الاسم مردفاً إياه بعدد من أسماء المناطق المجاورة «بشتيل - طناش - البراجيل - أوسيم - شنباري - برطس - سقيل» وغيرها من المناطق التي كانت غريبة على أسماعنا نحن القادمين من خارج القاهرة والذين لا نحفظ من أسماء المناطق والمدن إلا ما يرد في مسلسلات قطاع الإنتاج.

لكنني فُتّك الآن في الكلام، ولم أقل لك كيف اكتشفت أنني لا أسكن في غرفتي لوحدي، بل كان يشاطرني فيها دون علمي فأران وبرص؟

شوف يا سيدي، حدث ذلك بعد أكثر من شهر ونصف من إقامتي في شقة أم ميمي، حين جاء لزيارتي زميل لي في الكلية اسمه ناجي، كانت قد بدأت صداقتي به بفضل ذوقنا الرديء المشترك في اللبس، ولا أظن أن هناك شيئاً يقرب الناس بعضهم إلى بعض كنظرات التعالي التي يوجهها

الآخرون نحو ما يرتدونه من ملابس، ثم توثقت صداقتنا بفضل ترددنا على أحطّ أنواع عربات الأكل المحيطة بالجامعة والمناسبة لما لدينا من جنيهات تقيم أودنا اليومي، ولذلك لم أجد غضاضة في أن أستجيب لإلحاح صديقي بالتعرف على مكان سكني، خاصة بعد أن كنت قد حكيت له عن ميمي وأمه، فتمنى عليّ أن أحقق له فرصة لقائهما، بعد كل ما استمع إليه من حكايات عنهما بدت له كالأساطير، ولأنني لم أكن أضمن ميمي ببصلة، ولا أضمن أمه بقشرة بصلة، فقد اخترت لصديقي «بالعِنية» يوماً من الأيام التي يعود فيها ميمي متأخراً من عمله، وتكون أم ميمي في زيارتها الأسبوعية لبيت ابنتها القريب، مبدياً لصديقي أسفي على حظه السيئ، حين دخلنا الشقة ولم نجد فيها أحداً منهما.

لم يستطع صديقي - برغم كل ما سبق أن حكيت له عن ظروفي– أن يكتم نظرات الذهول الممتزجة بالشفقة، وهو يرى الشقة التي أقيم بها والشقّ الذي أنام فيه، ولحسن حظي، حدث سريعاً ما أعفاه من ترجمة ذهوله وشفقته إلى كلمات، وأعفاني من سماعها، حيث كنت قد أكرمت وفادته بإجلاسه على الكرسي الوحيد في الغرفة الذي تجاوره ترابيزة ألوميتال صغيرة أذاكر عليها، وجلستُ على المرتبة المفروشة على الأرض حيث أنام، ولم أكد أفرغ من تكرار عبارات الترحاب به، وقبل أن أشرع في سؤاله عما إذا كان يفضل شرب الشاي في الشقة أم في القهوة القريبة الأكثر آدمية، حتى وجدت نظراته المشفقة، وقد تحولت إلى نظرات رعب اتسع منها محجرا عينيه حتى كادت مقلتاه تسقطان على الأرض، قبل أن يثب برشاقة أوليمبية من وضع الجلوس على الكرسي إلى وضع الوقوف فوقه، ويداه تلوحان في فضاء الغرفة مشيراً بكافة أصابعه إلى خلف ظهري، وصوته يخرج مسموعاً بالكاد: «أحه.. يا نهار اسود.. يا نهار اسود.. إيه اللي وراك ده».

لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء حاد لكي أدرك أن حظي العثر شاء أن يزور الفأر الشقة في ذلك الوقت بالذات، ربما لأن الشقة قبل دخولنا كانت خالية تماماً، فمثّلت له مرتعاً للعب، فقلت وأنا أحاول التماسك لأحول خجلي من الموقف إلى سخرية من خوفه: «إنت طلعت خرع أوي يا عم انت.. كل النطّة دي والرعب ده عشان حتة فار لا راح ولا جه»، فأخذ يشير لي بإصبعين من كل يد، ونظراته المرعوبة مثبتة على زاوية خلف ظهري، مما جعلني ألغي فكرة النظر إليها، خصوصاً بعد أن قال لي بغضب ليدافع عن نفسه وهو يشير بكلتا كفّيه: «فار إيه يا عم.. دول فارين قد كده.. بيجروا ورا ضهرك من الناحية دي للناحية دي»، وقبل أن أنبس ببنت شفة معلقاً على معلومته المذهلة، فوجئت به ينظر إلى السقف وهو يصرخ بهلع أشد: «أحّه أحّه.. دول فارين

وبرص»، ليكون ذلك آخر ما سمعته منه، لأنه قفز في براعة يُحسد عليها من سطح الكرسي إلى عتبة باب الغرفة، واضعاً يده على مقبض باب الشقة القريب بمجرد استقرار قدميه على الأرض، لينطلق منه بسرعة البرق فور فتحه، لدرجة أنني حين تمكنت من ارتداء حذائي وخرجت لألحق به، مجبراً نفسي على عدم النظر إلى حيث كان يشير، لم أر له أثراً بامتداد شارع «خلف كازينو إيزيس».

لا أريد أن تجعلك حداثة معرفتي بك، أن تظن أنني كنت أجري خلف صديقي المذعور طلباً لرضاه، أو خوفاً من أن يفضحني وسط زملائي في اليوم التالي، أو حتى رغبة في إعادة «إكلاسيره» الذي تركه وطار مرعوباً، فلم يكن جسدي كله من أم رأسي وحتى أوسخ قدميّ، منشغلاً بشيء سوى تلك الحقيقة المرعبة التي واجهها للتو: حقيقة وجود ثلاث سكان إضافيين في شقة أم ميمي، تصادف أنهم جميعاً يقيمون في غرفتي دون إشعار مسبق، وهي حقيقة لم يكن ممكناً أن أعود لمواجهتها بمفردي، بل كان عليّ أن أبقى في الشارع منتظراً عودة أم ميمي، لأشركها في تلك الحقيقة، ولا أقول لأواجهها بتلك الحقيقة، فقد كنت راغباً في تغليب حسن الظن بأنها لم تكن تعلم بوجود أولئك السكان الإضافيين، لأن تغليب الظن بأنها تعلم لكنها تستعبط، كان سيوزع جهدي على أكثر من جبهة صراع في وقت لا أمتلك فيه رفاهية تعدد جبهات الصراع، لذلك آثرت الاتكاء على حسن الظن وأنا أنتظر عودة أم ميمي، لأخبرها بما جرى، ولنتخذ معاً قراراً حاسماً: هل ندخل إلى الشقة لطرد سكانها الإضافيين فوراً؟ أم ننتظر عودة ميمي الذي آن لبلطجته أن تتخذ لها هدفاً غيري.

النوم قريباً من ميمي!

«هو أنا هاكدب ليه؟ هاخاف منك يا معفّن؟ قلت لك وحياة النعمة دي ماكنت أعرف إنهم فارين.. ولو أعرف كنت قلت في وشّك ولا يهمني.. صحيح كنت أعرف إن في برص.. شفته كذا مرة يعني.. بس ما رضيتش أقولك أحسن تقرف تاكل في الشقة.. حاكم في ناس كده زيي.. تقلق من البرص وتستحمل الفيران.. عشان الفار خوّاف وبيجري على طول.. أما البرص تِبِت وعبيط.. هيلزق لك في السقف وانت متهيأ لك إنه بيبحلق فيك وهو أصلاً مش شايفك.. وهتفضل طول الليل خايف أحسن يقع عليك وانت نايم أو ينزل لك في قلب أكلك.. إيه مالك.. اترعشت كده ليه يا خِرِع.. شفت كنت مخبية عليك ليه.. برضه بصّتك مش مريحاني.. ده أنا حلفت لك بحياة النعمة دي ويارب أطفحها لو كنت تكدب».

والنعمة التي كانت أم ميمي تحلف بها عليّ دون أن تعزمني ولو حتى «عزومة مراكبية»، كانت وِرك فرخة محمّر عادت به من زيارتها لابنتها فاتن مع «خَرطتين» من المكرونة الباشميل وحَلّة صغيرة من البامية «الأورديحي»، وكان ينبغي على أم ميمي أن تأكل ذلك كله قبل عودة ميمي إلى الشقة في موعده المرتقب لكي لا يشاركها فيه، وكان عليّ أن أستمع إليها وأنا أجلس معها، دون أن أبُصّ لها في اللقمة، مصوباً نظرات مذعورة نحو غرفتي المظلمة، وسارحاً في تأملات أشد إظلاماً عن الفأرين اللذين يشاطرانني سكن غرفتي، هل هما ذكران صديقان جمعتهما رفقة السكن في غرفتي؟ أم أنهما ذكر وأنثى يمكن أن يغريهما دفء المكان للتزاوج وإنجاب صبيان وبنات يملأون علينا الغرفة؟ وهل إذا فشلت في طردهما من الغرفة، يمكن أن أنجح في إقناعهما بتأجيل الخلفة حتى تنتهي شهور دراستي النّحِسات؟ وما هي طبيعة علاقتهما بالبرص؟ هل هي علاقة تنافس أم علاقة تعاون؟ وما الذي يجعل غرفة حقيرة مثل غرفتي مطمعاً لكل هذه الكائنات التي ستجد حتماً في باقي شقق العمارة والشارع اختيارات أفضل لإقامتها؟ لكن تلك التأملات العبثية سرعان ما انداحت مفسحة المجال لسؤال كبير كان لا بد أن أحسم إجابته قبل عودة ميمي:

هل سيسمح ميمي لي بالنوم على الكنبة الأخرى في الصالة؟ وبأي ثمن؟ وهل سيكون النوم إلى جواره أقل خطراً من النوم إلى جوار فأرين وبُرص؟

للأسف، لم أكن أمتلك رفاهية اتخاذ قرار بمواجهة الفأرين والبرص والعمل على إجلائهم من الغرفة بشكل أو بآخر، فلم يكن ثمة بند في الميزانية يسمح بذلك، فالثلاثة جنيهات ونصف المخصصة لكل يوم كانت تكفي بالكاد لنفقات الطعام والشراب والذهاب والإياب من الجامعة، وكان من الصعب التفريط في أي من ذلك، من أجل شراء سُمّ يناسب حجم الفأرين اللذين لم أرهما رأي العين حتى الآن، لكنني اعتمدت عبارة «قد كده» مصحوبة بمنظر كفّي ناجي لتصور حجمهما الكبير، أما البرص الذي رأيته بالفعل بسبب بطء حركته، فقد كان عليّ أن أتخلص منه يدوياً، لأنهم على حد علمي، لم يكونوا قد اخترعوا له سماً ولا أظنهم اخترعوه حتى الآن.

كنت في البداية قد حاولت بشيء من «الفَكاكة» أن أضع أم ميمي أمام مسؤوليتها في التخلص من الفأرين على الأقل بوصفها مالكة الشقة والمسؤولة عن أمنها واستقرارها، فكانت أفكَك وأنصح مني، حين قالت لي بنبرات أمومية حانية: «أنا ما عنديش مانع يا ابني.. حد يكره يخلص من الفيران.. بس ما عنديش فلوس دلوقتي أشتري بيه سِمّ.. شوف كده الواد ميمي.. خليه يديك قرشين وأنا هاحاسبه بعد كده».

ولأنني لم أكن قد دخلت في زخانيق العائلة بالشكل الكافي لفهم طرائق تفكيرها وتحليل خطابها، فقد نقلت ما قالته الأم لميمي في لحظة تصورتها ملائمة لمزاجه، فما كان منه إلا أن نتع شخرة لم أسمع مثلها من قبل على كثرة ما سمعت وما شخرت، ورغم أنها كانت كافية لإيصال رفضه القاطع للفكرة دون أن ينبس ببنت شفة، إلا أنه أصر على أن ينبس ملوحاً بزجاجة السبرتو - وقد كانت تلك إشارة إلى زنقته المادية لم أنتبه إليها– في هواء الصالة غير الطلق قائلاً ببلاغته التي لم تكف لحظة عن إدهاشي: «مش الست المتلقحة دي جوه أمي.. إيه رأيك إني ما شفتش أوسخ منها في حياتي.. بتدعي الفقر وانت لو شَقّيت جوفها هتلاقيه محشي فلوس.. وبعدين خُد تعال هنا.. انت عايزاني أديك فلوس بأمارة إيه.. كنت زلطتك من كُسّي ونسيتك.. وبعدين هوّ أنا لما أديك فلوس تسمم الفيران.. أنا مين اللي هيسممني؟»، وقبل أن يترك لي فرصة للإجابة عن سؤاله، قفز من على كنبته مسابقاً الشرر الذي طق من عينيه وأشار لي بإصبعه الوسطى محذراً: «وله.. إنت

هتقلب لنا دماغنا ليه بكس أمك.. سيب البرص والفيران في حالها.. طول عمرهم عايشين وسطينا وماشفناش منهم حاجة وحشة.. خليك في حالك وما تإذيهمش وما حدش فيهم هيتعرّض لك».

كنت لحسن الحظ قد انتزعت من ميمي قبل تلك المواجهة، موافقته على نقل مقر نومي إلى الكنبة المواجهة له، شريطة ألا يصدر مني خلال نومي أي صوت يزعجه، أو رائحة تضايقه، رغم أنه لم يكن يتوقف خلال نومه عن الشخير الذي يهز أركان الشقة، والفِساء الذي يعبّق جوها ويختلط مع رائحة جواربه النتنة، فيشكل مزيجاً قاتلاً لم يكن يتأذى منه غيري من المخلوقات، أو من يدري ربما كان ذلك المزيج هو الذي دفع البرص والفأرين إلى الهروب من الصالة والهجرة إلى غرفتي المنكوبة، التي لم أعد أنام فيها، ملتزماً بنصيحة ميمي «بيدُبا زمانه» بأهمية العيش المشترك مع البرص والفأرين، لأنهم في النهاية «من مخلوقات ربنا زينا زيهم»، خصوصاً أنني لم أر منهم أذىً مباشراً، لتقتصر محاولاتي في التخلص منهم على أحلامي التي أصابتها مسحة سوريالية مع مرور الوقت، فأصبحت أرى نفسي فيها وقد تطورت علاقتي الإنسانية مع البرص والفأرين، حتى بتنا نتبادل النظرات العاتبة وهزات الرأس المرحبة وبعض الأصوات المعبرة عن المودة، ولم يكن ينقصني إلا أن تتحول أحلامي إلى حقيقة، فنتحلق أنا وميمي وأمه والبرص والفأرين على مائدة العشاء كل ليلة، لنحتفل بأجواء السلام التي سادت الشقة مؤخراً، والتي لم يكن لها أن تدوم، فسبحان من له الدوام.

أم ميمي التي أكلها الرّبو

اشتد توتر الأجواء في الشقة حين مرضت أم ميمي، أو بالأصح حين اشتد عليها المرض، فقد كانت منذ أن رأيتها أول مرة، تفصل بين كل كلمتين بسعلة حادة قصيرة، صارت مع الوقت من لوازم كلامها، أقلق حين لا تصدر عنها، فأقول لها: «إيه ياأم ميمي أجيب لك كوباية مية؟»، فترد على سؤالي بسعلتها المعهودة لتطمئنني أنها بخير.

لكن سعال الربو العادي الذي كانت تعانيه، وأَعراضه التي كانت تعالجها ببخاخة لا تفارق عِبّها، تحول فجأة إلى أزمة صحية عاتية داهمتها، بعد أن اكتشفت أن ميمي سرق تحويشة عمرها التي كانت مبلغاً ضخماً يتجاوز «الربعميت جنيه» على حد قولها، في حين أقسم ميمي بأغلظ الإيمان أنه كان مبلغاً تافهاً قيمته مئتان وثلاثون جنيهاً فقط لا غير، لكنه لم يعترف بالسرقة مباشرة حين واجهته أمه باختفاء الفلوس التي كانت قد خبأتها في قعر الكومودينو المجاور لسريرها، ومع أنني توقعت أنه سيقوم برمي التهمة علي، فإنه فاجأني مفاجأة سارة حين قرر فجأة أن يلقي التهمة على الفأرين، لأنه كما قال سمع في الراديو خلال ركوبه الميكروباص، أن الفئران أصبحت تأكل ورق البنكنوت في البنوك، وحين انهالت عليه أمه ضرباً بالقبقاب وهي تقول له: «الفيران دي تعرف ربنا أكتر منك يا سُكَري ياللي نجِّست الشقة بالخمرة وطفِّشت منها الملايكة.. والنعمة لاكون مجرّساك عند الأسطى بتاعك»، انهار ميمي باكياً بأسرع مما توقعت، وهو يصرخ فيها: «يا ولية ياللي هتموتي كافرة.. تستخسري في ابنك قرشين.. ده أنا كنت هاردهم لك الأسبوع الجاي بالكتير».

لم يدهشني أن يتهم ميمي أمه بالكفر لأنها اعترضت على سرقته لها، بقدر ما أدهشني اكتشاف أن لأم ميمي موقفاً معارضاً لإدمان ميمي شرب الخمور في شقتها الطاهرة التي كانت متأكدة من إقامة الملائكة فيها بشكل منتظم، مع أنني كنت قد شكوت لها في بدايات سكني من سُكر ميمي البيِّن،

فردت علي لائمة: «يا اخويا سيبه يشرب خمرة أحسن ما يشد بودرة.. أهوه الخمرة هيفوق منها وينزل شغله إنما البودرة هتلحس مخه ويقعد في أرابيزنا.. وبعدين أنا سمعت شيخ في الراديو بيقول إن الخمرة مش حرام لو كانت علاج.. وهو عيّان في دماغه. فاعتبره بيتعالج وعدّيها»، لتكشف في عبارات مكثفة عن أمومة فياضة لم أكن أتصورها، وعن قدرة على الاجتهاد الفقهي، وعن حس تربوي يتخير أخف درجات الضرر التي يمكن أن تحيق بفلذة كبدها.

لم يسكت ميمي على اتهام أمه له بتنجيس الشقة، ويا ليته سكت ولم يقرر القيام بكشف المستور، ليجرح أمه في الصميم، ويعيد إليها ذكريات الماضي الأليم التي تحاول تحاشيها. حدث ذلك بعد أن وقف ميمي في مواجهة أمه، ليقول بصوت مرتجف يشي بجانب طفولي لم أكن قد آنسته منه: «انتي بالذات ما تتكلميش عن النجاسة يا وليّة.. الشقة دي نِجسة من يوم ما سكنتيها انتي وجوزك المعرص عشان تشغّلوها في المنيكة»، لتقع عباراته على مسامعي كالصاعقة، فلم أكن أتصور أن أم ميمي التي تقوم بتشغيل إذاعة القرآن الكريم طول النهار، والتي ترمقني بعين الرضا حين تراني أحياناً أصلي الصبح قبل ذهابي إلى الكلية، يمكن أن يكون لها ماضٍ ما في صناعة المنيكة.

تعاظمت صدمتي حين قررت أم ميمي أن ترد على ابنها بصلادة تليق بسيدة «شيّب الزمن شعر كُسّها» كما قررت متفاخرة في مناسبة أخرى، فأرسلت له بعبوصاً في الهواء بوسطى يدها اليمنى، وقالت شاخطة فيه: «فلوس المنيكة دي هي اللي عملتك بني آدم يا وسخ.. وعشت سنين انت وأختك بتاكلوا وتعلفوا من وراها.. وبعدين هو كان بخُطري.. مانت عارف اللي جرى لي لما وقفت في وش أبوك الزِناوي.. ولا عشان انتو سمن على عسل اليومين دول فهترمي بلاك عليا»، وحين رأته ينظر لها بذهول مما قالته، أطلقت ضحكة مدوية وأضافت مبعبصة بكلتا يديها هذه المرة: «إيه يا لبو.. انت فاكرني نايمة على وداني ومش عارفة إنك بتروح له في الضاهر كل أسبوع عشان تحشش معاه.. وبتاخد منه فلوس كمان عشان تسكر بيها.. وجاي فوق كل ده عشان تسرقني.. تلاقيه مسلّطك.. صح يا له يا وسخ.. هو اللي وزّك تسرق أمك.. طب وحياة أمك اللي شمعتها ما انطفت في الحرام لابلغ عنك البوليس لو ما رجعتش الفلوس بكره».

كانت المفاجآت التي حملتها كلمات أم ميمي أكثر من قدرتي على الاحتمال، فلميمي أب مازال حياً يُرزق من المنيكة، أو كان يُرزق منها ردحاً من الزمن، وأم ميمي كانت متواطئة معه في ذلك

رغماً عنها، لكنها لم تدنس شرفها مكتفية بالتعريض أو الاشتراك في التعريض، وثمة مواجهة حدثت في وقت ما، تسببت في تفكك العائلة وانفصالها إلى قسمين متعاديين بينهما ما صنع الحداد.

كنت متعطشاً إلى المزيد من المعلومات والإيضاحات، لكنني آثرت الصمت مكتفياً باستيعاب ما سمعته، في حين آثر ميمي أن ينهي نقاشه حامي الوطيس مع أمه بصورة لا تقل درامية عما جاء فيه، إذ دَلَق ما تبقى من زجاجة السبرتو على روحه، ثم جرى نحو وابور الجاز فأفرغ ما فيه على ملابسه، ثم جرى إلى علبة الكبريت فأشعل منها عوداً ولوّح به في الهواء وهو يقول مازجاً بين النشيج والشخر: «وحياة كس أمي لاولّع في نفسي وأصوّر لك قتيل في قلب الشقة يا ولية يا كافرة ياللي عمرك ما هتوردي على جنة»، ليبدو لي للمرة الثانية على التوالي مشغولاً بمسألة كفر أمه وإيمانها ومصيرها في الدار الآخرة بشكل لم أكن أتصوره.

لكن كل ما فعله ميمي لم يهز شعرة في أي حِتّة في أمه، على كثرة ما بها من شعر وما فيها من حِتَت، لتقف ضاحكة ومتحدية ومصبّعة وقائلة: «لو راجل من ضهر راجل اعملها.. إنما انت مرة زي اللي خلّفك آخرك تهوّش وتعبّق لنا الشقة بريحة الجاز»، ليصاب ميمي بحالة من الهستيريا وهو يواصل إشعال عيدان الكبريت المصرية التي كانت لحسن حظه تنطفئ بأسرع من اللازم، وهو ما استفزه أكثر، فرفع عقيرته بالصراخ قائلاً: «أنا راجل من ضهر راجل يا مرة يا كافرة.. وهاولع في روحي وهتشوفي»، لتواصل هي تأكيد خطأ اعتقاده في رجولته، فيواصل محاولاته الفاشلة - ربما عمداً– في إشعال عيدان الكبريت، وحين نفدت عيدان العلبة، جرى خارجاً من الشقة معلناً عن رغبته في الذهاب إلى بقالة عم سيد لإحضار علبة كبريت مستوردة تساعده على الإسراع بالتوليع في روحه، فما كان منها إلا أن ودعته ببصقة مدوية، وهي تواصل زعزعة ثقته في هويته الجنسية، قائلة له بتحدٍ ظننته قسوة قلب: «طب وحياة كسمك ما انت راجع يا لبو.. وأنا عارفة وانت عارف إنك مش راجع وهتروح تعيط لأبوك زي المرة الحايضة».

كان ذلك تحدياً صارخاً ظننت أن من شأنه أن يدفع ميمي للرجوع مسرعاً للتوليع في روحه، فشرعت في التفكير في الخيارات المتاحة أمامي للهرب من مسرح الحريقة، هارباً من قلقي المتعاظم بالقول لنفسي إن قلب الأم دليلها، وأن ميمي سيغيب بالتأكيد عن البيت ليلة أو ليلتين، وسيعود بعدها إلى البيت وقد نسي الاثنان ما حدث كأنه لم يكن، فلا هي ستسأله عن الفلوس التي سرقها، ولا هو سيلومها على تشكيكها في رجولته، لكن أم ميمي لم تشأ أن يكون توصلي إلى تلك

الفكرة المطمئنة نهاية سعيدة لليلتي، إذ قررت للأسف أن تتخفف من أحمالها، فتحدثني عن بعض أخبار عائلتها، لتورطني في المضي قُدُماً في واحد من أكثر الدروب التي دخلتها في حياتي وعورة وعفناً.



أم ميمي تحدّث أخبارها

كانت اللحظة التي قرر فيها ميمي أن ينكأ جراح أمه مفاجئة بشكل لم تكن حسب حسابه، ولذلك انهارت بشكل أذهلني صدوره من سيدة حديدية حسبتها مصممة ضد الانهيار. لم يكن من السهل علي أن أرى أم ميمي خارج حالة الثبات الانفعالي التي ألفتها عليها منذ قدمت إلى شقتها، حيث أخذ جسدها ينتفض غضباً، وهي تلطم على خديها وتشد شعرها وتخبط حوائط الشقة بقبضتيها منتقلة من حائط إلى حائط بهمّة لا تفتر، مع أنها في العادة تنهَج من أقل مجهود، ولم يكن أمامي سوى التجمد في مكاني وأنا أرقبها محتاراً وقلقاً، تتنازعني مشاعر الشفقة عليها والدهشة من انهيارها المفاجئ والخوف من حدوث مزيد من المفاجآت التي لا تتحملها حياتي الآن.

لم تقنع أم ميمي بحيادي البارد، بل أصرت أن تدخلني معها في «تجربة» الحزن المرير التي تعاني منها، لأشعر أن أم ميمي كانت تقيم لي وزناً لم أتصوره، وأنها على عكس ما ادعت، تحس بجرح عميق لأن ابنها مرمغ سيرتها في الوحل أمامي، وهو ما اتضح أنه يعني لها الكثير.

بدا ذلك جلياً من منظر عينيها الزائغتين ثم الممطرتين دموعاً، وصوتها الكسير وهي تقول لي متضرعة: «إوعى تصدقه يابني.. والله العظيم كل اللي كان بيحصل في الشقة كان غصب عني.. شعراوي الزِناوي أبوه الله يلعنه في كل كتاب.. كان بيرقّعني بالمطواة لو فتحت بُقّي وقلت بِم.. ويخليني آخده هو وأخته وهم لسه عيال صغيرة.. ويخلينا نسيب البيت ونروح نقعد على محطة الأتوبيس على ما الزبون اللي كان بيجيبه يقضي غرضه مع الشرموطة اللي جايبها له.. ولما كنت أقوله حرام عليك تشحطط عيالك كده يا شعراوي.. يشلّق ويسب الدين ويقول أجيب لكو منين ياولاد الوسخة.. انتو فاكرين الحلاقة هتأكلكو عيش.. وبعدين هو أنا بارميكو في الشارع.. ده انتو قاعدين على محطة الأتوبيس في الضِلّة والطراوة.. وكلها نص ساعة وتُقضى المصلحة.. ده أجعص جعيص بيقعد ساعة بالكتير.. ولما كبروا العيال شوية وابتدوا ياخدوا بالهم من اللي بيحصل

اتخانقت مع أبوهم خناقة لرب السما وقلت له هابلغ البوليس لو حاولت تطلّعني من بيتي عشان أعرّص لك.. قام دلق عليّ براد مية مغلية وحرق رجليّا من وراكي لحد سمانتي.. مش مصدقني حتى بص أهوه.. انت مش غريب انت زي ابني».

فجأة وقبل أن آخذ احتياطاتي البصرية الدفاعية، أزاحت أم ميمي طرف ثوبها عن حرق بشع لم أتحمل إدامة النظر إليه، مواصلة انهيارها: «شايف الجبروت والوساخة.. طب تصدق بالله.. الحرق ده كان على قلبي زي العسل.. كان هو الحرق اللي كنت طالباه من ربنا.. حاكم هو اللي خلّاني بلّغت عنه البوليس وطلبت الطلاق ومن ساعة ماكسبت القضية حكموا عليه يبعد عني وعن عيالي.. وحكموا عليه يدينا نفقة كمان كل شهر.. قلت لهم يغور بيها مش عايزاها.. حد الله بيني وبين الحرام.. بس في الآخر قلت لنفسي وماله آخدهم أربي بيهم العيال وأهوه اللي ييجي منه أحسن منه.. وأول ما ميمي مسك شغل وأخته اتجوزت النطع اللي حبته.. قام الواطي قطع النفقة.. فابتديت أأجّر الأودة عشان تساعد شوية في المصاريف».

تصاعد سعال أم ميمي لينتظم في نوبة حادة أوقفت تدفق حكيها، ولم يفلح في تهدئة سعالها كوب الماء الذي أحضرته لها، وأنا أحاول استيعاب هول الحكاية القصيرة التي وضعتني في قلب جحيم العائلة التي كنت أظن صخبها نابعاً من افتقاد الهموم، فإذا به صخب يحاول الغلوشة عليها.

استجبت لطلب أم ميمي مني أن أسندها في طريقها إلى السرير، وهي تحاول التغلب على سعالها الذي رجّ الشقة، ولم يكن يقطعه إلا غمغمات غامضة، لا تدري هل كانت دعاءً على ميمي الحرامي، أم لعنات لأبيه شعراوي الذي تلصق باسمه لقب «الزِناوي»، أم سخطاً على حالتها المزرية التي جعلتها تنهار أمام ساكن غريب لم تكن تلقي له وزناً من قبل.

أوصلتها إلى السرير، وحين فردت «جِتّتها» عليه، أخذت أنظر إليها بتعاطف لم أشعر بمثله تجاهها من قبل، لكنه لم يُكتب له الاستمرار أكثر من ثوانٍ، فما إن هدأ سعالها قليلاً حتى باغتتني بشخرة قالت بعدها: «إيه يا له.. هتصوّرني ولا إيه يا روح أمك.. ما شفتش واحدة عيانة قبل كده.. امشي انجرّ اعمل كوبايتين شاي نشربهم سوا»، فأكبرت فيها رفضها للانكسار، وعزوت زيادة تباسطها معي إلى أنني دخلت للمرة الأولى غرفتها التي كانت محرمة علي، وهرعت لعمل الشاي، وحين عدت به كانت قد راحت في سابع نومة.

على كنبة الصالة ظللت أتقلب على جمر الهواجس، مستغرباً كيف تمكنت أم ميمي بمنتهى السهولة من معانقة الكرى، وهي تحمل فوق صدرها همّاً أرّقني مجرد الاستماع العابر إليه، فما بالك بمعايشته عمراً بأكمله. أخذت أتخيلها وهي تخرج مسرعة متلهوجة مع طفليها من البيت بأوامر من شعراوي الزِناوي، لينتظروا على محطة الأتوبيس فراغ الزبون من لذته، سواءً كان ذلك في البرد القارس أو الحر الحارق، ثم أخذت أتمثّل مشاعر ميمي الذي كنت أحسبه ظلوماً جهولاً، فإذا به شيّال لحمول من الأحزان، لم يسمح لها أن تجعل منه إرهابياً أو قاتلاً متسلسلاً. وإذا كانت قد جعلت منه ميكانيكياً سكيراً يسرق أمه، فهل يمكن فصل ذلك عما عايشه من معاناة في طفولته التي جعلتني أعيد تقييم طفولتي التي كنت أظنها الأشد بؤساً على الإطلاق، وقبل أن يغلبني النوم كنت قد عزمت على أن أفتح صفحة جديدة مع ميمي، لا أقنع فيها بدور النديم، بل أتجاوزه إلى دور الصديق الذي يجب أن يتعلم فن التغلب على الأحزان أو التعايش معها، من أستاذ في مدرسة الحياة مثل ميمي.

دع الخلق للخالق،
ودع أم ميمي لميمي

لم أكد أهنأ بساعة أو ربما ساعتين من النوم العميق، حتى صحوت فزعاً على صوت صراخ أم ميمي الذي دوى في جنبات الشقة، وأظنه جاوزها إلى ما حولها: «ابعد عني يا وسخ يا شرموط.. إلحقوني يا ناس.. اشهدوا يا خلق.. ابني عايز يغتصبني».

كان صراخها المدوي كفيلاً بإيقاظي وأظنه أيقظ الجيران القريبين منا ولا ريب، لكنه لم يكن كافياً لأفهم ما يحدث، برغم أنها لم تقصر في شرح ما تمر به بعبارات تلغرافية مفزعة. حاولت من خلف عينيّ اللتين لم يروهما النعاس، أن أتبين ما يحدث في غرفتها وأنا أحاول النهوض من الكنبة دون أن يختل توازني، فرأيت شخصاً لم أتبين ملامحه ينقض على أم ميمي النائمة على سريرها، لكنه ما يلبث أن يبتعد عنها قليلاً حين تضربه بالشلوت أو تدفعه بشراسة، وبدأ صوته يتضح في مسمعي وهو يلهث قائلاً لها: «بقى أنا مش راجل يا بنت الشرموطة.. طب أنا هاوريكي أنا راجل ولا لأ».

كان عقلي المشوّش قد أدرك أن الصوت صوت ميمي ولا ريب، لكنني لم أصدق النتائج الأولية التي اعتمدها عقلي بعد تقييمه للموقف، وبرغم ما قالته أم ميمي صراحة في صراخها، فضّلت التعامل مع ذلك الشخص بوصفه معتدياً آثماً يتوجب دفع عدوانه فوراً، وحين انقضضت عليه من الخلف وأدرت وجهه نحوي، كان هول المفاجأة أقسى من اللكمة التي سددها إلى وجهي، فقد كان ميمي بالفعل، وحين تجمدت للحظات محاولاً فهم ما يحاول فعله بأمه، فوجئت به وقد انقض من جديد على أمه التي ظل صراخها متواصلاً ومختلطاً بلعناتها وشتائمها وسعالها ودموعها، لتكون تلك المرة الأولى التي أختبر فيها في حياتي معنى تعبير «أُسقِط في يدي».

كان شلوت جديد من أم ميمي قد قذف بابنها عليّ، فأفاقني من ذهولي، لأمد ذراعيّ حوله وأحيط به من الخلف بكل ما أوتيت من قوة، لكن حالة السكر البين التي تشي بها رائحة فمه، كانت قد زادت من فعالية قوة الثور «الهائج» التي يمتلكها في العادي، فتخلص من تكتيفي له، وبدلاً من أن يوجه لي لكمة جديدة كما كنت أخشى، قال لي كأنه ينبهني إلى ما هو خافٍ عني: «انت مالك ومالنا يا عم.. هيّ أمي ولا أمك»، وحين تمالكت نفسي وتمكنت من تجميع عبارة تطلب منه أن يتقي الله في أمه، لأن السُّكر يمكن أن يدفعه إلى فعل ما سيندم عليه حين يفيق، فاجأني حين أطلق رداً أكثر هدوءاً مما توقعت: «ما تخافش يا عم.. أنا مش هاأذيها.. أنا بس هافرّحها إنها مخلفة راجل مش مرة.. أصلها مش مصدقة إني راجل.. مع إن كل اللي معاشرني بيقولي والنبي يا اسطى ميمي قولنا أخبار الرجولة إيه.. أصلها بعدك دخلت جدول»، وكانت العبارة الأخيرة غامضة بالنسبة لي، فاعتبرتها هلوسة نابعة من تأثير سُكره الفادح، لكني فهمت فيما بعد بمساعدة المختصين، أنه كان يقصد أن الرجولة اختفت من بعده، ودخلت جدول المحظورات، كما يدخل أحد الأدوية جدول المخدرات بسبب آثاره الجانبية، فيصبح الوصول إليه صعباً.

كان هدوؤه اللحظي الذي ربما اضطر إليه لتجميع ما سيقوله لي، قد جعل أمه تتوقف عن صراخها لتقول له باكية، وهي تصب على نار هياجه زيت تحديها: «وهي دي الرجولة يا عرص يا ابن العرص.. يعني مش لاقي كلبة تستنضفك.. جاي تتشطر على أمك.. طب وحياة كسمك لاعمل لك عملية وأقلبك مرة عشان أبوك يسرّحك مع شراميطه»، فأزالت عباراتها آثار هدوئه اللحظي الذي تمنيت أن يطول لآخذ وأدّي معه في الكلام، ليعود للانقضاض على أمه من جديد، وحين حاولت فرملة اندفاعه نحوها، وجدت نفسي وقد أطيح بي خارج الغرفة إثر دفعة بالغة الشراسة منه، لينقض بعدها على أمه محاولاً شل حركتها ليتمكن من تشليحها، وفي حين كانت تقاومه بكل ما أوتيت من قوة، أخذ يصرخ فيها بجنون: «أنا أصلاً من يوم ما وعيت على الدنيا والناس كلها بتقولي يا ابن المتناكة.. وأنا مش مصدقهم.. طب وحياة أمي ما أنا سايبك.. عشان أقولهم بعد كده عندكو حق».

أيقنت بعد العبارات الأخيرة اللعينة التي تفوه بها، أن أي محاولة لشل حركة ميمي، ستتمخض عنها عواقب وخيمة، فهو لم يعد يمر بمجرد نزوة سُكر غير محسوبة العواقب كما كنت أتخيل، بل أصبح ينفذ قراراً محسوماً له منطقه الخاص، الذي ستُبنى عليه نتائج مستقبلية يبدو ميمي شديد الإيمان بها، وأن ذلك القرار لم يولد فجأة بعد خروجه المهين من الشقة، بل هو وليد تراكمات لها

علاقة بتاريخ العائلة اللعين الذي لا يكف عن صدمي بمفاجآته في هذه الليلة التي لا تريد أن تنتهي، ليخرجني من تدافع أفكاري المضطربة صوت خبطات عنيفة على باب الشقة، لم توقفه من مواصلة ميمي الهجوم على أمه التي ظلت تقاوم باستبسال موجهة له المزيد من الشلاليت والتلطيشات واللعنات.

سارعت نحو باب الشقة لعلي أجد حين أفتحه من ينجدني ويساعدني في فض ذلك الاشتباك العصي على الفهم، وما إن فتحت الباب حتى تدافع عدد من الجيران إلى داخل الشقة مُسلّحين بعصي وسكاكين وسواطير، والأهم بفهم أكثر اكتمالاً لما يحدث، لأن أحداً منهم لم يسألني عما يحدث، ولا أين يحدث، بل توجهوا على الفور إلى غرفة أم ميمي ليبعدوا ابنها عنها، فلم أدر هل عرفوا حقيقة ما يحدث من سماعهم لصرخات أم ميمي، أم لأنهم شهدوا حدوثه قبل ذلك، وبالطبع لم يكن الوقت متاحاً للسؤال أو الفهم، فقد كان «واجب الوقت» يقتضي أن أحاول تخليص ميمي من أيديهم التي كادت تفتك به خصوصاً حين أخذ يشرح لهم منطق هجمته الغادرة على أمه، وهي محاولة شاركتني فيها أم ميمي نفسها، وكان يمكن لمحاولاتنا أن تنجح وينتهي الموقف، لولا أن أرسل الله إلينا البوليس، ولكن كالعادة بعد أن انتفت حاجتنا إليه.

الغداء الأخير لأم ميمي!

تواصلت وقائع التراجيديا العبثية في نقطة الشرطة القريبة، حين اكتشفت أن كل من اقتادهم البوكس ليمثلوا في حضرة الضابط المسؤول، قرروا ألا يذكروا كلمة عن محاولة ميمي الاعتداء على أمه، وكان على رأس هؤلاء أم ميمي نفسها، ودون اتفاق مسبق، على الأقل في حضوري، قرر الجميع أن يحكوا رواية مختلفة لما حدث مفادها أن ميمي حاول سرقة أمه وهي نائمة، وأنها لم تتعرف عليه في البداية، فظنته في جنح الظلام لصاً دخل إلى الشقة، ولذلك انهالت عليه ضرباً وعلى الجيران استغاثة، وحين هب الجيران لنجدتها، وبدأوا في تبين الموقف، وأخذوا في لوم ميمي على محاولة سرقة أمه، وصل البوليس، ولو أنه تأخر قليلاً لكان الصلح قد تم، ليكفي الله رجال الشرطة شر إشغال أنفسهم بخناقة عائلية تافهة.

أخذت أتابع توالي الشهادات المؤكدة لتلك الرواية المفبركة وأنا فاغر فمي، مشدوهاً بعبقرية الجميع في التمثيل التلقائي، بل إنني كدت أنظر خلفي باحثاً عن كاميرات تلفزيونية حاضرة في «لوكيشن» القسم، حين وجدت أم ميمي تبكي بعزم ما فيها وهي تلعن الخمرة التي لحست عقل ابنها، «فافتكر أن أمه يا ما هنا يا ما هناك، مع أنها ولية غلبانة لا تملك اللضى»، ومع ذلك لم تقصر في حقه قط كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لينهار ميمي عند هذه الذروة العاطفية من حديثها، مقبلاً قدميها اللتين دفنت الجنة تحتهما، ويبدأ في النشيج والعويل طالباً عفوها ورضاها، دون أن يوقفه للحظة ركل الضابط لمؤخرته بعنف وهو يقول له محتقراً: «قوم يا كس أمك.. لا مؤاخذة يا حاجّة سيبيني أربيه عشان شكل حنّيتك بوظته»، فتنحني أم ميمي على يد الضابط محاولة الإمساك بها لتقبيلها وهي تقول له: «معلهش يا باشا عَيِّل وغلط.. سامحه الله يكرمك أنا خلاص سامحته.. ما هو ابني برضه مهمن كان».

كان مشهداً مبتذلاً ينتمي بجدارة إلى أردأ أفلام الميلودراما، لكنه كان حقيقياً، نعم، أنا متأكد أنه كان حقيقياً، لأنني أخذت أفيق من شكوكي حول ما إذا كان حقيقة أم خيالاً، على شخطة الضابط تقول لي: «وانت مين بقى بسلامتك»، وحين تعاملت لوهلة مع الشخطة على أنها جزء من الخيال الضبابي المحيط بي، تكررت مصحوبة بزغدة عنيفة لم تدع لي مجالاً للشك في أنني أعيش فعلاً كل ما سبق، وأن الله لم يستجب لابتهالي إليه أن يكون كل ما عايشته مجرد كابوس أنتجته صدمتي بالاستماع إلى حكاية شعراوي الزِناوي ومحطة الأتوبيس التي كان يرمي عليها عائلته كل حين ومين.

حين تأخرت في الرد تدخل عم سيد البقال لنجدتي قائلاً: «طالب غلبان ساكن عندهم يا باشا»، فهززت رأسي بقوة موافقاً ومتغاضياً عن دقة وصفي بالغلبان، فنظر الضابط إلى أم ميمي وقال بحدة: «مسكّنة بيتك مفروش من غير ما تبلّغي القسم.. وقعتك سودة يا أم ميمي.. البلد فيها إرهاب وحالة طوارئ يا ولية يا متخلفة.. إزاي تسكّني عندك حد من غير ما تبلّغي الأول»، لتقرر أم ميمي في لمح البصر أن تبيعني بالرخيص، قائلة بتلقائية كدت أشيب من هولها: «ما أعرفوش يا باشا ولا عمري شفته أصلاً»، ولم أكن هذه المرة الوحيد الذي فغر فاه دهشة، فقد شاركني في ذلك أغلب شهود الموقف بمن فيهم ميمي الذي أفاقته الأقلام والشلاليت والبعابيص من سُكره، وقبل أن يحرك عم سيد البقال فمه لتكذيب ما قالته، كان الضابط قد خطف نظرة إلى البيجامة التي أرتديها، والشبشب الزنّوبة الذي أمتطيه، وشوّح بيده قائلاً: «طيب نخلص اللي في إيدينا الأول ونشوف حكايتك بعدين».

بأسرع مما توقعت، انتهى الموقف العصيب بأخذ تعهد شفهي على ميمي ألا يحاول سرقة أمه ثانية، وبقيامه بتقبيل رأسها ويديها وقدميها أمام الضابط، وحين قرأ الجميع الفاتحة على ذلك بصوت عالٍ، اكتشفت أن ميمي وأمه يحفظان الفاتحة دون الكثير من الأخطاء اللغوية، ليخرج الجميع من القسم سعداء منشرحين طالبين من الله الهداية والرضا، في حين رُميت أنا رمية الكلاب في الحجز، حتى يتم التحقق من شخصيتي، بعد أن تضاربت الأقوال بشأني، فأم ميمي وميمي يحلفان أنهما لم يرياني من قبل، وأنا ألطم على وجهي كالولايا، وأطلب من الضابط أن يرسل أي عسكري إلى الشقة لكي يحضر أوراق إثبات شخصيتي وبطاقتي الجامعية، ولكي يرى كتبي وملابسي الموجودة بداخل الشقة، ومع أن جميع من تم إحضارهم إلى نقطة الشرطة كانوا قد رأوني إلى جوارهم في قلب الشقة أحاول فصل ميمي عن أمه، إلا أنهم تحولوا فجأة إلى ديكارتيين

مؤمنين بالشك والتثبّت العلمي، إلا عم سيد البقال الذي طمرت فيه زياراتي المتكررة له، واستخدامي الدائم لتليفونه، فأصر على تأكيد أنني أسكن لدى أم ميمي، وبذكاء التاجر المتعود على مسك العصا من النُص، قال إن الست الغلبانة ربما نستني لأنها لا تزال تحت تأثير صدمتها من ابنها الذي حاول سرقتها، لكنها حين تفيق من الصدمة ستتذكرني حتماً.

لبِثت في الحجز ساعات أطول مما تخيلت، لأن الضابط المناوب في فترة الصباح لم يكن لديه مزاج لتفقد البائتين في الحجز من ليلة الأمس، ولذلك كنت من نصيب ضابط النوبتشية التالية، الذي كان أكثر تفهماً وذوقاً من سابقيه، فاستمع إلى قصتي بهدوء، لكن ما قلته لم يكن سيجدي نفعاً لديه، لولا أن العسكري الذي تم إرساله في الصباح إلى بيت أم ميمي للتأكد مما قلته، أثبت صحة أقوالي، وثبت له بالدليل القاطع أنني أسكن هناك، وحين قام خلال وجوده في الشقة بلعن سنسفيل ميمي وأمه لكذبهما على الضابط، تبنيا التخريجة التي فرشها لهما عم سيد البقال، وقالا إنهما كانا في حالة عصبية مزرية تسببت في تشوّش ذاكرتهما، وطلبا منه أن يعود إلى الضابط ليطالبه بسرعة الإفراج عني، لكن العسكري لسوء حظي لم يكن يمتلك مهارة التعبير عما يعتمل بداخله، لذلك أخذ يقول للضابط حين سأله عن سر وجودي في الحجز: «مافيش ياباشا سعادتك هو الباشا سعادتك قالي أروح سعادتك ياباشا أشوف ياباشا الجدع ده ليه هدوم سعادتك ياباشا عند الناس اللي لامؤاخذه ياباشا سعادتك كانت بتقطع سعادتك ياباشا في بعضيها، رحت لقيت لهم سعادتك ياباشا هدوم وحاجات ياباشا سعادتك، بس كده سعادتك»، وحين قاطعه الباشا صارخاً: «أيوه يعني حاجزينه هنا ليه يا بهايم؟»، كاد الباشا يرتكب جناية حين بدأ العسكري من جديد في أداء موشح «ما فيش يا باشا سعادتك»، وكدت أروح فيها أنا والجندي المرتبك، لولا أن عناية الله كانت جندنا، حين بعثت إلينا اتصالاً من أحد رؤساء الضابط، على ما بدا من فزّته عن المكتب وانحنائه للسماعة وتغليف صوته بطبقة بينة من الخضوع جعلته يردد لأكثر من عشرين مرة عبارة «تمام سعادتك يا باشا»، وهو يستجيب لتعليمات بدا لي أنها مرتبطة بقضية خطيرة في طريقها للتفجر أو الحل، وكان علي أن أغالب فضولي الإعلامي الغضّ قبل أن يدفعني لسؤال الضابط عن تفاصيلها، مكتفياً بشكر الله تعالى لأنه ساق تلك القضية الخطيرة إليه، فأصبح لديه ما يشغله أكثر مني، ولذلك لم يعدني ثانية إلى غياهب الحجز، بل نهض من كرسيه وأخذ يرتدي الجاكيت المعلق على ظهر الكرسي وقال لي بصوت غاضب لا يخلو من مشاعر سلطة أبوية مستبدة وعادلة: «يعني ضاقت عليك الأرض يا سي خرا عشان تسكن عند المرة المعفنة دي وابنها الشرموط، ده البيات في الحجز أرحم لك.. يالله اتكل على الله وما تورينيش وشك هنا تاني».

كنت قد تأثرت بما لمسته من نصح يتوارى خلف كلمات الباشا المعنفة الزاجرة، وقبل أن أهم بسؤال سيادته عما إذا كان يعرف طريقاً لأي أوضة في أي حتة بخمسين ستين جنيهاً في الشهر، انقض شلوت غادر من رجل العسكري المرزبّة على موضع عفتي، مقعدتي التي لم يضربني عليها أحد من قبل سوى أبي، ولم يكن الظرف بالطبع مواتياً للوم العسكري على مد رجله على منطقة لم يقترب أحد منها إلا بالحلال، فاحتسبت شلّوته عند الله سائلاً إياه أن يجعلني من الكاظمين الغيظ والباطشين عند المقدرة.

عدت إلى بيت أم ميمي غضبان أسِفاً، أحاول أن أرتب موقفاً هجومياً معتدل الدرجة، أرد به على الغدر الذي أصابني، دون أن يحدث تصعيد في المواقف يفضي بي إلى الشارع بملابسي وكتبي، في وقت أنا أحوج ما أكون فيه إلى الاستقرار والتركيز في الدراسة، وكان ما شاهدته بمجرد دفعي لباب الشقة الموارب آخر ما كنت أتوقع رؤيته في بيت كان آخر عهدي به ابناً يحاول اغتصاب أمه ليثبت لها رجولته، وأماً تهدده بعملية جراحية تحيله إلى فتاة ليل يقوم أبوه بتسريحها، فقد وجدت أمامي صورة مشرقة للأسرة المصرية الأصيلة التي يُظللها دفء أسري ناصع كالمحجّة البيضاء.

كانت أم ميمي تجلس متربعة على الكنبة التي أنام عليها، متكئة على بعض كتبي، وأمامها على الأرض يجلس ميمي وهو يميل برأسه المبتل إلى الخلف، وقد أرقده في حجر أمه التي أخذت بكل حنان تُفلِّيه وتمشط شعره، وتدهنه بزيت ما، حريصة على أن يتخلل الزيت كل خصلات شعره. كان ميمي يجلس مرتوياً من نبع الحنان، في صورة شاعرية لا يفسد رقتها إلا الطبلية المركونة بجواره، والتي كان يمد يده من حين لآخر ليملأها ببعض ما في أطباقها، مسارعاً لازدراد ما يملأ يده، كأنه يأكل في آخر زاده، مع أن الطبلية كانت حافلة بأطباق عدة، يتوسطها أكبر طبق في المطبخ لم يكن يستعمله أحد البتة، فإذا بي أراه اليوم ممتلئاً حتى حوافه، بفتّة لا تخطئ الأنف رائحة تقليتها الزكيّة الفائحة خَلّاً وثوماً، وإلى جواره طبق متوسط الحجم تملؤه قطع من هُبَر اللحمة الملبّسة، وآخر يماثله في الحجم به قطع من الممبار تسر الناظرين، وعلى يسار الطبلية طبق به شوربة كوارع أفسدت جمال الصورة لدي، إذ لم أكن من عشاق الكوارع المريبة شكلاً ورائحة وطعماً، برغم ما يزعمون لها من فوائد حسية لم يثبتها الأطباء.

لولا أنني أعرف السحنتين اللعينتين حق المعرفة، لظننت أنني دخلت شقة أخرى بالغلط، فالموقف الذي أشهده الآن، أراه للمرة الأولى منذ أن سكنت في هذه الشقة الحقيرة قبل أشهر، وكان يمر

الهلال تلو الهلال، ولا توقد فيها نار على شيء ذي بال، ولا تمتد فيها مائدة عامرة كتلك التي يلهط ميمي من خيراتها، وإذا كنت يمكن أن أصدق ما أراه مرصوصاً على الطبلية من خيرات، فكيف أصدق هبوط الجِنّية فجأة على تلك الحيزبونة التي ماعهدتها إلا صخّابة لعّانة مشاءة بنميم، وكيف أستوعب نسيانها السريع لما كاد أن يفعله ابنها العُتلّ الزنيم قبل ساعات؟ وكيف أنسى لهما نذالتهما معي في القسم؟ وكيف أمتلك الجرأة فألومهما على وطايتهما، ولكن بشكل منضبط لا يفضي بي إلى الشارع؟

أخرجني صوت ميمي من لُجّة أفكاري، ليعيدني لسانه الزالف إلى أرض الواقع المرير: «خش وسيب الباب موارب عشان يهوّي الشقة.. إيه.. انت واقف مبرّق لنا ليه.. عمرك ما شفت حد بياكل قبل كده يا أحّه»، ليثبت أن دفء الأكل البيتي وحنان الأم وزيتها لم تغيّر في وساخته شيئاً، لكن ما تغير وأذهلني بتغيره، هو صوت أم ميمي الدافئ وهي تقول لابنها: «عيب ياله يا ميمي ده زي أخوك.. تعال كل يا حبيبي.. بسم الله.. حماتك بتحبك». فانتظرت أن يكون ما قالته مقدمة لشتيمة أو شخرة أو بذاءة مفاجئة، لكنها أعقبت ما قالته بزغدة جعلت ميمي يعدل وضع الطبلية ليفسح لي مكاناً لأجلس إلى جواره وهو يقول: «تعال يا سيدي تلاقيك ما كلتش من امبارح.. إيه انت كنت فين يا عم.. قلقتنا عليك»، وقبل أن يمنحني فرصة للتفكير في رد مناسب، عاجلتني أمه بقولها: «قلت لك تلاقيه بايت بره عند حد من صحابه.. إبقى بس قول لنا بعد كده والنبي عشان ما نقلقش عليك».

أخرجني ما قالاه عن شعوري، فتناسيت نفسي الأمّارة بالهدوء، واندفعت ألعنهما رافضاً تلاعبهما المهين بي، ومذكراً لهما بكل ما حدث منهما من غدر وخيانة، فانتظراني حتى أفرغت كل ما كان يضطرم به صدري، لتسود بعدها لحظات صمت قطعتها أم ميمي بقولها: «خلاص بقى يا ابني اللي حصل حصل ما توجعش دماغنا»، ليعلق عليها ميمي وهو يزدرد أكبر قطع الممبار الموجودة في الطبق: «ما كنتش أعرف إن قلبك أسود كده يا أخي»، وقبل أن يقضي ابنها على ما في طبق الممبار، اعتدلت أم ميمي في جلستها ونزلت من عليائها إلى جوار الطبلية، وقربت الطبق مني، ومدت نحوي ملعقة وفحل بصل وهي تقول بلطف بالغ: «يعني انت مش عايز تنسى.. أنا وميمي نسينا اللي حصل خلاص وعفا الله عما سلف.. خليته يأجّز م الورشة وراح اتبضّع وجاب ممبار وكوارع ولحمة راس عشان نرجّع أيامنا الحلوة بتاعة زمان.. أنا حتى رحت لعمك سيد البقال عشان أكلم أخته فاتن تيجي تاكل معانا.. بس طلع جوزها الواطي رامي عليها يمين ما تعتبش بره

البيت.. أصله مخوِّنها بعيد عنك.. شاكك إن مشيها بطال.. وبصراحة أنا عاذراه.. ما هو اللي شافه من أبوها مش قليّل».

كانت أم ميمي تحكي وهي تُلَيّط يدها اليمنى بالزيت، ثم تفركها باليسرى، وتمسح بكليهما على رأس ميمي هارشةً مارشةً مُفليّةً مُسرِّحةً، فيما كان ميمي يتمرمغ في حجرها ممحوناً مبتهجاً كأنه ارتد إلى أحلى أيام طفولته، ولأنني كنت على وشك أن أنهار من الجوع، فقد قررت أن أتجاوز ما حدث مؤقتاً، لألبي دعوة أم ميمي وألحق ببعض ما تبقى في الأطباق، قبل أن يقضي عليه ميمي حتَتك بتَتك، وما إن جلست إلى الطبلية حتى أعادتني أم ميمي إلى فغر فاهي حين قالت: «إن جيت للحق أنا برضه كنت مزوداها.. الجلابية اللي كنت لابساها كانت محزّقة أوي، والواد كبر والواحدة لازم تحرّص في لبسها شوية»، ليقول لها ميمي والأكل يتناثر من فمه الممتلئ: «لا يا امه أنا واطي ووسخ وما كانش لازم أعمل اللي عملته.. البسي براحتك يا امه.. انتي في بيتك.. إن ما كنتيش تاخدي راحتك في بيتك هتاخديها فين بس»، ملتقطاً قطعة كوارع ليحاول وضعها في فم أمه التي تمنعت وهي راغبة قائلة: «لا يا حبيبي.. أنا هاموت عليها والله.. بس انت عارف لو كلتها هترفع لي الضغط وتشحورني».

كانت تلك المرة الأولى التي أدرك فيها أن حالة التقشف المستمرة التي كانت تعيشها أم ميمي لم تكن بخلاً أو فقراً أو كراهية للمسبك والمحمر والمتخدّع، بل كانت بأمر الدكاترة، وأن أم ميمي كانت تعاني إلى جوار آلام الربو من آثار الضغط والسكر، لكنها كانت تكتم عني تلك الآلام، كما كتمت في حضرة الضابط آلامها من عدوان ابنها المزري، ومن يراها الآن وهي تغمره حباً وحناناً وزيتاً وفتة، لا يراها وهي بالأمس تغمره شلاليت وعضات ولعنات، ومن يرى ميمي بالأمس وهو ينقض عليها كالذئب السعران، لن يعرفه اليوم وهو يخاصم شغفه بالتهام الطبلية بكل ما عليها، ساعياً للضغط على أمه لتنسى تعليمات الأطباء، ولتبرّ نفسها لأن «ماحدش واخد منها حاجة»، متبعاً نصائحه نواسيّة الطابع بقوله: «ما تقول حاجة يا سي خرا»، على أساس أن أمه كانت تنتظر كلمتي لكي تنهي تمنّعها الكاذب، وتنقض على الأطباق المرصوصة على الطبلية، دون أن تدري أنها تحفر شلفها بظلفها.

عاش الهلال مع الصليب.
لكن أم ميمي ماتت

وحده الساذج الغرّ يمكن أن يثق في ميمي وأمه لمجرد أنهما دعياه إلى وليمة حافلة بفواكه اللحوم، وأنا لم أكن ساذجاً ولا غراً، أنا فقط طالب علم سيئ الحظ، اخترت الضنك والعناء طريقاً للاستقلال عن سطوة أبي، ولم أجد في هذه المدينة الظالم أهلها غرفة خالية إلا في هذا المكان التعس، لكنني برغم كل ما جرى ما زلت أمتلك عقلي وشرفي وأموالي القليلة التي أخبئها وسط المجلات القديمة في غرفتي التي تركتها للبرص والفأرين.

ولأنني كنت وما زلت وسأظل أؤمن أن «سوء الظن من حسن الفِطَن»، فقد حرصت على عدم تسليم عقلي لميمي وأمه اللذين يمكن لهما أن يأكلا دماغ بلد بشعبها، حرصت بعد ما جرى لأم ميمي على يد ابن بطنها، على أن أتفقد مدخراتي بانتظام وأقوم بتغيير مخبئها من مجلة إلى أخرى، ليس لأنني كنت بخيلاً أموت على القرش بل لأنها كانت كل ما سأصرفه على نفسي طيلة الأشهر المتبقية من العام الدراسي، أما شرفي فقد كان الحفاظ عليه يتطلب إجراءات أمنية معقدة، على رأسها أن أنام وظهري ملتصق بالحائط تمام الالتصاق ضماناً لأي حركة غدر من ميمي الذي لم يخش في الله شرف أمه، فهل سيخشاني أنا؟

كان حذري في محله تماماً، فما حسبته لقيته بأسرع مما توقعت، فبعد بضع ساعات من تلك الظهرية البهيجة التي كانت حالة طارئة لم ولن تتكرر، شعرت بأنامل ميمي تلامس جسمي وأنا نائم، فصحوت مفزوعاً وأنا متحفز للدخول في معركة حامية الوطيس، مستعداً لتوجيه قبضتي إلى ميمي الذي فوجئت بأنه كان منخرطاً في بكاء حاد، فاستغربت مسارعته إلى الندم أثناء ارتكابه المعصية ودون أن ينتظر الانتهاء منها، وأرخيت قبضتي مقرراً البدء بنصحه بالتي هي أحسن، لكنني فوجئت به يواصل البكاء، دون أن يبدي اهتماماً حتى بالنظر إلى مؤخرتي، فشعرت

بالارتياح لأنه هَمّ بسيئة ولم يفعلها، وقبل أن أبشره بأنه قد كُتبت له بذلك حسنة، شرح لي ميمي سبب بكائه وهو يمسح برابيره في الملاءة التي أتغطى بها: «مش عارف أعمل إيه.. أمي بتشحّر جوّه»، ولم أفهم معنى كلامه إلا عندما شاهدت حالة أمه بأم عيني.

كان منظرها مرعباً وهي تفرك وتنتفض وتتلوى في السرير كمن مسّه طائف من الشيطان، تختلط تأوهاتها بأنفاسها اللاهثة بحشرجاتها غير المفهومة، وحين نظرت إلى ميمي مذهولاً وجدته يقول لي باكياً: «والمصحف ماعملت لها حاجة.. حتى اسألها»، ولم يكن الوقت مناسباً لكي أغوص في عقل ميمي، لأعرف كيف أمكن له أن يتخيل أن حالة صحية كهذه يمكن أن تنتج عن عمله شيئاً لأمه، فقد كان كل ما أفكر فيه وقتها كيف سنجد في هذه الساعة المتأخرة من الليل حلاً يجعلنا نلحق أم ميمي قبل أن تضيع من أيدينا، ولم يكن لدي مانع أن أفعل أي شيء لإنقاذها، لا عن حب غامر لها، بل خوفاً على مصير الشقة التي كان مستقبلي معلقاً بمستقبلها، ولذلك لم يكن لدي مانع أن أسارع إلى شارع الهرم لاستيقاف تاكسي أحاسبه من حُرّ مدخراتي، لننقل أم ميمي إلى أقرب دكتور يمكن أن يحافظ على سلامة أم ميمي وبقاء شقتها.

كان القرار الذي اتخذته صائباً لكنه لم يكن كافياً لحل الأزمة، فقد أخذ الدكتور يسبني أنا وميمي بأقذع الألفاظ المهذبة، لأننا سمحنا لسيدة مريضة بالسكر والضغط أن تأكل أكلة مدمرة كالتي شاركتنا فيها، ولأننا تركناها تقيم في شقة شديدة الرطوبة وقارسة البرودة كالتي نقيم فيها، ولأننا وافقنا على أن تهمل في تناول أدويتها، وكان ميمي كلما تحدث الطبيب ينظر إليّ معاتباً ويقول للطبيب: «معلهش يادكتور أصل أنا طول اليوم في الشغل وسايبها للزفت ده»، بينما كانت أم ميمي التي «هَيبَرتها» الحقنة التي كان يفترض بها أن تكون مهدئة، قد قررت نزع شعرة معاوية التي بيننا وبين الطبيب، فأخذت تسبه بأقذع الألفاظ القبيحة: «شقة تانية مين يا ضاكتور يا خول.. يا ملعوب في أساسك.. بالذمة في راجل تبقى عنيه زرقا كده.. والنعمة تلاقيك شغال في التعريص مع شعراوي.. عشان كده حاسه إني شفتك قبل كده»، لكن الطبيب كان نموذجاً لملاك الرحمة على أكمل جناحين، فقد تجاهل لسانها الزفر تماماً، مصدّراً ابتسامة منضبطة لها، ومصدراً تعليمات مشددة بضرورة وضعها فوراً تحت الملاحظة الطبية في أي مستشفى لأنه يشتبه في حاجتها العاجلة إلى عمل أشعة وفحوصات لكل من القلب والرئتين، لأن حالتهما ليست على ما يرام، وقبل أن نفهم منه تفصيلات أكثر، اضطررنا إلى إخراج أم ميمي من عيادة الدكتور، بعد أن استفزتها

ابتسامته المنضبطة التي ظنتها تعالياً وقنعرة، فحاولت خنقه بالسماعة، في حركة متهورة لم تكن متناسبة مع حالتها الكرب التي استوجبت إحضارها إلى العيادة.

وقفت أنا وميمي وأمه في شارع الهرم مع مطلع الفجر ننتظر مرور أي تاكسي ليقلنا إلى مستشفى أم المصريين، بعد أن قال ميمي إن أمه سبق أن دخلته قبل ذلك، وتم علاجها فيه مجاناً. وأخذت أفكر في استنطاع ميمي المنحط الذي سيواصل تكبيد ميزانيتي خسائر فادحة، فبعد أن تجاهل دفعي لأجرة التاكسي الذي قاد أمه إلى عيادة الطبيب القريبة من ميدان مدكور في أول شارع الهرم، تظاهر في عيادة الطبيب أنه نسي محفظته في البيت، وجعلني أدفع أجرة الطبيب التي كانت مضاعفة بسبب اقتحامنا لبيته وش الفجر، وهو ما سيتكرر بالتأكيد بعد قليل حين يطلب سائق التاكسي الشيء الفلاني في مشوارنا إلى مستشفى أم المصريين، لكنني عقدت العزم على مواجهة ميمي عقب إيداع أمه في المستشفى، محاولاً تعويض ما يمكن تعويضه من خسائر.

انتابني الشك في أن ما حقن به الطبيب أم ميمي كان مسكنات أو مهدئات، فأغلب الظن أن صحيان الرجل على ملا وشّه لإسعافها، جعله يحقنها بمهيجات عصبية هي التي أكسبتها هذه الطاقة الحماسية التي جعلتها ترفع عقيرتها بالغناء في شارع الهرم الخاوي على عروشه وكباريهاته، مختارة عدداً من المطالع الغنائية بعد تحريف بعضها وتحويله إلى مقاطع «أبيحة» يعاقب عليها القانون، وكنت قد استمعت إلى بعض تلك المقاطع منها من قبل حين تقوم بغسيل ملابسها أو الاستحمام، لكنها أضافت إليها هذه المرة مقطعاً لمطرب الملوك والأمراء محمد عبد الوهاب، كاشفة عن ذائقة رفيعة مفاجئة، حين اختارت رائعته «في الجو غيم حجب القمر وحرمني النوم»، مع استبدال كلمة (النوم) بكلمة (النيك)، وهي تضحك في هستيريا شاركها فيها ابن بطنها ميمي.

وربما لأن خيالي شكّلته أفلام الميلودراما الرخيصة، فقد توقعت أن تنهي غناءها العابث وضحكاتها الهستيرية بالسقوط على أسفلت الشارع وقد فارقتها الروح، لكنها توقفت عن الغناء والضحك فجأة وأخذت نَفَساً عميقاً، ثم نظرت في عينيّ كأنها أحست بما كنت أفكر فيه وقالت مطمئِنة: «الحمد لله بقيت أحسن خلاص»، لكنها رفضت اقتراح ميمي أن نعود إلى البيت لـ«نتخمد شوية»، وقالت بجدية إنها لن تطاوعه من جديد، وأنها تنوي هذه المرة الالتزام بتعليمات الدكاترة دون أي اجتهاد أو فَتي، ولذلك ستذهب إلى المستشفى الآن لعمل ما اقترحه الدكتور من فحوصات، ولن تعود إلى البيت إلا بعد أن تطمئن على نفسها.

بعد طول انتظار خرج علينا من أحد الشوارع الجانبية تاكسي اتجه نحونا متحمساً لأنه ظننا من الخارجين وش الفجر من كازينو الليل القريب من عيادة الدكتور، وقبل أن يتبين ملامحنا أكثر بعد توقفه، قفزت أم ميمي إلى التاكسي بحيوية لا تناسب حالتها الصحية وقالت للسائق بمنتهى التناكة: «اطلع بينا على غمرة يا اسطى.. هننزل عند المستشفى القبطي.. هتاخد مننا تلاتة جنيه ولو قلت بِم هاقلع اللي في رجلي واديك بيه»، لتستدير بعدها وتشخط فينا قائلة: «اركب يا حيوان منك ليه».

في المسافة الفاصلة بين شارع الهرم وغمرة، لم أشغل نفسي بالتساؤل عن سر اختيارها للمستشفى القبطي لكي نذهب إليه وهي المسلمة الموحدة بالله نظرياً؟ فقد كان لدي أسئلة أكثر إلحاحاً أسعى للإجابة عليها بترتيب الأهمية: هل ستكون الثلاثة جنيهات التي سيتم بالتأكيد تدبيسي في دفعها بعد قليل آخر أحزاني في هذا اليوم الخرائي الطويل؟ وهل كان صمت سائق التاكسي قبولاً حقيقياً بالمبلغ أم تأجيلاً لمواجهة ربما كلفتني بعد قليل ما هو أكثر؟ هل أنا أهبل لأظن أن هذا سيكون آخر ما أدفعه حين يرتبط مصيري بمصير هذه العائلة؟ وهل أنا أشد هبلاً لكي أظن أن الخروج من شَرَك هذه العائلة سيكون سهلاً خاصة أن زيارة الطبيب في سن مثل التي وصلت لها أم ميمي يكون عادة البداية لسلسلة من الزيارات والأشعة والتحاليل والفحوصات والأدوية التي سيتم ابتزازي بالتأكيد لكي أشارك في تحمل تكاليفها؟ لكن هل كان لدي بدائل أخرى قبل أن أصل إلى هذه المرحلة؟ هل فكرت حقاً في بدائل أخرى أم أنني استسهلت الاستسلام لما أنا فيه لأنني أخشى إضاعة الوقت في البحث عن بدائل أخرى، وأخشى مغبّة المواجهة مع ميمي وأمه حين أقرر الخروج من الشقة؟ ألم تقل لي أم ميمي من قبل حين ذكّرتها بأن مُقامي في الشقة ليس دائماً، إنها تتمنى لي الخير شريطة ألا أترك شقتها قبل نهاية العام الدراسي لأنها لن تجد من يسكن غرفتي بسهولة في هذا التوقيت من العام؟

لكن قبل أن أفكر في ذلك القرار، هل وصلت الأمور حقاً إلى نقطة اللا عودة التي يتوجب بعدها أن أترك شقة أم ميمي فوراً، حتى لو تركت كل شيء يخصني فيها؟ ألم تمر مصيبة البيات في الحجز على خير والحمد لله؟ ألم يكن لها أثر - حتى لو كان وقتياً– في تمتين علاقتي بميمي وأمه؟ هل سينسى لي الاثنان وقوفي إلى جوارهما؟ دعك مما دفعته من فلوس وما سأدفعه بعد قليل فأنا أعرف أن خرط القتاد وقلة القيمة والمرمطة دون استرداد أي منها. ألا يمكن أن تتحسن ظروف إقامتي في الشقة بعد أن تمر أزمة أم ميمي الصحية على خير؟ من يدري، ربما قرر ميمي أن

يتعاون معي في القضاء على الفأرين والبرص أو تطفيشهما خارج الشقة، لأعود إلى غرفتي الحقيرة معززاً مكرماً؟ ألا يمكن أن يكون ما جرى بينه وبين أمه نهاية لحالة التوتر الخرائية التي تعبق أجواء الشقة؟ لنشهد في قادم الأيام المزيد من لحظات الصفاء التي شهدناها حول طبلية فواكه اللحوم، مع الحرص على إبقاء أم ميمي بعيداً عنها لكيلا تتضرر صحتها من جديد؟

حين أخرجني صوت أم ميمي من دوامة تأملاتي، كنا قد وصلنا إلى ميدان رمسيس، بعد أن نهب التاكسي شوارع القاهرة الخالية في ساعة الفجرية. كان ميمي قد راح في النوم وعلا شخيره وجرت ريالته على ذقنه، ومع ذلك لم توقظه أمه لتقول له ما قالته لي بصوت هادئ وفي لغة إخبارية تلغرافية خالية من حشوها المعتاد وقباحتها الأثيرة مفسرة سر اختيارها للمستشفى القبطي دون غيره من مستشفيات القاهرة الكبرى وضواحيها: «بص يا ابني الله يهديك.. كلها شوية وهنخش أهوه على المستشفى القبطي.. أنا خالتك تريز.. وده ابني جرجس.. وانت جارنا في الضاهر.. انت مسلم عادي.. بس أنا اللي مربياك.. عشان كده جيت معانا جدعنة.. المهم حسك عينك تغلط وتجيب سيرة أم ميمي دي على لسانك.. فاهمني؟»، وحين قرأت على صفحة وجهي تساؤلات كثيرة تؤخر فهمي، بدأت في الرد عليها دون أن أسأل: «ما تقلقش دي مش أول مرة.. همّ عارفيني كويس هناك.. كل ما أعيا باروح لهم يعالجوني ويعملوا لي تحاليل ويأكلوني أحلى أكل ويدوني دوا كمان.. الكنيسة بتضبّط اللي يخش هناك.. بيشيلوا بعض.. مش زينا يا مسلمين.. متكحرتين ومش لاقيين اللي يعبّرنا»، لتنبعث حينها من سائق التاكسي ضحكة امتزجت بشخرة هادئة كانت أول وآخر ما سمعتها منه.

بدون أن أحتسب، أدخلتني أم ميمي إلى عالم جديد لم أكن أتوقعه، عالم كنت حتى لحظة دخولنا من باب المستشفى القبطي أجهل وجوده، فقد كنت أظن جهلاً مني، أن المستشفى القبطي ليس إلا مركزاً للعلاج بالإنجيل، مثل مراكز العلاج بالقرآن التي انتشرت في مدن مصر منذ نهاية الثمانينات، فاتضح أنه مستشفى مجهز على أحدث مستوى، تلقت فيه أم ميمي - أو ماما تريز كما ظللنا ندعوها طيلة الأسبوع الذي أقامت فيه هناك– علاجاً لم تكن لتحلم به، ولو أنها ذهبت إلى مستشفى خاص لدفعت آلافاً مؤلفة ثمناً له، وحتى الآن لست متأكداً هل كان مسؤولو المستشفى يدركون حقيقة الخداع الاستراتيجي الذي مارسته أم ميمي، وقرروا تعدية المسألة بمزاجهم كما حدث من قبل؟ أم أنها أجادت في كل مرة سبك الدور عليهم، خصوصاً أنها فور دخولها إلى المستشفى لم تطلب ممن رحبوا بها في الاستقبال أن يعرضوها على الطبيب المختص، بل طلبت

المثول في حضرة أي قسيس متاح، لكي يباركها ويقرأ لها أوراداً تطهر روحها المعذبة قبل أن تصعد إلى خالقها الذي اشتاقت إلى لقائه للراحة من أوجاعها، ومع أنني كنت أخشى أن يطلبوا منها إثبات شخصية فينفضح أمرنا ويطلبوا لنا البوليس، إلا أن الوليّة العُقر كانت محقة حين طمأنتني قبل أن ندخل، لأن الجميع استقبلوها بمودة وترحاب، وسارعوا بإحالتها إلى الطبيب المختص، في الوقت الذي كان فيه ميمي يقف أسفل صورة المسيح ويقوم بوضع يده عليها طالباً البركة وهو ينهار في البكاء.

لأكثر من مرة خلال ذلك الأسبوع الذي قضته أم ميمي في المستشفى، كنت أعود من الجامعة لأعود أم ميمي في ثوبها القبطي الجديد، وأنا أتوقع أن أعرف بخبر القبض عليها وكشف خدعتها بمجرد طلبي الدخول إلى زيارتها، لكنني كنت أجدها كل مرة في وضع مسيحي جديد، مرة وهي تقبل يدي قسيس وتقول له باكية خاشعة: «باركني يا أبويا أنا خطيت كتير»، ومرة تحكي لممرضات تحلقن حولها وقائع حلم مبهج رأت فيه القديس مار جرجس، ومرة تعظ عامل توزيع الوجبات التي تلهطها كل يوم لأنه ابتعد عن محبة المسيح أكثر من اللازم، حتى إنني ظننت لوهلة أن أم ميمي كانت مسيحية في الأساس، وأنها أسلمت بعد أن وقعت في غرام شعراوي قبل أن تكتشف أنه زِناوي، وعزمت على أن أسألها عن سر اتساع ثقافتها القبطية فور خروجها من المستشفى بالسلامة، إن لم تخرج منها على النيابة.

لكن أم ميمي قررت أن تفاجئني كعادتها، حين اختارت لسبب غير مفهوم حرق جسور المحبة بينها وبين إخوتنا الذين في المستشفى القبطي، بعد أن جاء موعد خروجها وتحسنت حالتها وتسلمت تحاليلها وأدويتها، فما إن اقتربت من باب المستشفى الرئيسي وهي تتسنّد عليّ وعلى ميمي، حتى نَظَرت إلى موظفي الاستقبال الذين كانوا قد ودعوها بأرق العبارات وأطيب التمنيات، وأطلقت ضحكة استهزاء عالية، أشارت بعدها بسبابتها إلى السماء وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، ثم استبدلت سبابتها بوسطاها وأخذت تلعِّبها في وجوه الحاضرين ورفعت صوتها قائلة: «مسلمة وموحدة بالله طول عمري يا كفاتسة يا ولاد الوسخة»، ثم نَطَرت يدي ويد ميمي، وأسرعت خطاها نازلة على سلالم الباب الرئيسي، دون أن تخشى مضاعفات «الدألجة»، ودون أن تنتظر إفاقتي من ذهولي الذي اشتركت فيه مع إخوتي في الوطن من الواقفين على باب المستشفى، وهو ذهول تضاعف حين علمت فيما بعد أن قانون المستشفى لا يشترط على الداخلين للعلاج فيه أن يكونوا مسيحيين، مما يعني أن أم ميمي لم تكن مجبرة في الأصل على ادعاء

المسيحية، ولم تكن مضطرة لإهانة أناس شالوها على كفوف الراحة، خاصة وهي مريضة مزمنة يمكن أن تحتاج إليهم بدل المرة عشرين مرة.

ظلت أم ميمي تسرع في خطاها مبتعدة عن المستشفى، وهي تطلق بذاءات طائفية متوالية، وعيناها تلتمعان بانتشاء لم أدر له سبباً، في حين كان ميمي يسير إلى جوارها ضاحكاً من قلبه، وهو يردد دون انقطاع: «ينصر دينك يا امّه»، ليكشف أنه يحمل نتانة طائفية إلى جوار ما يحتويه جوفه من نتانات متنوعة.

عن نفسي لم أطق صبراً حتى نعود إلى البيت فسألت أم ميمي بعد أن ابتعدنا نسبياً عن المستشفى القبطي، وكانت قد توقفت للتو عن وصلة ردحها التي فرّجت علينا الخلق في شارع رمسيس، محاولاً الاحتفاظ بنبرة متسائلة لا تستفزها: «ليه عملتي كده بس يا أم ميمي.. همّ أذوكي في إيه يعني.. ده انتي ما شفتيش منهم إلا كل خير.. وبعدين مش جايز تحتاجي الناس دي تاني»، فقالت لي بنبرة متفاخرة ليس بها ريحة الشعور بالذنب: «لا خلاص ما أنا مش راجعة لهم تاني.. عشان كده قلت أرضي ربنا يمكن يسامحني إني عملت فيها مسيحية كذا مرة.. ده أنا حتى سألت شيخ عن الموضوع ده وقالي حرام»، وفي حين واصل ميمي ضحكه المستفز المنتصر لدين أمه، كنت غارقاً في حيرتي مما سمعته، لأنني كنت قد وصلت إلى المستشفى متأخراً، فلم أعرف ما الذي قاله لها الأطباء قبل أن يسمحوا لها بالخروج، وهل كان لتأكدها من عدم عودتها إلى المستشفى ثانية علاقة بتحذيرهم لها من العودة بعد أن كشفوا لعبتها الرخيصة؟ أم أنهم بشّروها بشفائها التام الذي لن تحتاج فيه إلى العودة إليهم؟ أم أنهم أبلغوها بأن حالتها ميؤوس منها وليس أمامها إلا أن ترقد على رجاء القيامة؟ أم أنها حازت في آخر لحظة قبل خروجها ثروة مفاجئة ستغنيها عن الحوجة إلى العلاج المجاني عند أهل الصليب وأهل الهلال؟

الغريب أن أم ميمي فقدت صخبها بعد لحظات من خروجها المدوي من المستشفى، فلم تنطق بكلمة ونحن في التاكسي الذي حملنا إلى شارع الهرم، والذي دفعتُ ثمنه كالعادة ابتهاجاً بخروجها بالسلامة، وحين رأيت وجهها في مرآة التاكسي شاردة واجمة، ظننتها تراجع نفسها فيما فعلته، بعد أن أفاقت من نوبة الشر التي انتابتها بتأثير الأدوية ربما، خاصة أنها لم تبتسم حين أخذ ميمي يردد بانتشاء عبارتها: «مسلمة وموحدة بالله طول عمري يا كفاتسة يا ولاد الوسخة»، وهو يصبّع بكلتا يديه في فضاء التاكسي، لينتزع ضحكة من سائق التاكسي الذي أصر على أن يفهم الحكاية، وحين

فهمها كان أول ما أطلقه قوله مبتهجاً لأم ميمي: «ينصر دينك يا حاجة»، وحين كان على وشك أن يطلق من فمه باكبورتاً طائفياً، التفتت نحوه أم ميمي شاخطة مأريفة، وقالت له: «معلهش يا اسطى نقّطنا بسكاتك عشان دماغي واجعاني».

لم تفارق أم ميمي صمتها الطارئ، حين عادت إلى بيتها الذي لم تغب عنه من قبل فترة كهذه، ومع ذلك فقد رفضت أن تستجيب لاقتراح ميمي بأن نتعشى معاً ابتهاجاً بشفائها، مع أنه عرض عليها أن يسلق لها بيضتين، ويصنع لها طبق جبنة قريش بالقوطة، ويقمّر لها رغيفين عيش بلدي شالهما لها في الثلاجة، وبعد أن طبطبت على كتفه ممتنة، نظرت إليّ بمودة ثم قالت لنا بأهدأ نبرات سمعت صوتها يصدرها منذ عرفتها: «كلوا انتو بالهنا والشفا.. بس وطوا صوتكو والنبي عشان حاسة إني تعبانة وعايزة أستريّح».

ولم يكن يخطر على بالي أنها حين أغلقت باب غرفتها خلفها، لم تكن ذاهبة إلى راحة مؤقتة، بل كانت ذاهبة إلى حيث ما ترجوه من راحة أبدية، ولم أكن أعلم أنني حين سأدخل غرفتها في ظهر اليوم التالي، وقد كان يوم جمعة لا جامعة لي فيه، سأراها ممددة على جنبها الأيمن في سكون مريب، لأنها كانت عادة ما تهدر بالشخير حين تنام، وأنني حين أقترب منها بحذر لأهزها بعد أن أقلقني صمتها، متخوفاً من أن تظن أنني ميمي الذي يحاول فعل السوء بها، سألفيها جثة هامدة على وجهها ما ظننته شبه ابتسامة، لعلها ابتسامة من حقق هدفه أخيراً، حين ارتاح من فرهَدَة حياته.

لقد فقدت مصر اليوم أم ميمي

في موقف كذلك الموقف، لن تكون متأكداً ما الذي يدعوك للفزع أكثر؟ أن تشهد لحظة الموت وهي بذلك القرب الشديد منك، أم أن تدرك أن أم ميمي ماتت ولا أحد إلى جوارها غيرك، وأنك المسؤول عن التعامل مع هذا الموقف، على الأقل حتى يأتي من هم أكثر مسؤولية منك لكي يتعاملوا معه.

هذا ما ستواجه به نفسك بعد دقائق من محاولة هروبك من الحقيقة، بهز جسدها الذي يروح ويجيء في يدك دون أدنى مقاومة، وهي غارقة في صمت مطبق، وأنت غارق في حوار ذاتي تصاعدي منطوق تارة وصامت تارة أخرى:

«إيه يا أم ميمي.. مش عوايدك تنامي لحد دلوقتي.. أم ميمي.. إنتي خبّيتي علبة السكر فين.. أصل يعني كنت عايز أعمل كوباية شاي.. الله! إيه الحكاية يا ست الكل؟ في إيه.. مالك؟ أم ميمي.. يا نهار إسود.. أم ميمي.. أم ميمي.. لا إله إلا الله.. هي مغمى عليها ولا إيه.. يا ست أم ميمي.. يا دي الحوسة.. قومي بلاش هزار.. هي عاملة كده ليه.. أكيد عايشة طبعاً.. تموت إزاي.. طيب أجس نبضها ولا أعمل إيه.. دي قاطعة النَفَس.. لا ياعم أكيد كويسة.. تلاقي بخّاخة الربو خلصت.. أعمل لها تنفس صناعي.. طب لو دخل علينا ميمي وإحنا كده.. بالذمة ده وقت هزار؟ مش تخليك في خيبتك التقيلة.. يا نهار إسود.. دي باينها ماتت».

نعم، ماتت أم ميمي ميتة يحسدها عليها الكثيرون، راقدة على سريرها، شاخصة ببصرها إلى السقف القميء المليء باللُّطَع وخيوط العنكبوت، وعلى ثغرها تعبير ما، لا يمكن الجزم بكونه ابتسامة من رأت مقعدها من الجنة، أو ذهول من رأت مقعدها من النار، أو حيرة من لم تر أي مقعد من أي نوع.

أم ميمي، هذه السيدة العتيدة التي لم تهزمها الأيام والليالي ولا الربو ولا الأكياس الدهنية ولا مخبرو مباحث الآداب ولا شعراوي الزناوي طليقها ولا ابنها عزت الشهير بميمي، ولا ضباط قسم شرطة الهرم على كثرة ما هزموا من بشر. لم يهزمها إلا عزرائيل، فحكمتك يا رب. أم ميمي التي ليس في جسدها موضع إلا وبه حرق من براد شاي رماه عليها طليقها شعراوي الزناوي، أو كدمة من أثر السقوط من أتوبيسات الهرم التي ترفض الوقوف بذمة في المحطة، أو عضة من ميمي أثناء اشتباكاتهما المتكررة التي لا يملك تفسيرها إلا فرويد، أو حَزّ كلابش على يديها أثناء كبسة من كبسات البوليس أيام زمان، وبرغم ذلك هاهي تموت على فراشها كما مات خالد بن الوليد، فاللهم لا اعتراض.

كانت تلك الجمعة الأولى التي لا يوقظني فيها صوت أم ميمي من عز نومي، وهي تتمزّج بالغناء البذيء خلال تنظيفها لغرفتها التي لا تنظفها إلا كل جمعة، قاطعة غناءها من حين لآخر بالصعبنة على حالها الذي أودى بها لكي تتزوج شعراوي الزِناوي، بدلاً من جارها الواد عرفة بتاع عربية الفشّة والسِّمين، الذي أكرمه الله بعدها فصار المعلم عرفة، وفتح بدل العربية مطعماً وثلاث عربيات، ثم تراجع نفسها فتحمد الله على كل حال، لتعود بعدها للعن حظها العثر الذي رزقها بعيل متلوف مثل ميمي، وبنت منتّنة مثل أخته فاتن التي لا تودها أبداً بزيارة مع أن بينهما شارعين ثلاثة بالكثير، لأنها تستخسر في أمها بعض الخيرات التي يملأ بها زوجها الواطي ثلاجتها، وكنت حين ألقي على أم ميمي تحية الصباح لأقطع استرسالها الأسبوعي الذي حفظته صمّ، ترد بتحية صباح الجمعة الخاصة بها: «كويس إنك صحيت يا ابني.. روح املا لنا الكوز ده فول، بدل ما انت قاعد زي قلّتك».

كان غياب ذلك الطقس طيلة ساعات ذلك الصباح سبباً كافياً لأدخل إلى غرفة أم ميمي على غير عادتي، والتي لم أقض فيها من قبل إلا لحظات عابرة، كانت كافية لأتبين كونها أفخر بقع الشقة القميئة، فهي الغرفة الوحيدة التي تمتلئ بقطع متنوعة من الموبيليا: سرير وكومودينو ودولاب وتسريحة بكرسي وسجادة ونجفة بثلاث لمبات، وها أنا أجد نفسي الآن أتأمل كل ذلك لأول مرة وأنا أستسلم لهذياني خلال جلوسي على كرسي التسريحة ناظراً إلى جسد أم ميمي الممدد على سريرها العريض الذي تكومت في طرفه المجاور للشباك أطقم ملايات وكوفرتات وأكياس مخدات، وبطانيتان مغلفتان بكيسين بلاستيكيين كُتب عليهما «بطانيات ساراتوجا العالمية»، لأتذكر خناقة اندلعت بينها وبين ميمي حين حاول أخذ بطانية منهما في ليلة قارسة البرودة، أنهتها بجملتها

الأثيرة: «ابقى خدها لما أموت يا كسمك»، ليقضي طيلة الليل داعياً عليها بالهلاك دون أن تتهنّا بما تحرمه منه من بطاطين كان يمكن أن تدفئه في برد الصالة الذي ينخر في عظمه، ومع أنني كنت أعاني مثله بالضبط، لكنني لم أكن أمتلك رفاهية صب اللعنات على أمه التي ترقد أمامي الآن، دون أن أملك إلا محاولة تذكر محاسنها وحسناتها، بعد أن أصبحت من موتاي، لأطرد خاطراً عابثاً يقول لي إنني لن أجد حسنات مؤكدة لها، سوى تلك الكبيرة الملاصقة لأنفها الضخم، وتلك السُفَيّفة الملقاة بإهمال إلى جوار أذنها، قبل أن يخرجني من تداعي أفكاري العابثة والجادة، صوت عقلي يلومني ويشدّ أذني ويدعوني لأتصرف بمسؤولية تليق بالحدث الجلل الذي أواجهه لأول مرة:

«– بطاطين إيه وحسنات إيه يا أهبل.. مش تخليك في المصيبة اللي هتغرز فيها دي؟

– مصيبة إيه.. هو أنا مالي أصلاً باللي حصل؟

– مالك إزاي يا ابني.. مش الست ماتت وانت معاها في الشقة.. مش ممكن يكون ميمي قتلها قبل ما ينزل الورشة.

– ياراجل قتلها إزاي بس.. ده أصلاً بيخرج من البيت كل يوم وهو مش شايف قدامه.. يقتل إزاي بس وبعدين هيقتلها ليه يعني؟

– تقدر تقولي كان عايز يغتصبها ليه طيب؟ انت فاكر نفسك بتتعامل مع بني آدم طبيعي بيفكر في أي حاجة قبل ما يعملها.. مش بعيد يكون قتلها عشان طقت في دماغه؟

– بس والنبي بلاش أفكار مهببة، دي مهما كان أمه، وبعدين دول بقى لهم يومين سمن على عسل أصلاً.

– افرض إن كل ده كان تمويه عشان يخلّص عليها من غير ما حد يشك فيه.. الست طالعة من المستشفى وهي زي الفل هتموت فجأة يعني؟

– بص ياعم أنا ماليش دعوى بكل الكلام ده.. أنا مش قد مسؤولية زي دي.. الست دي ليها أهل أولى بيها.. أنا هاروح الكلية عادي ولا كأن في حاجة حصلت.. وبدل ما أرجع في المعاد بتاع كل

يوم هاروح سينما.. هاروح مع حد من زمايلي عشان يبقى شاهد.

– كلية إيه يا عبيط.. انت ناسي إن النهارده الجمعة.

– يا نهار اسود.. خلاص أنا هاروح أصلي الجمعة.

– الصلاة خلصت من ساعة يا فالح.

– خلاص هاروح العمرانية عند الواد أمجد أو امبابة للواد ناجي.. يعني هاتصرف.. المهم إني ما أبقاش في الشقة ساعة ما ميمي يرجع وهو بقى لما يشوف أمه يتصرف معاها.

– كده هتشككهم فيك أكتر.. وانت من امتى بتخرج يوم الجمعة أصلا؟

– يا ابني افهم واعقل الكلام.. الست كانت عيانة وحالتها بالبلا وشكلها أهوه ميتة موتة ربنا.

– على أساس إنك شفت ميتين أشكال وألوان قبل كده وعارف الفرق.. وبعدين طالما انت متطمن إن ما حدش هيقولك حاجة.. ليه عايز تمشي وتسيب الست ميتة كده لحد بالليل.. افرض ميمي اتأخر زي ما بيعمل ساعات.. هتسيبها تعفن في الشقة.. ده حتى إكرام الميت دفنه.

– افهم يا سي خرا وبلاش تنظير والنبي.. أنا لو اتصدرت في الليلة دي هترسى إني أنا اللي هاشيلها.. يعني أدفع الفلوس اللي محوشها بطلوع الروح عشان أدفن ست عشت معاها من شهرين.. بص أنا هالم عزالي وأمشي من هنا حالاً.

– أهي دي أغبى فكرة سمعتها في حياتي.. خلّيك كده.. وَدّي نفسك في داهية.. انت حر.

– داهية إيه ياعم.. ما توتّرش أمي عالصبح.

– بص يا سيدي.. إفرض إن ابنها ما قتلهاش.. وإنها ماتت موتة ربنا.. تقدر تقولي لما تهرب وتختفي من الشقة.. هتعمل إيه لما ييجي الطبيب الشرعي يشرّح جثتها ويلاقي بصماتك عليها.

– بصمات إيه يا جدع إنت؟

– مش قاعد بقى لك ساعتين عمال تهز فيها.. مش بعيد تكون صوابعك علمت عليها.. هتقول لهم إيه ساعتها؟

– طبيب شرعي مين ياعم اللي يشرّحها.. دي أم ميمي يعني لا راحت ولا جت.. مش بعيد يدفنوها في الشقة هنا أو في منور العمارة عشان مايوجعوش دماغهم ويدفعوا مصاريف الجنازة والدفن.

– خليك خليك.. هزر.. بس افتكر إني حذرتك.»

كان يمكن لتدافع أفكاري اللعين هذا أن يستمر إلى الأبد، لولا أن أخرجني منه شعور مقبض تملّكني بأن هناك رائحة نتنة فاحت للتو من أم ميمي، وحين اقتربت منها لم أشم شيئاً، قلت لنفسي لعلها رائحة فمي الذي لم أغسله بعد منذ استيقظت، ثم أدركت أنها رائحة عقلي الذي جعلته الصدمة يستعيد كل أفكاره المحفوظة عن الموتى الذين تتحلل جثثهم بسرعة، صحيح أن ذلك يحدث بالفعل ولن ينجو منه بشر فانٍ، لكنه بالتأكيد لن يحدث في ظهرية يوم من أيام شهر فبراير الباردة، ولن يحدث في شقة كهذه يتجمد الهواء فيها في الشتاء، فتصبح مضطراً لتكسيره لكي تذهب إلى الحمام ليلاً، يعني إذا كان كيس الهامبورجر الذي اشتراه ميمي قبل أيام، قد ظل خمسة ساعات كاملة دون أن يفكّ، وانتهى الأمر بميمي لأن يقلي قطعتي هامبورجر وهما ماسكتان في بعضهما، فلماذا لا تحفظ هذه الشقة جثمان أم ميمي حتى يعود ابنها من عمله، ويتحمل مسؤوليته تجاهها، بدلاً من أن أشيل أنا شيلة لا قِبَل لي بها.

كنت قد تصورت أن خروجي إلى الصالة بعيداً عن جثمان أم ميمي سيجعل تفكيري أصفى وأهدأ، لكن عصف أفكاري بي لم يتوقف للحظة، وحين أتذكر الآن بعض ما ورد على خاطري من أفكار بلهاء، أدرك حجم الصدمة التي كنت أمر بها وقتها، حين تخيلت مثلاً أنني بمجرد خروجي من الشقة هارباً من مسؤولية التعامل مع جثمان أم ميمي، سيخرج البرص والفأران من غرفتي، متجهين نحو جثمانها ليرقصوا عليه رقصة موت تدنس جسدها الخاوي من روحها، وهو ما لا يمكن أن يسمح بحدوثه إنسان لديه نتفة ضمير، فما بالك بمن لا يملك شيئاً غير ضميره وخَلَقاته المتواضعة ومدخرات تتناقص باستمرار، كيف يمكن أن يسمح بحدوث شيء كهذا لسيدة لم ير منها إلا كل...

– «لو سمعتك بتقول كل خير هاشخر لك.. هو ده عيبه بقى.. خلاص أم ميمي بقت قديسة.. طيب ما تعيّط عليها بالمرة.. وافتح شبابيك الشقة اللي عمرك ما استرجيت تفتحها.. والطم وشنشن وشق جيب قميصك اللي انت شاحته من جوز خالتك وولول في وشوش اللي ماشيين في الشارع اللي ما يتسمّى: آه يا حوستي.. ضهري اتكسر.. أم ميمي رحلت.. لقد فقدت مصر اليوم أماً من أعظم الأمهات وأشجع السيدات.. اسفخص على تفكيرك العاطفي الخريان اللي هيوديك في ستين داهية تهون جنبها الداهية اللي انت فيها دلوقتي.»

أسمع ذلك، فأقول لمن لم أعد أعرف هل هو عقلي أم ضميري أم قلبي أم همي الذي لا يتلمّ:

طيب خلاص يا أخي، شفت معها أياماً خرائية النزعة، وهي حافلة بكل العبر، لكن ماذا سأفعل الآن، وقد أصبحت معلقة في رقبتي كما قال أحدكم منذ قليل، طيب كيف سأصل إلى ابنها ميمي، الذي ليس لدى ميتين أمه خط تليفون في الورشة التي يعمل بها، لا يا سيدي، لا أعرف يقيناً إذا كان في الورشة تليفون أم لا، يعني سامحني لأنني لم أتبادل معه كروت البيزنس وأرقام هواتفنا، ربما لأنني لم أتصور أنني سأكون مطالباً ذات جمعة قارسة البرودة بأن أفجعه بخبر موت أمه، عن أي جيران تتحدث؟ عم سيد البقال الذي يغلق محله يوم الجمعة والذي لا أعرف أين يسكن بالضبط؟ أم الجيران الذين باعوني ساعة العُسرة في نقطة الشرطة، هل سيترك أي منهم بيته في يوم جمعة بارد كهذا، خلا الشارع فيه من أغلب مارّته، وتكلفَتَ من بقي في بيته في بطاطينه وألحفته، ثم افرض أنني قررت أن أطرق أبوابهم لأول مرة منذ سكنت في هذا الشارع اللعين، ماذا سأقول لمن يفتح لي بابه: «صباح الخير.. أنا الطالب عاثر الحظ الذي سكن في المدعوقة شقة أم ميمي.. هل تذكر حين التقينا ليلة كان ميمي يحاول اغتصاب أمه؟ أيوه أنا هو.. لا ولا يهمك حصل خير.. ما فيش أصلي صحيت من النوم لقيت أم ميمي ماتت.. مش عارف والله إيه المطلوب بالضبط.. أنا بس حبيت أبلغك باللي حصل.. لإن ضميري ابن الوسخة نقح عليا وقالي إني لازم أبلغ حد».

طيب ما هو الحل إذن وأنت تضيع الوقت في هذر لا طائل منه؟

لم يكن غريباً أن أجد الحل بفضل ضميري، وإن كان ذلك قد حدث بشكل غير مباشر، بعد أن استجبت لإلحاحه عليّ بأن أتوضأ وأصلي ركعتين على روح أم ميمي وأطلب لها الرحمة وأطلب لنفسي العون والصبر، ليداهمني الحل خلال أول سجدة سجدتها، فأقضي ما تبقى من صلاتي في

تسويته وتستيفه، متعجباً لأن ذلك الحل السهل لم يخطر على بالي فور اكتشافي لموت أم ميمي، بدلاً من تضييع ذلك الوقت الذي لا أدري على وجه الدقة هل كان ساعات أم دقائق، لكنني أدري أنني لن أنساه أبداً ما حييت.

أمشي متجهاً نحو الحل الموعود، متذكراً أم ميمي التي لا تجوز عليها الآن إلا الرحمة، حتى وإن كنت قد لعنتها من كل قلبي بعد ما تسببت لي فيه في ذلك اليوم القريب الذي سرنا فيه أنا وهي في نفس هذه الشوارع الكائنة بشطر منطقة حسن محمد الواقع وراء شارع فيصل الذي كان واحداً من ألعن الشوارع وأكرهها إلى قلبي، قبل أن يدخلني الله في تلك التجربة، فما بالك وقد دخلت فيها ولم أنج من الشرير الذي ساقتني إليه أم ميمي على غير رغبة مني ودون استعداد في ذلك اليوم الذي ألحت ذكراه على ذاكرتي وأنا أعاود السير في نفس الشوارع.

«– مد شويةياابن المدهولة.

– مش تفهميني هنروح فين بس يا أم ميمي.

– ماقلت لك هنعمل عمل خير، هو انت ماتعملش خير أبداً، طب رد حتى شوية من جمايلي عليك».

ولم يمنعني حينذاك من سؤال أم ميمي عن جمايلها المتوهمة، سوى رغبتي في توفير طاقتي لأخذ نَفَسي الذي ضاق بفعل ارتمائها بكامل جسدها عليّ، وأنا أسندها خلال محاولتنا تفادي كمية الحفر والخوازيق وأنهار المجاري التي تحفل بها تلك الشوارع المقبضة التي عبرناها كأقمأ ما يكون العبور.

توقفت أم ميمي أمام بيت من دورين انقبض قلبي بمجرد أن وقعت عيني عليه، لأسباب عرفتها فيما بعد. وفجأة دبّت في الست اللاهثة الزاكّة الكاحّة طول الطريق حيوية مفاجئة، جعلتها تنحني ملتقطة بعضاً من حجارة الشارع وزَلَطِه، وتبدأ بهمة في رشق شباك في الدور الثاني كان شيشه الخشبي مواربأ، وحين رأتني أنظر إليها بذهول مستغرباً ذلك النشاط المفاجئ، شخطت فيّ قائلة: «انت واقف تتفرج.. ما تمد إيدك معايا يا سي خرا.. أمال أنا جايباك معايا ليه.. فين فلوسي يا شراميط يا متناكين يا ولاد القحبة».

كان واضحاً أن الشتائم الأخيرة موجهة لرهط من الناس، سرعان ما اتضح أنهم فاتن ابنة ميمي وزوجها وأبناؤهما، وهو ما عرفته حين انبعث صوت نسائي من خلف الشيش الذي سرعان ما تم إغلاقه قائلاً: «عيب يا امه اللي بتعمليه ده»، ولأن أم ميمي كانت قد تخطت حدود العيب منذ فترة، فقد قررت أن تزيد من حجم الطوب الذي ترميه على الشباك، وتوسع من حدة بذاءاتها، معلنة براءتها من أن يكون لها ابنة تأكل حق أمها وترميها رمية الكلاب من أجل عيون زوجها الخول الذي لا يسوى في سوق الخولات خرية ناشفة، وهو تعبير كان يعني أن أم ميمي في حالة انفعالية عالية جعلتها تفقد قدرتها على توجيه شتائم متماسكة.

مع الأسف، لم يُتح لي أن أنفذ قراراً كان لا بد أن أدفع ثمن تأخيره، وهو أن أنسحب سريعاً من المشهد، دون أن أعير أم ميمي أدنى التفاتة، لأنها لن تنفعني ببصلة حين يتطور الموقف إلى ما لا تُحمد عقباه، خاصة أنها تمادت في تهديداتها لزوج ابنتها بأن يخرج لملاقاتها لو كان يحمل في موضع ذكورته زُبراً، وليس كُسّاً منتوفاً كما زعمت في تفصيلة لم يكن لها أي معنى.

لم أكن وقتها قد تعمقت في فهم فلسفة أم ميمي في الحياة، ولذلك تصورت أنها كانت جادة في دعواتها الحثيثة للمواجهة العاجلة مع زوج ابنتها «الواطي اللوّاطي» الذي أكل حقها وحرّض عليها ابنتها العاقة التي تبرأت منها وحسبنت عليها بدل المرة ألف مرة، ولم أكن أتخيل أنها كانت تؤدي «نِمرتها» بكل تلك الحرقة، لأنها كانت تتصور أن زوج ابنتها خارج البيت، لكنها ما إن رأته يندفع من باب البيت بالفانلة واللباس وفي وجهه غضب الله، حتى أصيبت بحالة خرس فوري، وهمّت بأن تجري، لكن ساقيها المجهدتين خذلتاها فكادت تهوي على أرض الشارع، لأسارع بالتقاطها، ويسارع ذلك الذي لم أكن أعرف هويته بعد، بالتقاط قفاي في يده اليمنى، والتقاط شعرها في يده اليسرى، ويبدأ في مخمضتنا بكل ما أوتي من قوة، وقد أوتي من القوة الكثير.

حين سمعت أم ميمي تقول له وقد بدأت في البكاء المتضرّع: «حرام عليك يا صبحي.. حد يعمل كده في حماته.. ده أنا اللي مربياك يا ابني»، عرفت أن من يسكعني على قفاي الآن هو زوج ابنة أم ميمي، وأن اسمه صبحي، وأن أم ميمي هي التي ربّته أحسن تربية، ولذلك لم يجد أدنى حرج في شدها من شعرها وضربها بالقلم وهو يلعن سنسفيلها بأقذع الألفاظ، ويتوعدنا بأنه سيعلقنا على مدخل البيت الذي سمّاه تفخيماً «عمارة»، ولم يكن من الممكن أن نراجعه في ذلك، خاصة أن باب البيت الحديدي بدا برغم قِصَرِه صالحاً نظرياً لتعليق أحدنا فيه، لكنه بالطبع لم يكن ليتحمل تعليقنا

نحن الاثنين، ويبدو أن صبحي أيضاً أدرك ذلك، لذلك اكتفى بمواصلة تلطيشنا ومخمضتنا، رافعاً رأسه إلى شباك منزله الذي انفتح شيشه على مصراعيه وأطلت منه عدة رؤوس لم أتبينها، رافعاً عقيرته بالصياح: «احدفي لي الحزام أبو توكة حديد يا فاتن»، وبدا من طبيعة أدائه البدني أن تخصيصه لنوعية الحزام لم تأتِ اعتباطاً، فسألت الله ألا تكون توكة حزامه ضخمة كتوكة حزام أبي، وبدأت أسترجع تكنيكاتي السابقة في إصدار تعليمات إلى مراكز الإحساس بالمخ لقطع الاتصال مع بقاع الجلد التي تنهال عليها توكة الحزام جلداً، في حين كان صوت بكاء أم ميمي يتعالى مختلطاً بتوسلات ممعنة في التذلل والمديح لصبحي «سيد الرجالة» الذي لا يقبل لحماته المذلة والهوان، وهو ما ضرب وتراً ما لدى صبحي الذي لم يعد يكتفي بالشتائم المجردة، بل أضاف إليها عبارات موضوعية مفعمة بالمنطق أذكر منها قوله: «أكتر حاجة تعكر مزاجي في الدنيا البلطجة.. ليكي فلوس هتاخديها بالأدب والذوق مش بتلقيح الجتت.. العافية ما تسلكش معايا يا ولية يا بنت اللبوة.. أنا اللي بدعت العافية.. وبعدين لما عيالي يلاقوا ستهم واقفة تردح لأمهم في الشارع.. يبقى منظرهم إيه قدام صحابهم.. ومراتي يبقى منظرها إيه قدام جيرانها القحابي».

قبل أن آخذ فرصة للتأمين على كلامه الحكيم وأثني على تفكيره في مشاعر أبنائه وزوجته وعلاقاتهم بجيرانهم، وهو ما لم تعمل له أم ميمي أدنى حساب، فوجئت به يخصني بسكعة جديدة على قفاي، ويخصني ببعض من شتائمه المنتقاة، لأنه فهم - وهو معذور في سوء قراءته للموقف– أنني بلطجي اصطحبته حماته لتهديد زوجته التي كان يفترض أن تكون بمفردها مع أبنائها، لولا أن أعادته إرادة الله فجأة إلى بيته ليذود عن زوجته ويعفق حماته والبلطجي الذي أحضرته متلبسين بالجرم المشهود، لأفاجأ في تلك اللحظة أن ضمير أم ميمي أو بعضاً منه قد استيقظ ليصحح لزوج ابنتها ظنه، ويخبره أنني الساكن الجديد الذي لم يكن يعرف أصلاً طبيعة المهمة التي أحضرته أم ميمي للمساعدة في أدائها.

أوقف ما قالته أم ميمي سعي صبحي المحموم لتلطيشي، ونظر إلي نظرة متمعنة يبدو أنه شعر بعدها من قراءة ملامحي المذهولة المهانة أنني أبعد ما أكون عن البلطجة التي تصورها، فخفّت وتيرة مرمطته لنا، لينزل صوت فاتن من أعلى المشهد كأنه نجدة من السماء تحملها ملائكة الرحمة مباشرة إلى قلب صبحي الذي ما زال ممسكاً برأسينا في يديه: «خلاص يا صبحي دي مهما كان أمي».

كان صبحي قد أصابه الإرهاق من فرط مخمضتنا، ولذلك جاءت استجابته لرجاء زوجته أسرع مما توقعت، لكنني لم أتوقع قط أن أجدنا بعد لحظات من مسح بلاط الشارع بنا، جالسين في صالة صبحي وفاتن نشرب الشاي، وكأن مرمطة لنا لم تكن، وما كنت أحسبني سأرى أبناء صبحي وفاتن الذين تم التشكيك في نسبهم قبل هنيهة، يجلسون ليتهشتكوا على حِجر جدتهم، ولا أن أرى الجميع وهم يذكرون بعضهم بحقائق كونية لا يصح إغفالها مثل أن الضفر لا يطلع من اللحم حتى لو كان قذراً، وأن مصارين البطن بتتخانق وبترتاح لما ترجّع، ولا أن أم ميمي ستلقي وصلة من النقد الذاتي تعترف فيها أنه لم يكن يصح أن تطلب فلوسها بهذه الطريقة، وأنها كان يجب أن تراعي أن الحالة مريّحة مع صبحي اليومين دول، ليقطع صبحي استرسالها شاخطاً: «وهو اللي ليكي ده فلوس أصلاً.. أنا مشكلتي مش في الفلوس وانتي عارفة.. أنا مشكلتي في المنظر الزبالة اللي يقلّ مننا كلنا.. ولا إيه يا أخينا»، وبالطبع لم يكن من محسوبكم «أخينا» إلا أن هز جسده كله موافقاً، لأشعر فجأة بألم شديد في قفاي الذي كان قد نَمّل من فرط ما تلقاه من سكع، وحين شعرت برغبة عارمة في هرشه، قال لي صبحي ناصحاً: «اوعى تهرشه عشان ما يورمش أكتر».

كان شريط ذكرياتي عن تلك الساعات الغبراء قد انتهى مع وصولي إلى بيت صبحي وفاتن، الذي لم أعتِّبه طبعاً منذ ذلك اليوم اللعين، ولولا أن نداء الضمير والخوف من المسؤولية دفعاني للعودة إليه لما عدت، وقد كان عليّ وأنا أصعد نحو دوره الثاني متفادياً درجات السلم المكسورة والقطط الجربانة وأكياس الزبالة، أن أفكر في صيغة لإبلاغ فاتن بخبر أمها، تختلف عن الصيغة التي وسوس لي بها الشيطان، لعلي أنتقم مما تعرضت له سابقاً من مهانة: «صباح الخير يا ست فاتن.. أمك ماتت ومتلقحة في قلب الشقة.. عقبال ما تتسلكي على جهنم انتي وجوزك ابن القحبة».

فهمت سر تزاحم القطط على السلم، حين فتحت فاتن باب الشقة في ملابس مكشوفة لا تتلاءم مع برودة الجو، وانبعثت من الباب رائحة سمك مقلي كانت فاتن تقوم بتحضيره ليطفحه صبحي كعادته كل جمعة، وقبل أن أبلغها الخبر بأكثر الصيغ التي توصلت إليها هدوءاً، كانت قد رقعت بالصوت وجرت لالتقاط عباءتها التي ارتدتها وهي تنزل على درجات السلم مولولة صارخة، دون أن أعرف كيف تأكدت أنني جئت أحمل خبر أمها اليقين، ولم آتِ مثلاً لإبلاغها بمرضها، أو برغبتها في استعادة فلوسها التي لم تعد منذ ذلك اليوم المشؤوم، بعكس صبحي الذي قال لي حين أبلغته بالخبر: «انت متأكد إنها ماتت؟»، فلم أدرِ هل ذلك تشكك من صحة الخبر، أم رجاء لي أن أكون متأكداً منه، ليلتقط هو الآخر جلابيته البيضاء ويرتديها على فانلته ولباسه، ثم يزعق في

أبنائه طالباً منهم أن «يطفوا على السمك» ويبتعدوا عن طاسة القليّة، ويدفعني على السلم لنلحق بزوجته التي كان صوت ولولتها يصلنا من الشارع.

كانت فاتن قد قررت أن تتمهل في خطاها، لتتحول صرخاتها ونحن نسير باتجاه بيت أمها، إلى إعلان متكرر عن الفاجعة، رأت أنه يجب أن يصل إلى جيرانها الذين سبق لهم أن رأوا أمها في ذلك الوضع المؤسف الذي حدث قبل أسابيع، مقررة أن تعيد كتابة تاريخ علاقتها بأمها بعبارات مما جرت عليه العادة في موقف كهذا، عبارات عاطفية كان يمكن بلعها مثل: «آه يا سندي يا ضهري يا امّه.. آه يا نور عينيا يا أمّه.. مين ليا بعدك يا غالية»، لكنها قررت أن تلحقها بعبارات أكثر تفصيلاً تتساءل فيها عمن الذي سيوقف الآن زوجها صبحي عند حده حين يجور عليها ويظلمها، ومن الذي سيمسح دمعتها حين يضيق بها الزمان وتبحث عمن تلجأ إليه ليشيل عنها الهم والغم، ومن الذي سيغرق أبناءها في حنان لم يعرفوا له مثيلاً؟

كان صبحي يسير إلى جواري غارقاً في صمت تام، دون أن يظهر على وجهه أدنى شعور بالامتعاض مما تقوله زوجته عنه في سياق نعيها الملحمي لأمها، بل ران على وجهه تعبير جامد ظننته لسذاجتي حزناً عميقاً، فقلت لنفسي إن تلك اللحظة المنحطة التي شهدت عليها من قبل، ربما كانت لحظة استثنائية في تاريخ تلك العائلة، وحين ذكّرتني نفسي أن أم ميمي يومها لم تكف في طريق عودتنا إلى البيت عن شتم صبحي ولعن فاتن، باذلة مجهوداً استثنائياً في التعلية على ما سبق أن وجهته لهما من شتائم قبل ذلك، وأنها انخرطت في بكاء حاد فور دخولنا إلى البيت، بعد أن صعبت عليها نفسها مما فعله بها صبحي أمام «شراميط شارعهم»، وأنه لم يحترم حتى الضيف الذي اصطحبته معها، وقد أخذت وقتها ثواني لأدرك أنها كانت تقصدني أنا، مع أننا لم نذهب ضيوفاً نبحث عن الاحترام، بل ذهبنا لتحديف الطوب وسب الدين لبنتها وزوجها، ثم ذكّرتني نفسي أيضاً بأن أم ميمي حلّفتني أنا وميمي مئة يمين ألا نجيء بسيرة دخولها المستشفى لفاتن وصبحي، لأنها تفضل الموت على أن ترى خلقة أيّ منهما في المستشفى، وهو ما لم يخطر على بالي أنه لم يكن تعبيراً بلاغياً، بل رغبة مخلصة استجاب لها القدر.

لكنني مع ذلك قلت لنفسي الأمّارة بالسوء إن تاريخ العائلات لا يمكن أن تلخصه فترة سيئة وحيدة، حتى لو كانت فترة الختام، وأن ما أراه الآن على وجه صبحي، ربما يكون ندماً على وصول الأمور إلى تلك الدرجة المنحطة التي جعلته يمد يده على أم شريكة حياته وجدة عياله، ومن يدري

ربما كان ما تقوله فاتن في بكائيتها أبعد ما يكون عن البلاغة المبالغة التي يقتضيها الموقف الحزين، ويكون له جذور تاريخية سبق أن حدثت في تاريخ علاقته بفاتن، ولعله الآن نادم على هذا أيضاً، ومن لم يعظه الموت فلا واعظ له، حتى وإن كان مسجل خطر مثل صبحي الذي سبق أن علمت من أم ميمي أن له صحيفة سوابق حافلة تتضاءل إلى جوارها سوابق شعراوي الزِناوي، لكنها قالت في لحظة إنصاف نادرة إن الفرق بينه وبين شعراوي، أنه تاب منذ أن أصبح أباً، أما شعراوي فقد كان وما زال وسيظل مثل «القحبة الكافرة لو تابت تعرّص وتسب الدين».

حين وصلنا إلى مشارف شارع خلف كازينو إيزيس وأنت داخل من ناحية شارع فيصل، حيث لا يقل الشارع قبحاً لكنه يزيد اتساعاً، قرر صبحي أن يثبت لي خطأ كل خير توسمته فيه، حين مال عليّ سائلاً بملامح جادة: «باقولك إيه يا له.. إوعى يكون الواد ميمي أخد حاجة من الشقة؟». وقبل أن آخذ وقتي في فهم مقصد صبحي من سؤاله المفاجئ، تابع شارحاً دون حتى أن يهتم بخفض صوته لكيلا يصل إلى مسامع زوجته الملتاعة: «أصل الواد ميمي ده أوسخ من كس أمه الله يرحمها.. مش بعيد تلاقيه أول ما لقاك خرجت من الشقة عشان تبلغنا باللي حصل.. راح مقلِّب دهب أمه.. بس ده بُعده.. إحنا كاتبين كل اللي حيلتها.. ولو نقص منه حلق هانيك شعب دين أمه.. ده في الآخر حق ربنا والحق ما يزعلش».

كانت حقارة ما قاله قد أفقدتني قدرتي على الإسراع بالنطق، لكي أقول له إنني لم آتِ لإبلاغه هو وزوجته بالخبر إلا لأنني لا أعرف طريق ميمي الذي يذهب إلى ورشته يوم الجمعة، لأن إجازته الأسبوعية كل أحد، وأن ميمي حتى وإن وصل به الانحطاط في لحظة سكر إلى أن يحاول اغتصاب أمه، قد تغير إلى حد كبير في الأيام الأخيرة لأمه التي أظنها ماتت وهي راضية عنه، في حين ماتت ساخطة عليه وعلى زوجته.

وقبل أن أقول شيئاً من ذلك، سمعت صوت صبحي وهو يشخر لفرج أكبر أبنائه الذي كان قد لحق بنا تاركاً إخوته في الشقة، ليقسم فرج بعد سكعة عاجلة على قفاه أنه «طفا النار على السمك ووضع طاسة الزيت في الفرن» لكيلا يدلقها أحد إخوته على نفسه، فسكعه أبوه قلم محبة هذه المرة، مصوباً نحوي نظرة فخر واعتزاز بابنه الذي أجاد التصرف في موقف صعب كهذا، والذي خطا خطوة واسعة في طريق الرجولة حين أصر على أن يصحب أباه وأمه في موقف حزين كهذا.

ما إن دخلنا الشقة حتى جرت فاتن نحو غرفة أمها، وما إن رأتها ممددة على سريرها حتى انتابتها حالة هستيرية، جعلتها تلقي بنفسها فوق جثمان أمها، ثم تأخذ في هزّها ومخمضتها بطريقة لم تبتعد كثيراً عما فعله بها صبحي من قبل، وهي ترجوها باكية أن تصحو من نومها، لتؤكد لها أنها لا يمكن أن تموت وتتركها، وأنها تمر فقط بنوبة إغماء عابرة، مع أن أمها لو كانت مغمى عليها، لفارقت الحياة رسمياً، بسبب تعرضها لتلك الكميات من اللطمات والزغدات والهزات، التي اشترك فيها فرج بعزم ما فيه، حتى خشيت أن يقرر هو وأمه عض أم ميمي للتأكد من مفارقتها الحياة.

في الوقت نفسه، اختار صبحي أن يثبت لي أنه لم يكن هازلاً فيما قاله لي، فقد كان أول ما حرص على فعله هو التأكد من وجود باقي «صيغة» حماته في درج تسريحتها، قبل أن يقوم بعملية جرد شاملة بيديه لا بعينيه لكل محتويات غرفتها، وهو ما جعلني أصاب بذعر حين فكرت في إمكانية امتداد عملية الجرد إلى باقي أرجاء الشقة، فخشيت على ما تبقى من مدخراتي، التي أودعتها خلف كتبي ومجلاتي، بعد أن لففتها بجوربين ثقيلين من الصوف يستحيل على أي فأر مهما بلغت حدة أسنانه أن يقرضهما، أو هكذا كنت أتمنى.

استغللت انشغال صبحي بتوزيع نشاطه بين تصنع الحزن على حماته، وتفقد ما يطمع فيه من ممتلكاتها، وتسللت إلى الغرفة في هدوء، وقمت بإخراج فلوسي من مخبئها سريعاً، وهرعت إلى الحمام مغلقاً بابه على نفسي، لأقوم بتقسيمها سريعاً على جيوبي وداخل جواربي، داعياً الله ألا يتهور صبحي فيقرر إخضاعي لتفتيش ذاتي، وهو ما لا أستبعد حدوثه لو اكتشف ضياع أي شيء من متعلقات حماته، أو حتى توهمه ذلك، وبدأت تتدافع إلى رأسي أفكار شيطانية تحضني على الدفاع عن نفسي عندها باستخدام سكينة المطبخ، قبل أن أتذكر أنها كانت سكينة «تِلمة» تصلح بالكاد لتقطيع الطماطم والخيار، لأسأل الله أن تعبر هذه الساعات المقندلة على خير، ولأبدأ في التفكير جدياً في زميل دراسة يكون أهلاً لثقة وضع تحويشة عمري لديه، لآخذ منها عند اللزوم ما أحتاجه، خاصة أن ما قاله صبحي يكشف أننا داخلون على أيام سوداء ستشهد منافسة جادة لكسر الأرقام القياسية للانحطاط التي سبق أن حققها أفراد هذه العائلة التي ابتلاني الله بمعاشرتها، ومن يدري ربما كان صبحي قد قام خلال وجودي في الحمام بتقليب بعض ما هو موجود في غرفة حماته، وهو ما سيكتشفه ميمي فور عودته، وحينها ستندلع بالتأكيد معركة خرائية سينوبني من طرطشاتها جانب كبير، وأنا قانع بذلك إن كانت الطرطشة خراءً فحسب، المهم ألا تكون طرطشة

دامية والعياذ بالله، ليتضح لي فيما بعد أنني لم أكن محقاً في اقتصار مخاوفي على صبحي وفاتن وميمي، لأن هول الصدمة أنساني ما هو أحقر وأضل، أنساني شعراوي الزِناوي.

شعراوي الزِناوي يضرب مجدداً

هذا درس مستفاد جديد تعلمته في ذلك اليوم العصيب الذي رحلت فيه أم ميمي: أحياناً يكون الموت نفسه أسهل بكثيبير من الدفن.

لن أكذب عليك ولن أتجمل، كنت أتمنى أن تُدفن أم ميمي في هدوء وسرعة، كما رحلت في هدوء وسرعة، لأستأنف إيقاع حياتي، وأتخلص من شحنات التوتر التي داهمتني على غير ميعاد، لكن كان ينبغي أن أتوقع أن الهدوء لم يكن ليليق قط بأم ميمي قرينة الصخب وابنة الدوشة، حتى وإن ماتت.

كان صبحي قد اتخذ فرماناً فور انتهائه من الاطمئنان على متعلقات حماته، أن دفنة أم ميمي ستتم فور وصول ميمي، الذي تم إبلاغه بالخبر هاتفياً لكي يحضر في أسرع وقت لإنجاز الدفنة، فإكرام الميت دفنه، خصوصاً ونحن كما قال «في يوم بركة» هو يوم الجمعة، وهي معلومة هامشية لم تفوتها فاتن التي قالت ساخطة: «بركة إيه.. ده يوم نحس ابن وسخة.. يعني أمي تموت فيه ويبقى يوم بركة إزاي»، لكن صبحي تجاهل ما قالته برغم منطقيته، وركز على أهمية الإسراع بدفن ست الكل قبل غروب شمس اليوم لأنه سمع من قبلُ شيخاً يحذر في خطبة الجمعة من تأخير دفن الميتين، لأن الشيطان يطرطر على الجثث التي يتأخر دفنها، بنفس الطريقة التي يطرطر بها في فم من يتثاءب ولا يسد فمه، وحين نظرت فاتن إليّ لا أدري لماذا بعد ما سمعت ما قاله زوجها، لم يكن أمامي بعد زغرة من صبحي إلا أن أهز رأسي مؤكداً على كلامه، ولأنني كنت أشد رغبة في دفن أم ميمي في أسرع وقت، فقد تطوعت بمساندة صبحي بالقول لفاتن إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن دفن موتى المسلمين يوم السبت لأنه «يوم إجازة اليهود»، ونهى عن دفنهم يوم الأحد لأنه «يوم إجازة المسيحيين»، لذلك سيكون من الأفضل بالفعل دفن أم ميمي «يوم إجازة

المسلمين»، فزاد صبحي النبي صلاة وتسليماً، وأرسل نحوي نظرة امتنان صامتة، لتعود فاتن إلى بكائها على أمها، ونعود إلى انتظارنا الثقيل لقدوم ميمي من ورشته.

قل لأي أحد في الدنيا إن أمه قد ماتت للتو، وستجد أن الإجابات تتراوح بين صمت مرير أو ذهول مطبق أو إغماء فوري أو عبارات محفوظة في الذاكرة الجمعية من نوعية: «لا إله إلا الله.. يا حبيبتي يا امّه.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. إزاي بس ده أنا سايبها كويسة.. كان نفسي أشوفها قبل ما تموت.. يا نهار اسود.. ليّ مين غيرك يا امّه»، ستسمع بعض هذه العبارات أو كلها من أي إنسان سوي أو شبه سوي، لكنك لن تجد في الدنيا أحداً مثل ميمي، يدخل من باب الشقة التي اكتظّت بالقادمين للعزاء والمجاملة، فينظر إلى الجميع باحتقار، ثم يتجاهل قدوم صبحي نحوه لاحتضانه، ويوجِّه نظره نحوي أنا بالتحديد ثم يسألني بتحفز: «إيه الخرا اللي أنا سمعته ده يا لَه؟»، وهو سؤال أدهشتني صياغته، ووتّرني أن أكون أنا بالذات المخاطب به، فلم أجد ما أنطق به سوى غمغمات غير مفهومة، لم تزد ميمي إلا جهامة وتصديغاً.

حين احتضنه صبحي قائلاً له: «البقية في حياتك يا ميمي.. الحاجّة تعيش انت»، قام ميمي بإبعاد صبحي عنه بجفاء وقال له بجلافة: «أنا أمي عمرها ما حجِّت ولا ركبت طيارة»، ليستفز ذلك النفي الغريب في توقيته سيدة عرفت أنها كانت من جارات أمه القدامى في الضاهر، فقررت أن تدافع عن الفقيدة قائلة: «وهي كانت تقدر واتأخرت يعني.. ده يا كبدي عليها كان نِفسها ومنى عينيها تزور الحبيب النبي وأهي راحت له»، معقبة مداخلتها بطبطبة على كتف ميمي، لكن ميمي أشاح بكتفه كأنه يهشها عنه، وعاد ليصوب نحوي نظرة غاضبة زادتني توتراً، ثم اتجه نحو باب غرفة أمه، وحين أطل منه ورأى جثمان أمه ممدداً على سريرها، وقد التصقت به أخته وأطفالها الذين أحضرهم الجيران ليلحقوا بأخيهم فرج، وقف متخشباً وكأنه يحاول فهم الموقف وتجميع حقيقته، ثم أطلق شخرة حادة طويلة متصلة لا تناسب جلال اللحظة، شخرة أسكتت كل المعددات والباكيات، وسيّدت في المكان صمتاً مطبقاً استمر للحظات قبل أن يقطعه صوت ميمي الذي عاد من جديد ليلتفت إليّ ويخصني دوناً عن كل الحاضرين بغضبه: «أنا مش سايبها لك الصبح كويسة يا سي خرا؟»، فلم أدرِ هل كان ما قاله اتهاماً لي بالتقصير، أم مجرد تعبير منحط عن الصدمة، أم تساؤلاً عن حقيقة ما جرى، فاكتفيت بهز رأسي وكتفيّ، وقبل أن أجد ما أقوله قرر صبحي أن يرد لي وقفتي الأخيرة معه، فقال لميمي متغاضباً: «الله.. في إيه يا ميمي.. أمك ماتت وده قضا ربنا.. هنعترض على إرادة ربنا؟ ربنا عايز كده يا أخي».

ربما كان صبحي يتصور أن استدعاءه المتكرر لذكر ربنا سيكون له أثر فعال على ميمي، مثلما أثرت التحذيرات النبوية المكذوبة على أخته التي لم تكن ترغب في الإسراع بدفن أمها، لأنها «ما لحقتش أشبع منها»، لكن ميمي رد على صبحي بشخرة أكثر حدة، ثم أخذ يصرخ في الجميع دون أن يختص أحداً: «أحّاااه.. يعني إيه ماتت.. إحنا هنتمنيك على بعض؟ تموت إزاي.. دي قايلة إنها مش هتموت إلا لما تجوّزني»، ولأن منطقه كان أصعب من أن يتجاوب معه أحد ولو بهزة رأس، فقد قابل ميمي صمت الجميع وهروبهم من نظراته بعدائية أشد، فمرق كَسَهْمٍ مسموم ليدفع أخته وعيالها اللابدين في حضن جثمان أمه، وأخذ ينهال على جثمان أمه زغداً وتلطيشاً وتقبيلاً ومرمغة ومخمضة وهو يصرخ فيها بهستيريا: «قومي يا ولية أحسن لك.. قومي يا امّه حرام عليكي.. قومي ما تخلينيش أتغابى عليكي.. قومي يالله ومشي النسوان بنت الوسخة دي من هنا قبل ما أرتكب جناية.. قومي يا امّه الله يبارك لك».

لم يجرؤ أحد من الواقفين بمن فيهم صبحي، على أن يتدخل لإيقاف ما يفعله ميمي أو حتى لتهدئته ولو بكلام مما يقال في مثل هذه الحالات الهستيرية، وحده فرج الصغير الذي جرؤ على أن يرفع عقيرته بالبكاء لأن يد خاله كانت قد أيقظته فزعاً من أحلى نومة وأطاحت به ليلبس في الحائط الملاصق للسرير، قبل أن يسكت فزعاً حين رأى ما يفعله خاله بجثمان جدته.

لو كانت أم ميمي تدعي الموت فعلاً، لكانت قد ماتت بجد من فرط ما تعرضت له من لكمات وزغدات وهزات ميمي، التي فاقت في وطأتها لكمات وزغدات وهزات أخته، والذي زاد وغطى أن ميمي قرر فجأة أن يرفع أمه عن السرير بكلتا يديه، كأنها ستستجيب لطلبه حين يضع قدميها على الأرض، لكن ثقل جسدها غلبه فأفلتت منه ليرتطم رأسها بحرف السرير بقوة جعلت صبحي يحاول التدخل لإبعاد ميمي عن أمه، فناوله ميمي بكفه سيفاً في ألواح صدره، فما كان من صبحي الذي باغته ألم الضربة إلا أن سب الدين لميمي ولأمه، وغادر الغرفة ثم الشقة كلها وهو يسب ويلعن، تاركاً الجميع لذهولهم من معاودة ميمي لمحاولته الفاشلة بإنهاض أمه عن سريرها، وهو ما جعل فاتن توجه لي نظرة يائسة تستحلفني أن أتدخل لإيقاف ما يحدث، وكأن أحداً مهما بلغت قوته أو حكمته يمكن أن يقوم بتهدئة ذلك الحيوان الهائج، الذي ربما لن يجدينا معه نفعاً إلا أن نعامله بوصفه طفلاً يحتاج إلى شرح لبديهيات الكون التي لم يأخذها بعد في المدرسة.

«بص يا ميمي يا حبيبي.. أمك ماتت.. ماتت ليه؟ عشان ربنا عايز كده.. عايز كده ليه.. مش عارف والله.. يمكن عشان هو اللي خلقها واختار إنها تعيش ومن حقه ياخدها عنده تاني.. وهو كان خلقها ليه؟ لا في دي عندك حق والله يا ميمي.. لا يا سيدي أستغفر الله العظيم.. ربنا خلق أمك عشان تعمّر الأرض وتخلّفك إنت وفاتن عشان تعبدوه وتعملوا الخير وتعمّروا الأرض وتملؤوها عدلاً بعد ما ملئت جوراً.. صحيح إن ده ما حصلش لأسباب كتيرة مش ده وقت مناقشتها.. بس يعني في الآخر دي إرادة ربنا ولازم كلنا نسلم ليها وندفن أمك ونشوف اللي ورانا في أم الحياة اللي اتحسبت علينا دي».

لكن من هو الدّكَر الذي لم تأتِ به ولّادة، الذي يمكن أن يذكِّر ميمي الآن بأي بديهيات من أي نوع وبأي أسلوب، فميمي لم يُخلق مصمماً لاستيعاب البديهيات، ولو كان كذلك لما سبق له أن حاول الاعتداء على أمه في لحظة مزلزلة كريهة، أغلب الظن أنها كانت السبب الرئيسي في عَيَاها الأخير ثم في موتها المفاجئ، حتى وإن بدا أنها قد تجاوزت تلك اللحظة، ومع ذلك لا يتذكر ميمي نفسه شيئاً عن هذه اللحظة، فكل ما يشغله الآن أن أمه أخلفت بوعدها وقررت أن تخلع من الدنيا قبل أن تزوِّجه، وهو ما يعني أن إدارة حوار منطقي مع فرج الغارق في الريالة والعُماص، سيكون أجدى من إدارة حوار منطقي مع ميمي الذي لا أمل لنا في توقفه عما يفعله بجثمان أمه، سوى الفرهدة التي ستدركه طال الوقت أم قصر.

لحسن الحظ، جاءت الفرهدة أسرع مما توقعت، فتوقف ميمي عن محاولته إنهاض أمه من رقدتها، ثم توقف عن هزّها وزغدها، وجثا إلى جوار سريرها باكياً، وقد تحولت تهديداته ولعناته إلى تهويمات أقرب إلى الهذيان، وبينما عاد جثمان أمه ليستقر على سريرها، تدلت يدها اليسرى خارج السرير بالقرب من رأس ميمي في تكوين بصري ينخلع له قلب الشيطان نفسه رهبة وأسى.

في هذا الوقت المرير الحرج، كان لا بد لشعراوي الزِناوي أن يظهر، فقد كانت اللحظة الفارقة تناديه، وقد لبى نداءها، ولولاه لظللنا جميعاً تحت رحمة مزاج ميمي، الذي لم يكن من المستبعد أن يعود ثانية إلى وصلة جديدة من مخمضة أمه ورجرجتها، بعد أن ينال قسطاً من الراحة، أو أن يقرر التمادي في رفضه لرحيلها، فيذهب إلى حيث يخبئ مخزونه الكحولي، ويقرر أن يعمي نفسه سُكراً على حزنها، وهات حينها من يستجري على إفاقته بحديث نبوي عن إكرام الميت أو عواقب دفنه يوم إجازة اليهود أو يوم إجازة المسيحيين.

لم أكن قد رأيت شعراوي من قبل، لكنني فور أن رأيته شعرت أنه هو، ليس فقط لأن الصورة التي رسمتها في خيالي خلال مسامراتي مع ميمي وأمه كانت تقارب ملامحه، بل لأن توقيت حضوره هو الذي أعلن بمنتهى الوضوح عن شخصيته.

هو شعراوي الزِناوي زوج المرحومة ولا ريب، ليس مهماً أن تسأل كيف علم بما حدث؟ ومن أين جاء؟ وكيف امتلك الجرأة على أن يضرب عرض الحائط بهيبة القضاء الذي أصدر ضده حكماً بعدم الاقتراب من أم ميمي مسافة أقل من خمسمئة متر؟ فقد سقط ذلك الحكم القضائي من تلقاء نفسه، بقوة الحكم الإلهي الذي صدر باستعادة أمانة أم ميمي، التي عُرضت على العشرات من رجال باب الشعرية والظاهر والسكاكيني، ولم يحملها إلا شعراوي، قبل أن يفرط فيها ويحرقها ببراد الشاي المغلي، إنه كان ظلوماً جهولاً.

تأكد حدسي، حين هب أغلب الموجودين في الشقة لتعزية شعراوي فور أن أطل من باب الشقة بطوله الفارع وخشبه العريض، كنت وقتها أقف على باب غرفة أم ميمي، أتخيل كافة السيناريوهات التي يمكن أن يفضي إليها انفلات أعصاب ميمي ولَسَعان عقله، وحين أفسحت لشعراوي الطريق، لكي يعبر إلى داخل الغرفة، رمقني بنظرات محققة مدققة كأنه يطابق ما لديه من معلومات عني، وهز رأسه محيياً، ومن ارتباكي لم أمد يدي نحوه مصافحاً، فتقدم ملقياً نظرة متفحصة على جثمان أم ميمي، وفاتن المنكفئة إلى جوارها تلطم على رأسها ثم على وجهها، وميمي المتشحتفة الهاذي أسفل سرير أمه، ثم أخذ خطوتين إضافيتين في عمق الغرفة، قبل أن يأتي صوته هادراً: «ما تسترجل بقى يا خول.. إيه الفضايح اللي انت عاملها دي.. خليت إيه للنسوان؟ قوم وكفاية عياط أحسن أديك باللي في رجلي».

كنت مخطئاً حين ظننت أن تلك العبارات الحاسمة ستسرع في إنهاء الموقف، لنتمكن من دفن أم ميمي قبل أن يداهمنا الليل، لكن ميمي الذي استدار ببطء نحو مصدر الصوت وتحقق من وجه صاحبه، بادر إلى إنهاء ما تصورته من هيبة للقادم الجديد، حين نَطَر نفسه من على السجادة المتسخة، وما إن وقف على حيله، حتى عاد إلى هز أمه بعصبية وهو يصرخ فيها كأنها تسمعه وتراه: «عاجبك كده.. أهو رجع تاني المتناك.. جاي يشمت فيكي يا امّه.. قومي اشخري له يا ست الكل.. عاجبك كده يا امّه.. شعراوي الزناوي جاي يسترجل علينا يا امّه».

إذن، هذا هو بالفعل شعراوي الذي لم يجد حتى ابنه حرجاً في وصفه بالزناوي وجهاً لوجه، لم تكن أم ميمي تبالغ حين قالت إنه كان «شعراوي اسم على مسمى»، فهاهو شعر رأسه الغزير الكثيف الأشيب مرجّلٌ بعناية تليق بحلاق، كان قد أرجعه إلى الخلف مستعيناً بـ«فازلين» فاقع الرائحة، أما شعر وجهه ولا أقول ذقنه، الذي لم يحظ بنفس العناية، فقد انطلق «هايشاً» من كل مسام وجهه، ليشكل مع عينيه الذئبيتين وأنفه البارز ملامح سحنة مثيرة للقلق والتوجس.

كانت كلمات ميمي المنفلتة قد وضعت هيبة أبيه على المحك، ليجيب على نظراتنا المتسائلة عن طبيعة رده بشكل عملي، حين سارع بخلع حذائه الأيمن، ليثبت به صدق وعده، منهالاً به على قفا ميمي بعزم ما فيه ومنفجراً بصوته الهادر: «يا ابن المتناكة لما أقولك بس تبسّ.. هو انت أول واحد أمه تموت.. ده أختك طلعت أرجل منك يا خول.. عمال تمخمض في الولية المسكينة ليه.. مش الميت ليه احترامه يا ابن القحبة»، ثم أتبع ما قاله باستغفار الله العظيم لأنه خرج عن شعوره، في حين أرسلت فاتن التي كانت قد بدأت في إرضاع أصغر أطفالها، نظرة امتنان لأبيها لأنه تدخل لإيقاف أخيها عند حده، وربما لأنه أقر بأنها أرجل منه، مع أنها كانت قد فعلت ما فعله ميمي من قبل، لكنها على الأقل لم تفعل ذلك في وجود الغُرب، ولم تلجأ للتمادي فيه كما فعل ميمي.

كان قفا ميمي قد احمرّ من فرط الضرب الذي انهال عليه من جزمة أبيه، لكنه برغم ذلك لم يكف عن مواصلة التقبيح في أبيه بأقذع الألفاظ، ولا عن هز أمه التي أعطت فرصة لأبيه الزِناوي لكي يشمت فيها، مقرراً أن يضيف إلى المشهد لمحات ضرورية من ماضي الأسرة الأليم، ليذكر بها من تنفعه الذكرى: «يالله يا امّه عشان شعراوي عايزنا نسيب الشقة ونقعد على المحطة على ما الشرموطة اللي جايبها تتناك.. فين الزبون يا شعراوي يا معرص.. وصل خلاص.. يالله يا امّه عشان نعرّص كلنا»، ثم استدار نحو أبيه وهو يصرخ فيه مخفياً وجهه بيديه لكيلا يطاله نعل جزمته: «ما تحرقها بالبراد عشان تصحى يا شعراوي.. ولا أقولك اجلدها بالحزام.. يالله صحيها قبل ما الزبون يزهق ويمشي يا معرص».

لم يكن صعباً أن ألاحظ غياب علامات الدهشة على كل من كانوا يحيطون بالمشهد وقتها سواي، فجميعهم من ذوي قربى أم ميمي بشكل أو بآخر، أي أنهم بالتأكيد رأوا مشهداً كهذا من قبل، وربما كان الفارق هذه المرة أن أم ميمي لن يتاح لها الاشتراك في الخناقة الدائرة، ولأن شعراوي كان

يدرك ذلك بالتأكيد، فقد خطف وسط انشغاله بتأديب ابنه نظرة إليّ، لعله أراد بها أن يتأكد من وقع ما يقوله ميمي عليّ، وهل أبدو مندهشاً مما أسمعه أم أنني أبدو كمن سمعه من قبل؟

لم يكن على وجهي وقتها إلا الألم، الألم الناتج عن حقارة الموقف، والألم الناتج عن تأثير زغدة عنيفة من ميمي خبطت ضلوع جنبي، حين ضعفت واستجبت لنداء فاتن بالتدخل لإبعاد أخيها عن أمه، وقبل كل ذلك وبعده الألم لأنني مضطر لأن أتحمل لحظات كهذه، كُتبت عليّ دون ذنب جنيته، سوى ضعفي الفاضح أمام الكاسيات العاريات المائلات المميلات كأسنان البُخت، ولذلك قررت الهروب مما يحيط بي إلى التساؤل عما كان سيحدث لي لو التزمت بتحذيرات أمي من عواقب المشي وراء الشيطان.

هل كان لا بد أن أطاوع شهوتي برؤية الأثداء العارية على شاشة سينمائية كبيرة؟ هل كان مصيري سيختلف لو صبرت وصابرت واحتسبت واكتفيت برؤيتها على شاشة صغيرة حين تأتي الفرصة؟ وإذا كان كل هذا قد حدث لي لأنني شاهدت فيلماً رخّصت الرقابة مشاهده العارية احتراماً لقوانين المهرجانات الدولية، فأي مصيبة كانت ستحط على نافوخي، لو كنت قد سلكت درب النجاسة الفعلية، وطاوعت أحد زملائي الذي عزمني على شقة دعارة عرفاناً لي بالجميل لأنه استفاد من ملخصاتي لمحاضرات «الجغرافيا السياسية»، ولا أدري حتى الآن هل رفضت عرضه لأنني خفت من فضيحة جديدة يمكن أن تسقط على رأسي من حيث لا أحتسب، أم لأنني خفت من أن يوافيني الموت وأنا في تلك الشقة التي استفاض زميلي في التأكيد على أمانها وجمال نسوانها، أم لأنني شممت في عرضه بأن يشيل الليلة كلها رائحة استعلاء جعلت كرامتي تنقح عليّ؟ وإذا كنت قد وجدت نفسي الآن في هذه الشقة الملعونة ومع هؤلاء الأوغاد الذين لا يراعون حرمة الموت، بسبب تلكما الحلمتين البولنديتين الورديتين المائلتين، فما الذي كان سيحدث لي من تحت رأس حلمتين سمراويين شربتا من ماء النيل ورويتا من طميه؟ هل كنت أنا الذي سأموت حينها بدلاً من أم ميمي لأقوم بتوريطها هي وميمي في دفني؟ وكيف كان سيكون رد فعل أمي بعد أن يأتيها خبري عبر ملاعين شقة الشباب الصالح، وبالتحديد عبر ذلك اللعين الذي أوصلني إلى شقة أم ميمي؟ بالتأكيد كانت أمي ستغضب حين تأتي لاستلام جثماني، فترى حقارة الشقة التي قلت لها كاذباً إنها أفضل وأنظف بكثير من شقة الشباب الصالح، وأخفيت عنها تفصيلة أني أسكن مع سيدة كبيرة وأمها الطاعنة في السن والمرض، تريحاً لدماغي من سيل أسئلة قد ينهمر عن هوية تلك السيدة التي قد ترى فيها أمي تهديداً لنقائي وطهري المفترضَين، وإذا فرضنا أني متّ الآن أو

الليلة أو في الليلة التالية، من سيوصل خبري إلى أهلي وقد انقطعت برحيل أم ميمي آخر صلة تربطني بعالم الشباب الصالح، وهل ينبغي أن أترك لميمي أو لأبيه أو لصبحي وسيلة للاتصال بأهلي حين تحدث أي طوارئ مفترضة؟ أم أن ذلك سيكون تصرفاً شديد الغباء؟ وهل أكتفي بإعطائهم رقم هاتف الشاب «الصالح» اللعين الذي أوصلني بأم ميمي، أم أتوقف عن التفكير في سيناريوهات موتي المقبلة، حتى ينتهي سيناريو الموت الآني الذي يجثم بالفعل على بعد خطوات مني؟

لم تكن تلك المرة الأولى التي ألتقي فيها بالموت عن قرب، لكنها كانت المرة الأولى التي يربكني فيها، ربما لأنني كنت أحسبني أكثر صلابة أو أكثر قدرة على أخذ مسافة عن الأحداث المحيطة بي، ربما لأن الموت كان في المرات السابقة التي التقيته فيها مرتبطاً بمعنى كبير يثير الرهبة والجلال، أو ربما لأنني وجدت نفسي هذه المرة مرتبطاً بتداعيات الموت، دون أن أكون مرتبطاً بضحيته عاطفياً أو إنسانياً، ولذلك هأنذا أقف منذ ساعات مرتدياً قناع الحزن والهم، مع أن كل ما أتمناه الآن أن أدخل إلى غرفتي التي هجرتها، وأرتمي على مرتبتي، حتى وإن شاركني فيها مئة فأر وألف برص، أو أن أغادر هذا المكان اللعين وأذهب إلى أقرب سينما من ذوات العرض المستمر للأفلام، لأهرب إلى ضجيجها الممتع من كل هذا الصخب المقبض للأرواح، وهل من حق أحد أن يلومني إن فعلت ذلك والمتوفاة إلى رحمة الله ليست من بقية أهلي؟

صدمني رحيل أم ميمي المفاجئ ولا شك، لكنني أكذب لو قلت إن صدمتي كانت مرتبطة بشخصها، قدر ارتباطها بالخوف على شخصي ووضعي ومستقبلي القريب، فلماذا أخاف إذن من أن يسيء أحد من أهلها فهم موقفي لو قررت أن أنسحب حتى ينفض هذا الجمع التعيس؟ فليسئ من شاء فهم موقفي أو ليعُدّه قلة احترام أو حتى عدم اهتمام؟ ألن يكون ذلك أفضل من أن أواصل الوقوف متكئاً على دولاب أم ميمي، مواجهاً رهبة الموت وعبث الأفكار ودناوة الدنيا وخُسر الإنسان وآلام ضلوع جنبي وعناء إمساك نفسي عن الذهاب إلى الحمام الذي لم يعد صالحاً للاستخدام منذ عمل فرج وأخوه الدنيئة على أرضيته القذرة.

حين قطعت حبل أفكاري المنزعجة المزعجة، وعدت لأعيش تفاصيل لحظتي الأشد إزعاجاً، لفت انتباهي أن شعراوي قد اختفى من المشهد، ربما لأنه أدرك فشل أي محاولة للسيطرة على ابنه، وأن أي محاولة جديدة لن تؤدي إلا إلى المزيد من إهدار هيبته، خاصة أن روح الشيطان التي

لبست ميمي يبدو أنها قد عزمت على ألا تخرج منه أبداً، فأخذ بعد اختفاء أبيه من المشهد يطبع سلسلة من القبلات على وجه أمه ويديها ورأسها وقدميها وهو يقول لجثمانها: «وشرفك يا امه هاخد لك حقك منه.. بس قومي وما تستعبطيش وأنا هافرّج لك عليه اللي يسوى واللي ما يسواش»، وحين التفت إلى المحيطين به في الغرفة، ربما ليحدد أيهم الذي يسوى وأيهم الذي ما يسواش، وقعت عيناه عليّ، فلمعتا بغضب لم أستغرب لماذا أفزعني، لأنه سرعان ما صرخ فيّ قائلاً: «حسابك معايا بعدين.. يعني أسيبها لك زي الفل أرجع ألاقيها مسخسخة.. استنى لما أفوّقها وأفوق لك يا كس أمك».

ماحسبته لقيته، هاهي ثورة الشك قد بدأت تندلع في صدر ميمي الذي لم يستطع أبوه أن يوقفه عند حده، فهل سأستطيع أنا الذي لا حول لي ولا قوة أن أسدّ معه؟ لذلك أخذت أعد نفسي لمواجهة قريبة يمكن أن تحدث في أي لحظة مع ميمي الذي سيجد في شخصي الزبون الأمثل للتأكيد على كونه «دَكَراً» لا ريب فيه، بعد أن انسحب أبوه فجأة من المشهد، ولم أكن أتخيل وقتها أن شعراوي الدون دوناً عن غيره سيكون منقذي من مواجهة غير متكافئة لم أكن أتمناها، إذ فوجئت به أنا وكل من حولي، وقد اندفع إلى الغرفة ممسكاً بمطواة قرن غزال لا أدري هل ذهب ليحضرها من مكان ما، أم أنه خرج ليفكر في قرار استخدامها قبل تنفيذه، لست متأكداً من ذلك، لكن المؤكد بالنسبة لي أنه لم يشهر مطواته في فضاء الغرفة للتهويش، بل لوّح بها مندفعاً باتجاه ابنه، وقد لاح في عينيه غدر متجرد من كل شوائب الأبوة، وكانت تلك المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى أن في عينيه ماءً ليس أبيض اللون كماء أعيننا، بل ماءٌ اقتربت به طبقات السنين وليالي السهر وأيام القوادة من اللون البني.

في ثوانٍ، كانت المطواة مستقرة على رقبة ميمي الذي لم ينبس منذ لحظة ملامسة حزها لرقبته ببنت شفة، ليثبت أنه لم يلسع كما حسبت، بل كان يسوق الهبل على الشيطنة، أو ربما كان القدر الذي أصيب به من الجنون، أقل من أن ينسيه حقائق الدنيا التي يعرفها عن أبيه، وعن مطواته التي وجدها مغروزة في عنقه، والتي كان تحريك شعراوي لها في الهواء خلال حديثه، قبل أن يعيدها إلى رقبة ابنه مجدداً، قد رسم على وجه ميمي أمارات ذعر لم أرها عليه من قبل، وبدا لي أنه ينصت بكل جوارحه إلى ما يقوله أبوه، الذي أثبت أنه يستحق سيرته التي سبقته، وأنه قادر مهما فعلت به تصاريف السنين أن يضرب مجدداً.

«يعني لازم أرفع عليك مطوة يا بن اللبوة عشان تُفضُّك من أم الفيلم الهندي اللي انت قارفنا بيه ده.. لما انت زعلان أوي على روح أمك اللي طلعت.. جيت لي ليه من يومين وقلت لي دي ولية واطية وبتموت على القرش إمتى ربنا ياخدها بقى ويريحنا منها.. لما انت يا متناك مش طايقني كده سحبت مني تلاتين جنيه ليه أول امبارح.. يعني أنا قلت هتعمل الشويتين بتوعك وتفضها سيرة عشان نشوف اللي ورانا قبل ما الليل يهجم علينا.. إنت ناسي إن ورانا غُسل وصلاة ودفن وشغلانة سودا على دماغ أمك الله يرحمها.. بص بقى أنا هانزل المطوة دلوقتي عشان تنجرّ تمسح برابيرك وتجري مع صبحي تستلقط لنا عربية إسعاف تشيل أمك على المستشفى نطلع لها تأرير طبي وندفنها في ليلتك اللي مش فايتة دلوقتي.. وقسماً بالله لو سمعت لك نَفَس لاكون دافنك جنبها الليلة دي».

ميمي الذي كنت أظن أني أعرفه، كان سيستغل فرصة ابتعاد المطواة عن رقبته لمزيد من الزعبرة والهرتلة، ولو حتى بصوت أخفض حدة وألفاظ أكثر انتقاءً، لكن ميمي الذي رأيته بعد ما جرى كان خلقاً آخر، فلم تصدر عنه كلمة، بل إنه لم ينظر حتى إلى أمه، ولو ليشهدها على أنه لم يسكت إلا مجبراً، وخرج من الغرفة دافناً وجهه في الأرض، في حين أكمل شعراوي دخلته السينمائية التي تأخرت قليلاً، حين قام بالتلويح بالمطواة في الفضاء للحظات، قبل أن يغمدها ويعيدها إلى جيب بنطلونه، في حين كنت أصوّب لها نظرات امتنان عميقة، فلولاها لما دُفنت أم ميمي في ذلك اليوم الأغبر.

لم تستقر المطواة في جيب شعراوي طويلاً، فقد عاد لاستخدامها أكثر من مرة لكبح جماح ميمي، في عدد من محطات ذلك المساء الذي لم يكن سيعدّي قط، إلا بفضل شعراوي الزِناوي الذي لم أكن أعلم أنه كان يستعجل انتقال أم ميمي إلى مثواها الأخير ليبدأ في فرض واقع جديد على شقتها يكون سيده الأوحد.

كانت الحالة الشيطانية التي لم أعد متأكداً هل كانت أصيلة أم مصطنعة، قد عادت لتتلبس ميمي إلى جوار مشرحة المستشفى، حين بدأ يطيح ضرباً في كل من حوله، بعد أن عرف أن شعراوي على وشك الدخول إلى المشرحة للاشتراك في غسل أمه، وعلت صرخاته الهستيرية: «لو شعراوي دخل عليها هاولّع لكو في روحي وفي كسم المستشفى دي.. ابعدوا عني يا ولاد المتناكة.. هاقتله وأكوّمه جنبها واللي يحصل يحصل».

لم تفقد مطواة شعراوي قدرتها العجيبة على تهدئة حدة ميمي، لكن ميمي وهذه نقطة تحسب له، لم يتخل برغمها عن رفضه القاطع لدخول أبيه إلى المشرحة، طالباً من أبيه وهو يبكي بحرقة أن يذبحه ليريحه من عذابه، لأنه لم يكن رجلاً بما يكفي لتحقيق وصية أمه التي حذرته من أن يسمح لشعراوي بالاشتراك في غسلها حين تتكل على الله، ليتدخل أولاد الحلال متطوعين بالبحث عن حل وسط، كنت أنا ضحيته ببركة سي خرا عم سيد البقال الذي كان يحب دور لعب كبير المنطقة ولذلك اقترح كحل وسط، أن أقوم أنا وصبحي بتغسيل أم ميمي، وما إن سمع ميمي اقتراحه حتى عاد للصياح من جديد: «دخلوا الواد ده آه بس أبويا لأ.. أنا موافق عالواد ده.. أمي كانت بتحبه»، وقبل أن يستمر أثر كلمته الطيبة للحظات، عاد إلى الوساخة من جديد حين قال لي محذراً: «بس خليك حسيس يا كس أمك وما تبحلقش في أمي وانت بتغسِّلها.. دي عمرها ما اتكشفت على راجل»، دون أن يراعي أنني كنت في كرب لا يقل عن كربه، لكنني لم أكن أمتلك مثله رفاهية التعبير عن مشاعري، ولم أكن أمتلك أيضاً رفض تلك التدبيسة اللعينة التي وضعتني في تجربة لم أكن أتصور أنني سأعيشها مع أقرب الناس إليّ، فإذا بي أعيشها مع سيدة كنت أظن أن آخر فواجعي معها هي رؤيتها ميتة، وهأنذا على وشك أن أراها ميتة وعارية.

ولكي يتوقف ميمي عن التفوه بالمزيد من التفاهات المنحطة، قررت أن أقول مطمئناً له إن أمه هي أمي أيضاً، وإنني سأفعل أي شيء من أجل إكرامها بدفنها قبل أن يدركنا المساء الذي دنت ساعاته، ليتأثر بكلامي ويهز رأسه امتناناً لي، ويبدأ الممسكون به في إقناع شعراوي برفع المطواة عنه منعاً للفضائح واحتراماً لروح المرحومة، ليطاوعهم شعراوي ويغمد مطواته من جديد، ويقترب مني فجأة ليميل عليّ هامساً بعبارات لم أدرك وسط توتري ولهوجتي أنها كاشفة عن معدن تلك الشخصية، التي لم أكن قد عرفت بعد إلى أي حد سأعاني من دخولها في حياتي:

«أمك مين بس يا عم انت.. ما تتخنهاش أوي كده.. قالك ما تبحلقش قول له حاضر من عينيا وخلاص.. إنما مش لدرجة أمك يعني.. إلا لو ترضاها على أمك، عموماً خش يا سيدي.. الله يعينك عاللي هتشوفه».

كانت عبارات كريهة بالتأكيد، لكنها مع الأسف الشديد كانت صادقة، فقد دخلت واقتربت وشفت، وليتني ما دخلت ولا اقتربت ولا شُفت.

طرفٌ من سردية شعراوي الزِناوي

دخلت إلى مشرحة المستشفى أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، حاملاً صفة ليست لي، كعضو في عائلة أم ميمي تمت تزكيته بالإجماع لكي يساهم في غسيلها قبل زفّها إلى مثواها الأخير، لكن رجل المشرحة الذي كان ينبغي أن أتوقع انحطاطه، لأنه كان يعرف شعراوي جيداً كما بدا من لقائهما قبل دخولي، لم يترك فرصة لي ولصبحي شريكي في الغسيل المنتظر، كي نأخذ الفسحة الكافية من الوقت، ونتعايش مع الجو النفسي المقبض الذي يسود المكان، ونسيطر على انفعالاتنا المتهيبة مما سنراه ونقوم به، زاعقاً فينا بتطجين لا يليق بجو المشرحة الذي كنت أفترض فيه الوقار والهدوء: «انتو داخلين تتمرقعوا.. ماتخلص إنت وهوّ.. ورايا تلات جِتت مستنيين يتغسلوا.. أنا مش فاضي لكو»، ولم أكن محتاجاً إلى ما هو أكثر من ذلك، لكي أذكر نفسي بضِعة وهوان هذه الدنيا التي تحولت فيها أم ميمي التي كانت ملء السمع والبصر إلى مجرد «حتّة».

«هذه إذن أم ميمي كما خلقها الله»، هكذا قلت لنفسي المذهولة، فور أن وقع بصري عليها شاخصة إلى سقف المشرحة، مُفرَغة من أعز مايملك الإنسان: صخبه وأنفاسه. قاومتُ رغبتي في القيء فور أن رأيت آثار الحروق التي ملأت فخذها وجزءاً من بطنها، قبل أن يتضح بعد قليل أن شعراوي ترك على ظهرها المزيد من بصماته الكريهة ممثلة في آثار جَلدٍ لا تدري هل كان بحزامه أم بخرطوم الغسالة أم بسلك جهاز كهربائي ما، أم بذلك كله؟

لم يكن ينقصني في لحظات بائسة كهذه أن تعلو من الخارج صرخات ميمي، حتى إنها غطت على «صويط» أخته فاتن، متبوعة بالمزيد من الهلفطة عن أمه التي لم يكن يحب أن يراها غريب مثلي «سلبوتة»، دون أن يفهم أن رؤية ديمي مور نفسها عارية في المشرحة، لن يكون مغرياً لشخص سليم غير مبتلى بالنيكروفيليا التي لم أكن قد سمعت عنها أصلاً وقتها، وأن صبحي الذي كان يفترض أن يكون أكثرنا قوة وتماسكاً فقد وعيه فور رؤيته لحماته عارية على بلاط المغسلة، لتفيقه

لطمات متتابعة على وجهه من عامل المشرحة الكريه، وبالطبع لم يكن سيساعد ميمي على الهدوء، أن يعرف أن هذه لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها أم ميمي «سلبوتة»، لكن الرؤية الأولى كانت خاطفة إلى درجة لم يتسنّ لي فيها أن أرى أي تفاصيل من التي أفزعني أن أراها في المرة الثانية والأخيرة.

لم يكن ذلك باختياري وقتها، مثلما لم يكن ذلك الآن باختياري، فكيف كنت سأتخيل وأنا الذي لم أكن قد أكملت بضعة أيام من السكن في الشقة، أن سيدة تجاوزت الستين من عمرها، تصحو في عز الفجر الزمهرير لكي تأخذ دشاً ساقعاً، دون أن تغلق باب الحمام خلفها، لأنها كما قالت فيما بعد لم تكن قد اعتادت على عودة الأغراب لمشاركتها في الشقة، كانت تقول ذلك على سبيل الاعتذار لأن الكوز الذي أجادت تنشينه على وجهي ترك في وجهي أثراً خفيفاً لحسن الحظ.

«مش تخبط الأول يا حيوان.. فاكر نفسك داخل الزريبة في بَلَدكو»، هكذا قالت لي أم ميمي وهي تداري سوأتها بيد وترميني بالكوز بيد، ولم تكن العلاقات بيننا قد توثقت وقتها لأخبرها أنني قادم من الإسكندرية، حيث لا زريبة أدخلها دون استئذان، ولا لكي تخبرني عن أسرار طقسها اليومي الغريب الذي أصبح واجباً عليّ أن أراعيه كل صباح، لكن كان لا بد لي من أن أوجه لها سؤالاً تقنياً عن كيفية تحملها للماء البارد في عز الشتاء الزمهرير، وهو سؤال فرضته رغبتي في المعرفة التي تلازم الحمقى وصغار السن.

«مية إيه اللي أسخنها يا ابني.. هو أنا خِرعة زيك.. أنا إن ماكنتش أطس جسمي بالمية الرصاص دي على غيار الريق ماأعرفش أفوق باقي اليوم».

كان لدي قدر من الحكمة منعني من سؤالها عما الذي يتوجب عليها أن تفوق من أجله أساساً، لكنه لم يكن قدراً كافياً لمنعي من سؤالها عن سر استحمامها بالكوز والطشت، وقد علّم الله الإنسان ما لم يعلم وألهمه اختراع الدش، الذي كان ربما الكمالية الوحيدة المتاحة في شقة أم ميمي، لتقاطعني قبل أن أحكي لها عن تجاربي مع طشت المياه المغلية في شقة جدتي: «دُشّ مين يا أبو دُشّ.. وأجيب منين فلوس المية لما أقعد فاتحة الدش عمّال على بطّال.. عايز تطوّل وانت تستحمى.. إملا الطشت زي مانت عايز.. إنشا الله تملاه تسع مرات.. إنما تعيش لي في دور ميرفت أمين وتقعد تتعولق تحت الدش وأنا اللي أكُعّ فلوس المية وأنزح في المية لما البلاعة تتسدّ.. هنزعل من بعضينا وربنا ما يوريك زعلي».

أخرجتني طرطشة الماء على جسد أم ميمي المتيبس من ذكرياتي مع أم ميمي، لتعيدني إلى اللحظة البائسة التي أعيشها الآن، فأقول لنفسي إن الماء الساقع كان على ما يبدو قدراً لازماً على أم ميمي، في حياتها ينهمر عليها من كوز تملأه كل صباح من طشت أوشك على أن يهترئ، والآن في مماتها ينصبُّ من كوز يمسك به رجل يتعامل معها بوصفها «جِثّة»، يملؤه من جردل نحاسي صدئ، ويصب بيده اليمنى الماء على جسدها المنطفئ، بينما يده اليسرى تدعك بمنتهى الموات مواضع نزول الماء.

كنت كلما هممت بغض البصر عما أرى، يفلت مني البصر ليسرح في تفاصيل ما أُجبر على أن يشهده، قبل أن يرتد إليّ وهو حسير كسير. لطفك يا الله. ما الذي يفعله الموت بالجسد البشري؟ هذا إذن تجسيد تعبير (جثة هامدة) الذي نقوله دون أن ندرك قسوته وكآبته؟ أذكر كيف أثارت سخريتي صورة الجسد «المِفشوِل» التي رأيتها خطفاً في ذلك اليوم، وأرى الآن كيف تقودني نفس التفاصيل إلى كآبة لا أستطيع لها دفعاً، ولما كان من المتأخر أن أدعو الله ألا يدخلني تجربة كهذه، لأنني دخلتها وانقضى الأمر، فقد دعوته أن يخرجني منها سريعاً، لكنه لم يستجب لدعائي.

«أجيب لك كرسي عشان تتفرج برواق ياكابتن؟»، لولا الشخرة التي أعقبت عرضه لظننت رجل المشرحة يتكلم جاداً ولشكرته على لطفه، لكني ارتبكت حين تدافعت صيحاته الغاضبة: «انت واقف تتفرج عليا يا أخينا.. ما تنجز عشان نخلّص خرجة قريبتك دي وأشوف اللي ورايا.. إيه ياخويا العيلة اللي ما يعلم بيها إلا ربنا دي.. مش كفاية الخول اللي عمال يجعّر بره.. عايزين نِخلَص.. هو مافيش حد غيركو ورانا ولا إيه».

أين ذهب الملعون صبحي؟ سؤال غبي كان ينبغي أن أتوقع إجابته قبل أن أسأله، فوقوفه المريب بجوار ملابس أم ميمي التي ألقيت في ركن من غرفة الغُسل، كان كافياً للإجابة. كان الوِسِخ أغلب الظن يستهدف سلسلة أم ميمي الذهبية، التي لم يتسنّ له تعليقها في الشقة وسط زحمة المعزين، ولعلها انتقلت الآن إلى جيبه قادمة من جيب جلابية أم ميمي حيث وضعها المغسِّل بعد نزعها من جثمان أم ميمي، على أمل أن تنتقل بعد حين إلى رقبة فاتن التي «سورَقِت» حين طلبوا منها في البدء أن تدخل للاشتراك في غسل جثمان والدتها، لكنها قبل دخول صبحي إلى الغرفة مالت عليه مغمغمة بما يمكن أن أتوقع مضمونه الآن.

لكن صبحي أذهلني حين اتضح أنه لم يكتف باستهداف سلسلة حماته، بل امتد طموحه إلى ما هو أبعد، فحين ذهبت للبحث عنه لكي يساعدني في تهدئة رجل المشرحة الغاضب، وجدته «يتسحّب» نحو الغرفة التي توجد بها الثلاجة التي تستقر بها «الجِتت» الثلاثة التي تنتظر دورها في الغسيل، ولأنني كنت قد عرفت صبحي حق المعرفة، فلم يكن لي أن أفترض أنه ذاهب مثلاً لكي يقرأ الفاتحة على الراحلين الثلاثة، أو يتأمل فيما صنعه الموت بجثامينهم، لذلك قررت تطنيشه لكي لا ينالني نصيب من غدره، تاركاً الراحلين أو الراحلات لنصيبيهم، لكن الله كان لطيفاً بهم، ولذلك كتب لهم السلامة من يد صبحي الذي عاجله صوت رجل المشرحة الزاعق: «انت بتتمشى في المشرحة وسايبنا يا عم انت.. غُسلة خرا إيه اللي مش فايتة دي يا جدعان.. ما تيجي تقلب معايا حماتك عشان نخلص.. وانت يا أخينا ادعك رجلين المرحومة عشان نخلص.. أنا مش فاضي لك».

وقفت متسمراً أمام جسد ميمي المتخشب، وأنا أحمل كوزي وذهولي من ذلك الطلب المحدد الذي لم أكن أتوقعه، فقد ظننت أن عملي سيقتصر على رش الماء على جسدها، بعد أن يقوم رجل المشرحة بفركه بالصابونة، أو بإحضار الصابونة له حين تقع على الأرض، محاولاً منع نظري طيلة الوقت من الوقوع على جسد أم ميمي، فإذا به يدهمني بهذا الطلب الذي كان سيضيف هماً جديداً إلى روحي المثقلة بعناء ما رأته، وهو طلب دونه خرط القتاد، فكيف أترك يدي لمهمة كهذه، ثم أطلب منها في مستقبل أيامها أن تسعفني ذات لمسة حنان أو تحسيسة شهوة أو قبضة رد اعتبار أو حتى ضربة عشرة؟ كيف أُسكِن يدي التي ستكون محل أكل عيشي هماً أبدياً كهذا؟ لكن كيف سيتفهم رجل المشرحة الغليظ حين أطلب منه أن يشيل من دماغه أي ملامسة لجسد الراحلة؟ وما الذي سيحدث لو قلت له إنني لن أستطيع ملامسة جسدها الطاهر بيدي النجسة؟ ألن يزداد فيّ شخطاً ونطراً لأنني كنت قد قلت له في البداية إنني طاهر ومتطّاهر ومسلم وموحد بالله، ومع ذلك فقد أجبرني على الوضوء بخرطوم الغُسل، ألن يتهور ويضربني بالخرطوم لو تحججت فجأة بحكاية النجاسة؟ ولماذا لا أجرب الصدق الذي يؤكدون أنه «منجاة» وأقول له إن ما أنا فيه الآن يفوق احتمالي بالفعل، ولست مستعداً لأن أضيف إليه المزيد؟

من قال إن الأفلام العربية ليست حافلة بحلول جذرية للأزمات التي لا يسعفنا فيها الفكر سريعاً؟ وهي حلول لم تعد مرتبطة بفيلم بعينه، بل تجاوزت ذلك لتكون طقساً اجتماعياً منجداً عند اللزوم، ولذلك لم أجد ما هو أفضل من ذلك الحل السينمائي الذي طبقه صبحي قبل قليل واستعان به لكي يهرب من أداء واجبه، ويبدأ في تقليب سلسلة حماته، فأخذت فجأة أتصنع الدوار كأني بطلة مايصة

في فيلم هابط، قبل أن أهوي من طولي إلى قاع المشرحة، الذي كان قاعاً يليق فعلاً بمشرحة، ومع ذلك لم أكن مخطئاً حين اخترت ذلك السقوط، فقد كان من السهل أن أدرأ عن جسدي وملابسي أدران مياه الغسل المتبقية من غسيل ما لا يعلم إلا الله عدده من «الجِتت»، بالإضافة إلى سوائل متعددة معلومة النوع ومجهولة المصدر، لكن لم يكن من السهل قط أن أدرأ عن روحي ما سيعلق بها للأبد من أدران تجربة دعك كعوب أم ميمي وباطن ركبتها.

كان من السهل عليّ أن أغلق عينيّ وأنا أتصنع الإغماء، وأن أغلق فمي لكيلا يدخله شيء من سوائل المشرحة التي تكلس بعضها فأصبح منذراً بخطر أكبر، لكني لم أنجح في إغلاق فتحتي أنفي اللتين انبعث إليهما روائح كريهة كانت من الثقل بمكان، بحيث لم تقو على الصعود إلى الأعلى حيث كنت أقف، في حين امتلأت أذنيّ بصرخات رجل المشرحة: «ما قلنا من الأول هاتوا لنا رجالة تغسِّل.. مش عيال متخرّمة زي القلل.. طلع يا ابني الخِرِع اللي وقع ده بره.. وشوف لنا حد يخلص معانا عشان نكفِّن ونشوف اللي ورانا في كسم يومنا الأغبر».

لم أكن محتاجاً لانتظار صبحي حتى يحتج بعدم قدرته على حملي خارج المشرحة، فما إن مد يده نحوي متظاهراً بالرغبة في إيقاظي من الإغماء، حتى كنت قد نهضت من رقدتي رامياً نفسي عليه وأنا أجره معي إلى خارج المشرحة، لأستنشق هواء المستشفى العطن كأنه نسيم عليل، متشاهداً على روحي ومقسماً بالله العلي العظيم ألا أدخل هذه التجربة ثانية ما دمت حياً، وأن أوصي إن كُتِب لي أن أكتب وصية يوماً ما ألا يشهد غُسلي إلا من أمقته، لكي يحمل عذاب ما سيراه سنين عدداً.

لم يكن ينقصني في لحظات كهذه، أن يقترب مني شعراوي الذي عربدت في وجهه ابتسامة شامتة لم يتكلف عناء كتمها، ليقول لي عبارة مركزة أعادت تذكيري بكل ما كان منسوباً إليه من خسة ودناءة: «قلت لك مش هتنبسط». لم أكلف نفسي عناء الرد عليه ولو بنظرة غاضبة، واندفعت هارباً من طرقات المستشفى التي كادت تطبق على صدري، تاركاً خلفي فقراء «متلقّحين بالحيا» على نقالات مهترئة، وأهالي يلعنون العيشة واللي عايشينها، وأطباء وممرضين يتعاملون مع الأحياء تماماً كما يتعامل رجل المشرحة مع الموتى. «جِتت»، الكل هنا «جِتت» بشكل لم أعد أحتمل مواجهته، ولذلك كان لا بد أن أنفد بجلدي، وأشتري لنفسي دقائق، قبل أن يخرج نعش أم ميمي، فأعود مطالباً بالاندماج في الجمع الحزين الذي أصبحت محسوباً عليه رغم أنفي.

لكن شعراوي اللعين استكثر عليّ تلك الدقائق القليلة التي كنت محتاجاً لأن أختلي فيها بنفسي، لأجده فجأة إلى جواري أمام المستشفى، وقد أخرج سيجارة من علبته ومدها نحوي مصحوبة بابتسامة ثعبان أقرع كالذي ينتظر أم ميمي في طربتها الآن، لأنها اختارت زوجاً كهذا، لتفسر لي نظراته الخبيثة لماذا قرر أن يترك الجميع ويأتي إليّ أنا بالذات، متعجلاً بذلك إعلان الحقيقة التي كنت أهرب منها مرتاعاً كلما أُلقيَت في روعي.

«عوِّد نفسك على سحنتي منذ الآن وصاعداً، فأنا بديل أم ميمي في حياتك البائسة، وعليك أن تتأقلم مع هذه الحقيقة مهما كنت كارهاً لها»، لم يقل لي شعراوي ذلك بلسانه حتى تلك اللحظة، لكن كل شيء فيه كان يقوله بعزم ما فيه، بدءاً من نظراته اللزجة التي تتفحصني كأني عروسة على وشك دخول بيت العَدَل، ومروراً بوقفته المتباسطة إلى جواري كأننا رفاق سلاح، وختاماً بطبطبته على كتفي وهو ينهي صمته بعبارات ظاهرها الرحمة وباطنها من خلفها العذاب: «والنبي إنت صعبان عليا يا ابني.. مالك انت ومال الهم الأزلي.. ما اللي يموت يموت ويروح لحاله.. مش وراك دراسة وكلية ومسؤوليات.. يدبّسوك ليه في الدفنة دي.. ما كل اللي بيموت بيتدفن في الآخر.. حتى لا مؤاخذة الكلب الجربان اللي بتخبطه عربية.. بتيجي عربية البلدية وبتشيله.. مش فاهم ليه عاملين هُلّيلة وزيطة.. تقولشي فاتن حمامة ماتت يا خيّ.. بس يا الله في الآخر أهي ماتت وما يجوزش عليها حتى الرحمة».

واصل شعراوي كَبّ كلامه الشامت المتقيّح في أذنيّ، وظللت أستمع إليه صامتاً، دون حتى أن أنظر إليه شزراً أو قرفاً، ليس عن جُبن أو قلق، بل عن إدراك بعدم جدوى كل ذلك، فالموقف الذي يجب أن يشغلني الآن، ليس موقف الرفض لهذه الكراهية المقيتة التي تملأ قلب شعراوي تجاه طليقته المتنيّحة، فهي في نهاية المطاف ليست من بقية أهلي، ولها على رأي وديع الصافي «رب اسمه كريم ساعة المحن ستار»، لكن إن جئت للحق، فقد كان في كلام شعراوي عن تدبيسي في ذلك الموقف كثير من الوجاهة، ولذلك ذكرت نفسي بوجوب أن أنشغل من الآن وصاعداً بحياتي ومستقبلي وأيامي القادمة التي سيكون عليّ فيها أن أحدد طبيعة علاقتي بهذا الكائن الكريه الذي يبدو لي أن التعامل معه لن يكون سهلاً على الإطلاق، هذا هو الموقف الذي أنا بصدده، وبصدده هذه كلمة يجب ألا تستخدم إلا في ظروف منيلة كالتي أنا الآن غارق فيها إلى الأذقان.

«كلامي مش عاجبك طبعاً.. ماشي.. بس انت معذور.. مش بيقولوا تعرف فلان.. آه.. عاشرته.. لأ.. تبقى ماتعرفوش.. إنت أصلك ما لحقتش تعاشر الولية النجسة دي ولا المنيوك ابنها عشان تعرفهم على حق ربنا.. تلاقيهم طبعاً هَروك نخع عني.. مش كده؟ قالوا لك عني نفس الكلام اللي قعد الخول يهلفط بيه جنب أمه.. إني كنت راجل معرّص.. باشغّل منزل العائلة الكريمة في الدعارة وآخدهم على محطة الأتوبيس ألقّحهم في عز البرد وعز الحر على ما الزبون يخلّص الواحد اللي هيعمله.. طب إيه رأيك إني مش هانكر إن ده حصل؟».

لو كنا في وقت غير هذا الوقت الذي لا يليق فيه إلا الحزن أو تصنع الحزن، لاستلقيت على قفاي ضحكاً من مفاجأة القفلة التي اختارها لمونولوجه، الذي حسبته سينتهي بمرافعة طويلة ينكر فيها ما أُلصق به من تهم وافتراءات، فإذا به يعترف بها بكل بساطة، ليثبت لي أنه رجل غير سهل ويصعب التكهن بردود أفعاله.

«بس أنا كنت باعمل كل ده عشان مين؟ مش عشانها هي وولادها.. هو أنا يعني هاجيب لها شقة في أنظف حتة في شارع الهرم منين؟ ولّا هالاحق على مصاريفها هي والشحطين اللي مخلفاهم منين؟ ده صالون الحلاقة اللي قد الزنقور كان يا دوبك بيأكلنا عيش حاف وشوية غموس.. طب قسماً عظماً بالله لولا إنها دلوقتي بين إيدين ربنا اللي يا ما دعيته يخلّصني منها.. كنت دخلت جبتها لك من شعرها وقلت لها قِرّي يا ولية يا بنت اللبوة.. مش انتي أصلاً صاحبة فكرة إننا نشتغل في الكار الوسخ ده.. مين اللي كان بيزن عليا كل يوم ويقولي يا خايب يا أهبل.. مش تشوف الناس حوالينا بتلعب بالفلوس إزاي.. وانت نايكنا فقر وقنعرة.. من عبطي قلت لها في الأول جرى إيه يا ولية عايزاني يعني أتاجر في المخدرات وأترمي في السجن عشان تستريحي.. قالت لي ومين بس اللي جاب سيرة المخدرات.. ما الناس حواليك أهيه بتسرّح نسوان وأشياءها معدن وما حدّش بيدوس لها على طرف».

أنهى شعراوي هذه النسخة المختصرة من تاريخ عائلته، ثم أخذ زفرة عميقة كأنه قد تخفف من عناء التاريخ الذي ناء بحمله على كتفيه، ثم طفق متابعاً دون حتى أن ينشغل برصد رد فعلي تجاه رؤيته الجديدة التي يناقض بها كل ما استقر لدي عنه وعن طليقته عجّل الله خروج نعشها، لعلي أستريح ولو قليلاً مما أنا فيه.

«إياك تكون المجحومة قالت لك إن القلق اللي حصل بيني وبينها سببه إنها شريفة وعفيفة ومالهاش في المشي البطال.. دي ضحكت بالكلمتين دول على القاضي في المحكمة بس مش هتضحك بيهم على ربنا.. وبصراحة كان المفروض ما تضحكش بيهم على راجل متعلم وفاهم زيك.. يعني حط نفسك مكان القاضي لما يلاقي ولية ملخفنة، شايلة عيِّلة على كتفها والعيِّل التاني متعلق بديل جلابيتها.. وواقفة تتشحتف وتبربر في المحكمة وتقوله جوزي الزناوي غصبني على المشي البطال وحرقني ببراد الشاي.. هيعمل إيه القاضي يعني.. ما لازم أنا اللي يتحكم عليا ظلم.. مانا ماباعرفش أعيّط وحتى لو عيّطت شكلي هيخض القاضي ويحسسه إني بانخع وممكن يرزعني مؤبد».

كان شعراوي ماهراً في قراءة الأفكار بأكثر مما تصورت، فما إن خطرت حكاية برّاد الشاي إياه في دماغي وأنا أقلِّب بداخله روايته الجديدة، حتى عاجلني بسرديته عن واقعة حرق أم ميمي: «كان طبيعي إن القاضي ما يصدقش إيه اللي خلاني أحدفها بكوباية الشاي.. هي طبعاً قالت لك وقالت له إنه كان برّاد بس وحياة ربنا كان كوباية شاي.. كان غلط أحدفها بيها.. مش هانكر.. بس اللي خلاني أحدفها بالكوباية في لحظة غضب.. إنها كانت عاوزة تزود نسبتها من كل زبون.. قال إيه العيال كبرت ومصاريفها كترت.. يا ولية ده الزبون بيقعد ساعة زمن بيدفع مية جنيه وساعات مية وخمسين باديكي نصهم.. لما تاخدي أكتر من نصهم يبقى إيه اللي نابني من التعريص.. يعني أبقى معرص والتعريص واقف عليّ بخسارة.. تقوم بنت اللبوة تقولي أصلك بتستلقط زباين معفنة.. سيبني أنا أجيب الزباين وأقعد انت بالعيال على المحطة.. غِلي الدم في عروقي قمت حادفها بكوباية الشاي.. يعني أنا آخري في التعريص أجيب مُكنة نلمّ فيها اتنين يقعدوا لهم ساعة والسلام وكل واحد يروح لحاله.. إنما ما توصلش إني أشغل مراتي في الشغلانة دي.. طب افرض إن حد هايج طِمِع فيها.. أياميها ما كانتش لسه خنشرت وكلتها البارومة.. كان لسه فيها الرمق.. أعمل إيه أنا ساعتها.. أقف على المحطة ومراتي بتتناك في الشقة.. قال وزعلانة إني حرقتها بالشاي.. دي تحمد ربنا إني ما دبحتهاش.. طب بذمتك انت لو مكاني مش كنت هتولّع فيها عشان تطفّي نارك؟».

كيف يمكن أن ترد على سؤال كهذا وأنت تشهد تاريخ أم ميمي يُكتب من جديد، وعليك أن تتمثله ثانية لتحدد أي موقع يمكن أن تقف فيه، موقع الراحلة التي أكلها الربو والنكد ونحن عنها غافلون، أم موقع شعراوي الزِناوي الذي يحاول الآن إقناعي باستماتة أن زوجته الميتة كانت مقلباً شربته أنا

وميمي وفاتن وصبحي والقاضي ومباحث تنفيذ الأحكام وضباط مباحث شارع الهرم؟ لم أكن مؤهلاً للاستماع إلى المزيد فضلاً عن تمحيص ما سمعته للتو، فقد كنت أغالب مجدداً رغبة عارمة في القيء، ولم يكن سينجيني مما أنا فيه إلا أن يخرج نعش أم ميمي من المشرحة، لأستريح قليلاً من الاستماع إلى ما يتدفق في أذنيّ من فم هذا الرجل الذي كان خيراً لي أن أسمع عنه، لا أن أراه.

«طب قولي بذمتك لما هي شريفة ومابتحبش تاكل م الحرام.. إزاي قِدِرت تصرف على العيال دي كل السنين اللي فاتت دي لغاية ما ميمي فشل في التعليم وطلع من تانية إعدادي ولغاية ما فاتن اتجوزت؟ طب جهّزت البتّ فاتن منين؟ من الستين جنيه اللي بتاخدهم من الطلبة الشحاتين اللي زيك؟ ده الشقة أصلاً كانت بتسكُن شهر وعشرة لأ؟ أنا عارف إنك مش هتصدقني بس انت تقدر تتأكد من كلامي.. اللي لازم تعرفه إن أنا مشيت من هنا والنياكة ضربت في الشقة من هنا.. مش هاقولك إنها كانت بتنام مع الزباين.. عشان حرام الواحد يشهد إلا باللي شافه.. بس ده اللي سمعته والعلم عند الله.. هو اللي يحاسبها بقى بمعرفته.. لعلمك أنا كنت ناوي أقتلها بإيديا دول لو اتخبطت في نافوخها وسرّحت فاتن.. هي في الآخر بقت طليقتي.. كُسّها ما يلزمنيش خلاص.. هو كسها ما يلزمش حد أصلاً.. عشان كده كنت متأكد إنها هتمشّي فاتن في الحرام.. وجوزها صبحي أصلاً يعشق التعريص فكان هيودي وشه الناحية التانية ويعمل فيها عبيط.. بس الحمد لله النجدة جت من عند ربك.. لما جه الساكن اللي في الدور اللي فوقينا.. أبو سامية أكيد انت عارفه.. وقام موضّب شقته وخلاها آخر ألاجة.. ودخل هو كمان في الكار.. وقام مسرّح بناته الاتنين أستغفر الله العظيم.. والبنتين انت أكيد شفتهم.. صواريخ اللهم صلي على النبي.. ومن ساعتها بقت شقته إيه؟ أزحم من سنترال الهرم.. تقوم المجحومة ولا المرحومة.. احسبها زي ما تحسبها.. تبلّغ عنه الآداب.. بس الراجل كان عُقر ولافف ومالوش خُلق للخناق.. أول ما طِلِع على ذمة التحقيق.. خد بعضه لَزَم على شقتها.. فتحت الباب وهي مستنياه يغدر بيها.. قام قالها زي بتوع السيما ممكن أشرب معاكي فنجان قهوة يا افندم.. آه والله زي ما باحكي لك كده.. انت عارف مين اللي حاكي لي الكلام.. الخول اللي اسمه ميمي.. اللي جاي دلوقتي يعمل دكر على أبوه.. المهم طلعت الولية لأبو سامية المعرّص وشربوا القهوة عنده فوق.. عشان ما كانش مستنضف يخش شقتها.. واتفق معاها يديها نسبة عشرين في المية على كل راس تطلع عنده وهي تطنش خالص.. ومن ساعتها ابتدت تأجّر الأودة اللي كانت بتنام فيها فاتن للطلبة.. عشان تبرر لعيالها وقرايبها هي بتجيب فلوسها منين وبالمرة ترحمهم من الوقوف على المحطة كل شوية.. وأهوه تساعد أبو سامية إنه يُحبُك العملية.. يعني لو حد من الجيران شاف رجالة داخلين العمارة في وقت غريب.. يقولك دول تلاقيهم طلبة

من اللي ساكنين عند أم ميمي.. ومش بعيد تكون متفقة مع أبو سامية على الحكاية دي.. وكله بحسابه.. شفت بقى يا سيدي.. يعني انت من الآخر كنت رافع قرون على طول وانت مش واخد بالك.. إيه مالك.. ليك حق تبلّم وتفتح بقّك فتحة أكبر من دي كمان.. ما إنت ما كنتش فاهم حاجة يا عيني.. مش ربنا بيقولك إن كيدهن شديد.. لعلمك إنت ربنا رحمك إنها ماتت.. لو صبرت كام شهر كانت سرّحتك انت كمان، ما اللي زيك ليه زبونه برضك.. إيه يا عم مالك باهزر معاك عشان ما تاخدش الحكاية على صدرك.. المهم خلينا نتكلم في الجد.. أهي راحت للي خلقها وحسابها عليه.. المهم دلوقتي اللي جاي.. أنا بقى يا سيدي مش هارفّعك قرون عشان انت راجل محترم وما تستاهلش البهدلة.. ولا ناوي أمشي في سكة التعريص.. أبو سامية حر يعرّص على بناته.. ربنا يسهل له.. لكن أنا حد الله ما بيني وبين الحرام.. عشان كده لازم أرفع الإيجار.. مش النظافة ليها تمن برضه يا ابني؟».

قالها وضحك ضحكته الرقيعة المستفزة، وتركني ومشى.

«خَرجة» لا تليق بمقام أم ميمي

الذهول الذي تملكني منذ غادرني شعراوي، لم يعد مصدره فقط خديعتي في أم ميمي، فصدمتي الآن امتدت ودخل في نطاقها جارتاي سامية ورحاب الرقيقتان البريئتان ناعستا الطرف، وأمهما الحاجة ذات الوجه المنير، ووالدهما الرجل الكُبّارة الهيبة بهيُّ الطلعة عفُّ اللسان.

يا حول الله يارب، أي مستنقع هذا الذي أدخلني إليه شعراوي اللعين في دقائق معدودات ونحن نتكئ على سيارتين متربتين، فكيف كان الحال لو كنا قد أنخنا في ظل شجرة وارفة الظلال مع براد شاي، وأخذ راحته أكثر في الحكي.

المشكلة أن ما قاله اللعين فسّر لي أشياء كثيرة لم أكن أجد لها تفسيراً، على رأسها أولئك الرجال النازلون وشّ الفجر من بيت أبي سامية يتطوّحون فيما حسبته حرصاً برغم الإعياء على اللحاق بصلاة الفجر، ونظرات الاحتقار التي يرشقني بها المارة في اللحظات القليلة التي كنت أفتح فيها شباك غرفتي ليدخل بعض الهواء العطن إلى الغرفة فيطرد الهواء الميت الذي بها. الآن فقط فهمت سر تلك النظرات التي تنضح بالكراهية، كانوا إذن يظنونني ناضورجياً يعمل في خدمة سامية وأختها وأبيها. الآن فقط فهمت لماذا حين بدأت التردد على المسجد القريب لكي أتقرب إلى الله مع اقتراب الامتحانات، قال لي عجوز من رواد المسجد: «انت طلعت تعرف ربنا أهوه وعايز تقرّب منه.. يا عيني يا ابني.. ربنا يصبّرك على ما بلاك ويغنيك بالحلال»، ولم أفهم ما كان يقصده إلا بعد ما قاله شعراوي قاتله الله، ولعل العجوز الطيب حين يلاحظ انقطاعي عن المسجد بعد أن تنتهي الامتحانات، سيتصور أنني فضّلت ما ابتلاني الله به من مشي في سكة التعريض، على مواصلة السير في طريق الهداية.

لكن ماذا عن سامية تلك «الحبّوبة الطيّوبة» التي ظننتها بفضل ابتسامتها الخجولة من ربّات الصون والعفاف؟ ماذا عن أختها رحاب طالبة الثانوي التي كتبت عنها في دفتر من دفاتر المحاضرات: «كان لها ابتسامة ملائكية وكانت لي خيالات شيطان هائج».

ما زلت فخوراً بجماليات العبارة برغم كل ما سمعته، لن أشطب شيئاً منها، سأضيف إليها فقط كلمة أهبل، «كانت لي خيالات شيطان هائج أهبل». ثم ماذا عن أمهما السيدة الجليلة الوقور التي لم تختر حتى أن تقف على محطة الأتوبيس حين يأتي زبائن لابنتيها في الشقة، بل اختارت أن تجلس في الصالة للتخديم على الزبائن الرازعين الفاحتين في غرفة النوم؟ ماذا عن الرجل الأشيب المهيب الساكن في الشقة المواجهة لشقة أبي سامية؟ وهل يمكن أن أقول الآن إنه يختفي كثيراً عن الشقة لأنه كان يعلم ما يجري في شقة جيرانه ويرفض أن يشارك فيه ولو بالصمت العاجز؟ أم أنه هو الآخر يأخذ حصته مثل أم ميمي ويفضل الابتعاد لكيلا تطرطش عليه الفضيحة إن كبس البوليس؟

البوليس؟ يا أخي أحّه يا بوليس. كلمني سعادتك عن «بوكس الشرطة» الذي يأتي عصر كل سبت منذ سكنت تلك المخروبة، ويستقر قريباً من البيت في الموضع الذي يتسع فيه الشارع قليلاً بجوار دكانة عم سيد البقال، ثم ينزل منه رجل عريض المنكبين يحييه بوقار كل من رآه، ليدخل إلى البيت ويصعد إلى حيث يسكن أبو سامية وأسرته، فيمكث ما شاء الله له أن يمكث، ثم ينصرف وقد اكتست وجهه أمارات البشر والرضا. قال وأنا الذي كنت أظنه قريباً للأسرة اندرج في سلك الشرطة، فإذا به ولا ريب ضابط آداب برتبة اندرج في سلك التعريص، ولعله يأتي بنفسه إلى الشقة كل سبت ليأخذ نصيبه المعلوم من جسد سامية وربما من جسد رحاب الذي اتضح أنها «منائكية» وليست ملائكية؟ ومن يدري ربما كان يفضل أن يأخذ نصيبه من جسد الأم نفسها التي حافظت برغم تقدم السنين على ملاحة وعلوقية تجذبان هواة النوع؟

أسئلة كثيرة ظلت تمور في صدري منذ ما بخّه شعراوي في أذني، فأطابق بعض ما كنت أراه سابقاً، على ما قاله لي اللعين، لينتج عن تفاعل ذلك تفسيرات خبيثة وخيالات مريضة، كان يدركها لا ريب وهو يرمقني من بعيد بابتسامته الصفراء التي لم يتكلف حتى مداراة اتساعها، ولعله كان ينتظر مني أن أتوجه إليه وأسأله عن شيء مما أفكر فيه لينقض عليّ بالمزيد من العفن، لكنني ظللت أؤجل أسئلتي، لعلها تموت في صدري فترتاح وأرتاح، وقبل أن أضعف أمام رغبتي في

طرح أشدها إلحاحاً عليه، خرج نعش أم ميمي من باب المستشفى محمولاً على الأكتاف، فهب شعراوي نحوه، لا لكي يقول لأحد حامليه: أجرني، بل لكي يصوب مطواته من جديد نحو عنق ميمي، الذي كان قد انهال ضرباً وسباً على حاملي النعش، طالباً منهم أن يخرجوا أمه من النعش لأنها «هتتخنق جوّاه»، ليتوقف عن جنونه فور أن رأى شعراوي قادماً صوبه بالمطواة، ويكتفي بالانتحاء جانباً وقد انهار في البكاء، وليته ما فعل، ليته استمر في جنونه ليشغل شعراوي به عني قليلاً، بدلاً من أن يستغل هدوء الموقف، ليسدد نحو نحري أنا ضربة غدر أشد إيلاماً.

كان المشيعون قد استقروا في حملهم لنعش أم ميمي متجهين به نحو الجامع القريب، وكان «صِويط» فاتن يتعالى بين حين وآخر، فيسكته أحد ما مفتياً بأن «الصِويط» والعويل يحرقان الميت في قبره، فتستجيب فاتن مع أن أمها لم تدخل إلى قبرها بعد، ثم تعود بعد قليل للمزيد من «الصويط»، بعد أن يصل إلى مسامعها صوت نحيب ميمي الذي لم أكن أتوقع لحزنه أن يكون عميقاً وحاداً ومؤسفاً هكذا، ولو صح ما يقال إن الميت يحس بما يفعله أهله، لكانت أم ميمي الآن مندهشة للغاية لأنها لم تتصور من قبل أن ميمي يحبها إلى هذا الحد.

كنت أشعر بروح شعراوي الثقيلة تكتم على أنفاسي وهو يسير إلى جواري نحو الجامع القريب، مصوباً نظرات زاغرة إلى ميمي وأخرى ساخرة إلى النعش، لذلك قررت أن أبتعد عنه في أقرب فرصة، وحين لمحت ميلاً بسيطاً في النعش، ربما نتج عن إرهاق أحد من حملوه، حثثت الخطى لألحق بالنعش، لعلي أنال ثواب حمله، فأمسكت بذراعي يده التي لم تكن تتناسب قوة قبضتها مع سنه، وسدد نحوي عينين باردتين صارمتين، وقال لي دون أن يتحرج من عدم مناسبة الوقت فكل الأوقات مناسبة لشعراوي: «مش محتاج أفكرك إن الإيجار هيتدفع لي أنا من الشهر الجاي»، ولم يكن بوسعي إلا أن أهز رأسي بوصف ما يقوله بديهية لا تحتمل الفصال، ليعاجلني بقوله: «بس خد بالك.. من الشهر الجاي هيبقوا ميت جنيه بأمر الله.. أصل ستين جنيه على شقة زي دي موقعها حلو.. يبقوا قليلين أوي بأمانة ربنا».

لم ينتظر شعراوي رد فعلي على طعنته النجلاء المباغتة، بل اندفع مباشرة ليطلب من أقرب حاملي النعش أن يجيره، مسنداً طرف الخشبة على كتفه، وهو يهلل ويكبر ويحوقل بصوت عالٍ ألهب حماس من كانوا قد همدوا بفعل ثقل النعش، ليمنح ابتعاد شعراوي عني فرصة لميمي لكي يستأسد عليّ، وقد رآني أقف في حالة تناحة، أحاول استيعاب ما سمعته للتو، ليقول وهو ينقضّ علي:

«يعني مش هاين عليك تشيلها يا عرص، دي يا ما شالتك يا ابن القحبة، ده أنا هاطلّع دين أمك»، ولم يكن ينقصني مهانة إلا أن يكون من أنقذني من بين يديه المتعطشتين للأذى «أبو سامية المعرص» نفسه وعم سيد البقال، الذي لم أعد متأكداً من كونه يستحق أصلاً لقب عم، منذ تذكرت حفاوته المفرطة بضابط الآداب القادم في عصاري كل سبت لكي يتمم على تأمين النجاسة، وحين ذهبا بميمي بعيداً عني، وهما يحاولان تهدئته بكلام لم أسمع منه إلا تأكيداً بأنني كنت أقف بعيداً عن النعش من فرط زعلي على المرحومة، لم أدر حينها هل أفرح لأنني نجوت من مهانة علنية، أم أحزن لأن من أنجاني منها كان أنجس مما خطر لي على بال؟

لم يكن لوقفتي التي طالت وأنا حائر مَتوول جاحظ العينين، علاقة بتاريخ عائلة أم ميمي كما رواه شعراوي الزِناوي قبل قليل، برغم أن أسئلتي الملتاعة كانت قبل قليل تتوسل الإجابة الشافية، أما الآن فلتولع أم ميمي وعائلتها والحاملون لنعشها الآن، فما يشغلني الآن هو سؤال واحد لا شريك له: «من أين سآتي بالأربعين جنيهاً التي طلبها شعراوي زيادة على الإيجار؟».

لم أفق من فرط انشغالي بالبحث عن إجابة لذلك السؤال الوجودي، إلا على أصوات الهرج والمرج التي اندلعت في المسجد، بعد أن حاول ميمي فجأة أن يشارك أمه في رقدتها داخل نعشها، مستغلاً اختفاء شعراوي من الأجواء، ربما لأنه خشي أن يدخل المسجد فيحترق كما تحترق الشياطين حين تدخل بيوت الله، ولذلك أخذ ميمي راحته في اللطم والصويط والسب واللعن، بل وشخر لإمام المسجد شخرة بشخاليل وتوابع، من تلك اللواتي ينجسن أذن من يسمعهن أربعين يوماً، لمجرد أن الشيخ المسكين نصحه بأن يكتم حزنه في قلبه كما يليق بالمؤمنين الممتثلين لقضاء الله، وأن يلتزم بما نهى عنه الشرع الحنيف من لطم للخدود وشق للجيوب.

حاول أهل الخير تهدئة الشيخ الذي قرر الانسحاب من المشهد غضباً من الشخر له في قلب المسجد، ونصحوه بأن يمتثل لقضاء الله ويترك الولد الملتاع ليحزن على أمه حتى يهدأ، فيما ذهب من هم أكثر عملية مثل «أبو سامية المعرص» وعم سيد البقال للبحث عن شعراوي وإقناعه بالدخول إلى المسجد لحسم المهزلة لكي نلحق آخر ساعات النهار، وغيابهما جعل الباقين ممن يعرفون ميمي حق المعرفة، يختارون عدم إلقاء أنفسهم إلى البهدلة، بدلاً من أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما أعطى ميمي الفرصة للاستفراد بالمشهد، ليعاود محاولة النوم في النعش إلى جوار أمه، وحين حاول الشيخ وغيره من الغيورين على حرمة الموتى منعه، انهال

عليهم ضرباً وشخراً ولعناً، وهو ما جعل الشيخ يحلف أن ميمي سكران طينة، مع أن الرائحة الكريهة المنبعثة من فم ميمي، لم تكن بالضرورة رائحة سُكر، لكن تغطيتها على رائحة سجاد المسجد العطنة، جعلت الشيخ يوقن أن ميمي لم يدخل إلى المسجد إلا بعد أن «ادّاها على الآخر»، ولذلك أخذ يشد برأسه إليه وهو يصرخ فيه بصوت بُحّ من فرط انفعاله: «أعوذ بالله.. انت مابتعتبرش حتى من الموت يا أخي.. ترتكب الكبائر يوم موت والدتك.. الله يلعنك في كل كتاب.. ألم تسمع قول الله تعالى لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى.. ألم تسمع قوله تعالى إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه».

لم يكن الشيخ حسن النية سيقتنع، لو قال له أحدنا إن ميمي فعلاً لم يسمع بشيء من ذلك، وأنه لو سمع لما فقه مما سمعه شيئاً، بدليل أنه عندما سمع هذه المرة لم يخشع قلبه لما سمعه، بل قام بضرب الشيخ روسيّة طرحته أرضاً، وهو يزعق بعلو صوته: «أنا ما حدش يعلي صوته عليّ غير أمي».

في اللحظات التي تلت إفاقة إمام المسجد من إغماءته القصيرة، انقسم الموجودون في المسجد إلى فريقين: فريق يحاول إقناع الشيخ المبطوح أن يصلي على حضرة النبي ويستهدي بالله ويصرف النظر عن يمينه أنه سيرمي النعش خارج المسجد حالاً، لأن من تنجب ابناً كهذا لا يمكن أن يرحمها الله ولا يقبل لها عذراً لأنها فشلت في تربية ابنها، وفريق يحاول إقناع ميمي أنه «بالطريقة دي ما بيخدمش المرحومة خالص وهي محتاجة دلوقتي للي يدعي لها مش للي يدعي عليها»، بينما لبثت أنا إلى مقعدي جوار الميضة، أفكر في مستقبلي الذي أصبح فجأة على كف عفريت، لمجرد أن أم ميمي ماتت قبل أن ينتهي العام الدراسي على خير، وها هي المدخرات التي كانت ستعينني على إكماله، ستنتهي قبل ذلك.

لم يُحسم الصراع الدائر في المسجد، إلا بفضل تدخل محسن كريم لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منّا أحد، حين عرض على الإمام أن يتبرع بشراء سجاجيد وحُصُر جديدة للمسجد، غير تلك التي أنتنت رائحتها، تعويضاً له عن الإهانة التي لحقت به، ليذهب بعدها إلى ميمي ويختلي به ويظرُفه مجموعة من الأوراق النقدية كان حجمها كافياً لإسكات ميمي طيلة صلاة الجنازة، مع أنه تململ قليلاً حين قرر الشيخ أن يدعو بصوت جهري على الخمورجية الذين قست قلوبهم فصارت كالحجارة أو أشد قسوة، أما أنا فقد ازداد حزني على حالي، لأن مخاوفي مما أنا مقبل عليه، دفعتني

لأن أفكر ولو للحظات فيما لم أفعله من قبل في حياتي، وهو أن أذهب إلى ذلك المحسن المجهول الذي قالت فاتن فيما بعد إنه ملاك أرسله الله لستر أمها من المزيد من الفضائح، فأطلب منه بوصفي من أبناء السبيل وطلبة العلم خمسمئة جنيه أو حتى ثلاثمئة جنيه، أو أي مبلغ يسد عجز ميزانية الشهور المتبقية على العام الدراسي، ذلك العجز الذي لم أكن أملك له دفعاً مؤكداً، ليزداد شعوري بالعجز حين سلمت منتهياً من صلاة الجنازة فلم أجد لرجل البر والإحسان أثراً، فأحزنني اختفاؤه، مع أنني لم أكن متأكداً من أنني سأمتلك الشجاعة الكافية للذهاب إليه وطرح مشكلتي عليه، لأعود من جديد إلى «تَولَّتي» وذهولي، فلم أعد أدري ما الذي حدث لي منذ أن انتهت صلاة الجنازة وخرجنا بنعش أم ميمي من ذلك الجامع؟ ولا في صحبة من وصلت إلى طُرَب الغفير؟ ولا كيف أظلمت الدنيا فجأة لنصبح على مشارف صلاة العشاء؟ ولا كيف ظهر شعراوي فجأة أمامي بعد طول اختفاء؟ لتذكرني نظراته اللزجة الكريهة بالسؤال الذي لم يفارقني طيلة اللحظات الماضية: «أجيب أم الفلوس الزيادة دي منين؟»، وحين انهار عقلي بعد فشله في محاولة إسكات تكرار السؤال، انهارت في الوقت نفسه محاولاته في منعي من البكاء على حالي، فانهرت إلى جوار قبر أم ميمي باكياً، ليكون آخر ما تراه عيناي الغائمتان في الدموع نظرة امتنان من ميمي لم أكن قد رأيتها منه أبداً.

بجوار «طُربة» أم ميمي

جلست فبكيت

قد تبدو لك الأربعون جنيهاً التي طلبها شعراوي كزيادة شهرية في الإيجار أمراً تافهاً الآن، لكنها في تلك الأيام من مطلع 1992 وبالنسبة لي بالذات لم تكن أمراً هيناً على الإطلاق.

حتى اليوم الذي رحلت فيه أم ميمي، كانت حسبتي المادية محسوبة «بالميلّلي» ولم يكن ثمة مجال للعبث بها. فالمدخرات التي شقيتُ عاماً كاملاً لتوفيرها في السنة التي سبقت دراستي الجامعية، كان يفترض أن تكفي لإكمال ما تبقى من العام الدراسي الذي كان لا بد أن أنهيه بتفوق كاسح، لأحصل على منحة دراسية تمكنني من إكمال دراستي الجامعية، لكن ذلك كان يقتضي أن لا يخرج ما أنفقه عن الآتي بأي حال من الأحوال: ستون جنيهاً كل شهر لإيجار الحُقّ الكائن في شَقّ أم ميمي، نصف جنيه كل يوم للإنفاق على الإفطار، وقد كان إفطاري المفضل وقتها هو البقسماط والشاي بالحليب، على أياميها كان الربع جنيه يشتري كمية معقولة من البقسماط القابل للتسقية في كوب شاي بالحليب المفتخر، كان يتكلف هو الآخر ربع جنيه على أجدعها قهوة. لم أكن من أنصار الاستعانة بالفول والطعمية في الإفطار في الأيام التي تذهب فيها إلى الكلية، لأن الفول - ومشتقاته– يثير رغبة عارمة في النوم والهَيَجان والفساء في ذات الوقت، وكلها أمور تتعارض مع التركيز والتحصيل الدراسي، ولذلك كنت أدخر إفطار الفول والطعمية إلى أيام الإجازة، مفضلاً الذهاب إلى الجامعة «خفيف خفيف» في الميكروباص الذي كانت ركوبته تتكلف 35 قرشاً، وكان يمكن أن أوفر منها عشرة قروش بركوب أتوبيس 924 عباسية - كفر الجبل الذي كان ينزلني أمام باب الجامعة، لكن معدل الالتصاقات السائدة فيه كان أعلى مما يمكن احتماله خصوصاً في صباحات الشتاء الباردة، التي يغلب فيها العشم على الملتصقين، ولا أقول المدقّرين، منعاً لتعميم سوء الظن.

في أيام الدراسة الستة - كانت الإجازة الأسبوعية وقتها يوماً واحداً فقط- كان علي أن أتقمص شخصية المهاتما غاندي، حيث لا مجال للوقوع في أي إغراءات مأكل أو مشرب أياً كان سعرها، لأني لم أكن أذهب إلى الجامعة إلا وأنا أحمل معي أجرة ميكروباص العودة فقط، لكي أجبر نفسي الأمّارة بالطفاسة على الترفع عن أي إغراء، قد يضطرني للعودة من الجامعة إلى منطقة حسن محمد سيراً على الأقدام، وهو ما كان مستحيلاً بعد اليوم الدراسي المرهق، وقد ساعدني على ذلك القرار أن معهد الإحصاء الذي أتلقى فيه محاضراتي، كان «محدوفاً» في منطقة بعيدة عن المطاعم والكافتيريات وعربات الأكل المليئة بما لذ وطاب من مسيلات اللعاب، وكان أقرب مطعمين إلى المعهد يندرجان تحت فئة المطاعم التي لا يستطيع مثلي دخولها أبداً، ومع أن الوصول إليهما كان صعباً، لأنه كان يتطلب تسلق السور الحديدي لمعهد الإحصاء، أو الخروج من بابه المجاور لكلية الفنون التطبيقية والسير نحو شارع الدقي لتشتري ما ترغب فيه ثم تعود ثانية إلى المعهد، إلا أن زملائي كانوا يقومون بالتناوب على مهمة الذهاب لشراء سندوتشات من المطعمين وتوزيعها على الراغبين في الأكل، وكان علي في كل مرة أن أتهرب من عروض جلب السندوتشات، وأن أذهب بعيداً ما استطعت عند وصولها، رافعاً شعار «وعزة نفسي مانعاني»، لكي لا آخذ شطراً من ساندوتش يعرضه زميل لطيف المعشر، أو بعضاً من كرواسون تعزم به زميلة تشعر بالامتنان لجهدي المتفاني في إعداد الملخصات الدراسية وتوزيعها على زملائي مجاناً، لأن الاستجابة لمثل تلك الإغراءات النبيلة، لن يسد من جوعي شيئاً، بل ستكون كمن يلقم تنيناً جائعاً عصفورة نحيلة على سبيل التصبيرة، ثم يتعجب من عدم قدرة التنين على ضبط نفسه والتهامه بعدها لكل ما يقع تحت ناظره.

بعد أن ينتهي اليوم الدراسي تصبح مهمة العثور على ميكروباص فاضي أصعب بكثير مما هي عليه في الصباح، ولذلك ربما اضطرتني الظروف إلى حشر نفسي في أول علبة سردين متاحة، مع أهمية أن أحرص على مقاومة زوغان بصري بفعل الجوع، لكيلا تزلّ قدماي فتسوقانني إلى أتوبيس نِمرة تسعة، فأذهب خطأً إلى العمرانية، وأمشي منها إلى البيت بعد أن أكون قد أضعت وقتي ومالي وأعصابي، وربما نزراً يسيراً من شرفي، فأنت لا تفقد الكثير منه ما دمت تقاوم.

من محطة الأتوبيس أو ركنة الميكروباص «على جنب يا اسطى» آخذها جرياً إلى البيت، لألتقط الحلّة المغسولة المعدّة سلفاً إلى جوار الباب، وأطير بها إلى الشارع المجاور حيث المطعم الأنظف في المنطقة، والذي يتميز بجمعه بين الكشري والمكرونة والفول والطعمية وسائر السندوتشات

والسلطات، راجياً من الله أن لا أجد خلف النصبة إلا عم شعبان رائق المزاج في أغلب الأحوال، والرائف بحالي على الدوام، ليملأ لي بالجنيه الأول الحلّة حتى حوافّها بكشري «خالي العدس ورد زيادة يا عم شعبان يا برنس»، دون أن أكون بحاجة إلى مزيد من التزلف والمبالغة في تعريض ابتسامتي، ثم يُحبِّش بالجنيه الثاني أربعة سندوتشات فول وطعمية بسلطاتها ومخللاتها، فأعود إلى البيت وأنا أحاول منع ريقي من الاندلاق داخل الحلة التي يزدان سطحها بالتقلية العائمة في بحر الصلصة المحطوطة بضمير مهنيّ لا تقتير فيه ولا إسراف، وأتوقف في الطريق لتأمين الحلو الذي أخصص له كل يوم ميزانية قدرها نصف جنيه، كان وقتها كفيلاً بتأمين بعض فاكهة مما لا يتخيّرون، فليس أمامي في الصيف سوى الجوافة البناتي أو الكمثرى الخشّابي، وليس أمامي في الشتاء سوى «اليوسف أفندي» لأني لم أكن وقتها قد تصالحت مع معنى البرتقال.

ألتهم حلة الكشري فور وصولي إلى البيت، ثم أحبس بالشاي، وأحلّي بما اشتريته من فاكهة قبل عودة ميمي من الورشة، لأن ميمي يحب الفاكهة التي يكون غيره قد اشتراها، وحين يعود الجوع بعد ساعات من المذاكرة، لإرسال إشاراته من معدتي إلى مخي، أسكته بضرب سندوتشات الفول والطعمية المتحبّشة بعد تقميرها قليلاً، شاكراً الشتاء الذي يؤخر بوظان السلطات ويحتفظ بالسندوتشات في أفضل حالة ممكنة. ليتغير ذلك الترتيب مع ارتفاع درجة الحرارة، فأبدأ بالسندوتشات، وأؤجل الكشري إلى قبيل نومي، مخاطراً بالآثار الجانبية للصلصة التي لا يكسر سمها إلا الشاي الثقيل، حامداً الله أني لست ممن يصيبهم ثقل الشاي بالأرق.

في جميع الأحوال أنام وأنا أشعر أني هارون الرشيد بجلالة قدره، وقد غلبته التخمة من فرط التهام الثريد المتروس بقطع لحم الضأن الذي أعقبه بالتحلية باللوذج والفالوذج، وقد تحقق لي كل هذا بجنيهين ونصف فقط لا غير، ضع عليهم سبعين قرشاً بالكثير للمواصلات، ونصف جنيه للإفطار، يعني ثلاث جنيهات ونصف الجنيه في اليوم، يعني مئة وخمسة جنيهات تقريباً في الشهر، ضع فوقها ستين جنيهاً للإيجار، يعني مئة وخمسة وستين، بالكثير مئة وخمسة وسبعين جنيهاً هي ميزانيتي الشهرية الحتمية التي لا يجب أن أحيد عنها إلا في الشديد القوي.

أضف إلى ذلك الـ75 قرشاً التي أخصصها كل أسبوع لشراء مجلة «روز اليوسف» ليلة كل سبت من سوبر ماركت «بوته ودبّة» القريب من البيت، والتي كنت أعتبرها جزءاً من مستلزمات التطور والقدرة على مقاومة رزالة الحياة، مثلها مثل المئة والخمسة والعشرين قرشاً التي كنت

أدفعها كل خميس في شباك سينما الأهرام المجاورة لمعهد السينما، ليس لأنها كانت الأقرب إلي، بل لأنها كانت تنتمي إلى فئة «سينمات الدرجة الثانية» مما يجعلها أرخص من سينما رادوبيس الصيفي المنتمية نظرياً إلى فئة سينمات الدرجة الأولى، التي لم أكن أقوى على ثمن تذكرتها الأغلى.

أشاهد في سينما الأهرام كل خميس «فيلمين في بروجرام واحد» وأنا وحظي مع ما أجده من أفلام تمتعني قليلاً وتخيب أملي كثيراً، فأقرر إمتاع نفسي بالتريقة على الأفلام التي لا تعجبني، ثم أتوقف عن الذهاب إليها مجبراً، ليس لأني «قفلت منها» بعد أن سمعت عنها تشنيعة من زميل من قاطني المنطقة، أقسم لي أن البوليس أرسل إليها ذات ليلة أكبر بوكس لديه، فوقف بظهره على باب السينما ليلم زبائن السينما من السبرسجية والشمامين، فضحكت على ما يقوله، دون أن أقول له غاضباً إن ما يحكيه تشنيعة رخيصة، لأنني من زبائن السينما المنتظمين الذين لم يتورطوا في شيء غير مشاهدة أفلامها، التي مع أنها لم تكن تحقق لي دائماً ما كنت أرتجيه من متعة، فإني حزنت حين تم إغلاقها لتجديدات لم تتم، ولذلك قررت أن أستبدلها بالتردد على سينما الفانتازيو الصيفي في ميدان الجيزة، التي كانت تعرض «أربعة أفلام في بروجرام واحد» بنفس السعر الذي كنت أدفعه في سينما الأهرام، مما كان يرفع فرصة العثور على أفلام لطيفة، لا تكون بحاجة للتريقة عليها لكي تستمتع، متحملاً في ذلك ارتفاع نسبة روادها من «بتوع العيال» الذين لم يكن يحِدُّ من هيجانهم سوى الرقابة الصارمة التي تُمارس عليهم من سكان العمارات المجاورة المرابطين في البلكونات للفرجة على رواد السينما أكثر من أفلامها.

كنت أعلم أن ذلك البراح الأسبوعي الذي توفره خروجة السينما، مهم لاحتمال جدولي الصارم طيلة الأسبوع، حيث لا مساحة للاجتهاد في بنود الميزانية، سوى شراء علبة مسحوق (رابسو) بين الفينة والفينة لغسل ملابسك، وتغيير حلّة الكشري مرة كل أسبوع بقطعة مكرونة فرن، كان من حسن حظي أن ذلك المطعم الجميل كان يعملها بذمة وبلحمة مفرومة أحسبها حقيقية والله حسيبها، ومع أن قدرتها على «تفويل التانك» كانت أقل من قدرة حلة الكشري، إلا أن وجودها كان شديد الأهمية للإيهام بقدرتي على الاختيار والتغيير.

كان يفترض بتلك الحسبة الصارمة التي لا ينقصها قليل من الدلع، أن تعبر بي الفترة القادمة بسلام، مع قليل من العجز كنت أتوقع حدوثه في شهر الامتحانات، لكنني كنت عازماً على سده من

عائد فرصة عمل وعدني بها صديق تعمل أخته في أحد المكاتب الصحفية الخليجية، ولذلك لم أترك نفسي لكي يستبد بها القلق، فإن اشتدت وطأة القلق عليها، ساعدتها بالهروب في أيام الإجازات إلى شوارع الجيزة التي شغفت بمعرفة مداخلها ومخارجها، وأنا أسأل الله أن تكون رحيمة بي، فتؤخر الساعة التي ستدهسني فيها كما دهست غيري، فإذا بتلك الساعة التي خشيتها طويلاً تأتي على يد شعراوي الزِناوي، فلم أعد أخاف من عجز في ميزانية شهر واحد فقط، بل أصبحت مهدداً بعجز في ميزانية عدة أشهر، لن ينجيني منه إلا الانحناء أمام العاصفة وطلب معونة من أمي أو خالي اللذين لن يتأخرا عني بالتأكيد، لكن ذلك سيكون إعلاناً بفشلي في الاعتماد الكامل على نفسي، ربما دفعت ثمنه من تركيزي وصفاء ذهني، اللذَين لا غنى عنهما لكي أعبر عامي الحاسم على خير.

كانت المقابر مكاناً ملائماً لمواجهة نفسي بكل هذه الأفكار والتفاصيل، التي دارت كطاحونة مريرة في مخي فأنهكته، حتى تمنى أهيَف مراكزه وأكثرها انفعالاً الموت طلباً للراحة، لكن أعقل مراكزه وأكثرها عبثاً ذكّره بأن موتي في تلك اللحظة بالذات، سيؤدي بي إلى أن أُدفن إلى جوار أم ميمي قبل أن يغلقوا طربتها عليها، فهل سأكون حينها مستعداً لصحبتها في البرزخ، بعد ما رأيته من آثار صحبتها في الدنيا، خاصة وقد اتضح أن تاريخها لم يكن ناصع البياض كما ادعت، إذا اعتمدت رواية شعراوي الذي أصبح الآن يستحق لقب «الزِناوي» عن جدارة، بعد أن زنى بأفكاري في عرض الطريق دون أن يتكلف عناء إنزال بنطلونه أو بنطلوني، فكل ما فعله هو أن وضع رقم «40» في جملة مفيدة.

كنت قد توقفت عن البكاء بصوت عالٍ، رغماً عني، بعد أن اقترب صبحي مني فور أن علا صوت نحيبي، وحذرني من خطر مزاحمة ميمي في البكاء على أمه، وأنه يقدر مشاعري النبيلة في الحزن على سيدة لم أعرفها أكثر من كذا شهر، لكن ميمي الآن أشبه ما يكون في رأيه بـ«جمل مجنون هربان من المدبح»، ولن يكون من الحكمة أن أخاطر باستفزازه ولو بحسن نية، لأنه حين يرغب في فش غلّه في أحد، لن يتشطر على أبيه القابض دائماً على طرف مطواته، ولن يستطيع إسكات أخته مهما أمعنت في الولولة واللطم والصويط، لذلك سأظل حائطه الأمثل للطرطرة، خصوصاً أنه كان قد قام قبل قليل برفس بعض شواهد القبور المحيطة بقبر أمه، وحين حاول «التُربيّ» الإمساك به مستنكراً لما يفعله، ضربه ميمي بالقفا وتفّ عليه ثم بعبصه على رؤوس الأشهاد، ليضطر شعراوي للتدخل، بعد قليل من التلكؤ الذي قصد به تذكير الجميع بقدرته المتفردة على شكم ميمي، مهدداً بتكتيف ميمي وتكفينه ورميه مع أمه التي يثبت ميمي كل لحظة أنها لم

تخلّف رجلاً، بل خلّفت «خولاً» عليه أن يسرع بحلق شنبه ويقطع بتاعه اللذين يجعلانه محسوباً على صنف الرجال بالأونطة.

هدأت الأجواء بعد إسكات شعراوي لميمي، لكن فاتن ظلت تقوم بواجبها في الندب والتعديد، وبعد أن منعها بعض الأتقياء من مواصلة اللطم لأنه يجلب الفقر للميت، عوّضت عن ذلك بضرب صدرها بكل ما أوتيت من قوة، وهو ما استوجب تحذير صبحي لها أكثر من مرة، قال في إحداها خالطاً الجد بالهزل: «بالراحة عليه يا ولية.. لسه يلزمني»، لتنال فاتن مساندة قوية في الندب والتعديد والصويط والبكاء من نسوة لم أر إحداهن من قبل، ولا أعرف صلتهن بأم ميمي، وهل كُنّ من جاراتها القديمات في الضاهر وباب الشعرية، أم من جارات فاتن في شطر حسن محمد الكائن بفيصل، لكن المؤكد أنهن لسن من جارات أم ميمي في شارع خلف كازينو إيزيس، لأنها لم تكن تكنّ مودة لأحد في ذلك الشارع «النجس»، لأسباب أصبحت أفهمها بعد شهادة شعراوي الصادمة.

كانت تلك النساء ذوات الأداء المبهر يملأن أجواء المقابر بالتعديد على أم ميمي والتعديد في مناقبها بشكل لا يمكن أن يبدو لك إلا مقنعاً، ولذلك نجح في استدرار الدموع من عيون الحاضرين، ولعل بينهم من لم يكن يبكي على أم ميمي، بل كان يبكي على حاله مثل حالاتي، في حين ظل شعراوي وحده على ثباته الانفعالي وصموده في مراقبة ما يجري دون أن تتسرسب دمعة واحدة من مقلتيه اللتين لم تكفّا عن الزغر لميمي كلما حرضه شيطانه على استئناف الجنون، مرسلاً لي كلما وقعت عينه في عيني تلك الابتسامة الخبيثة التي تعيد تذكيري بما أنا مقبل عليه من خوزقة.

كنت سأقول لك إنك جاحدٌ بالإنسانية ومفرط في الكفر بالإنسان، لو قلت لي ونحن مجتمعون وقتها حول طربة أم ميمي، إن ميمي وفاتن اللذين كادا أن يتصدعا من فرط الحزن على أمهما، سيخوضان - قبل أن تنقضي هذه الليلة– معركة حامية على تقسيم أحذيتها وملابسها وأطباقها وبطاطينها وملاءاتها وفناجينها بل وحتى «أندرويراتها»، ولو قلت لك إنني شاهدت كل ذلك بنفسي، لما لمُتك إن وصفتني بأنني جاحدٌ عميُّ القلب لا يؤمن بقدرة الموت على وعظ العباد، فما حدث ليلتها كان عصياً على تصديق حتى الجاحدين عُمي القلوب، وكان ألعن ما فيه أن ناره لم تقتصر على عيال أم ميمي، بل كادت تمسك فيّ أنا أيضاً، والغريب أن من أطفأها لم يكن سوى شعراوي الزِناوي شخصياً، ولم يكن ذلك طبعاً لوجه الله.

انجُ ميمي فقد هلكت أم ميمي

بالتأكيد، لم يكن ميمي قد سمع عن المثل العربي الشهير: «انجُ سعد فقد هلك سعيد»، لكنه اقترب من روحه ومعناه، حين قال لي منفعلاً بعد سويعات من دفن أمه: «ما خلاص.. الست اللي كنت باقي عليها في الدنيا راحت عند اللي خلقها.. يعني من دلوقتي ورايح ياالله نَفسي.. ولو ولاد الوسخة فاكرينّي هاطلع من المولد بلا حمص.. هاصوّر لهم قتيل في قلب الشقة وعليّ وعلى أعدائي».

وأولاد الوسخة الذين يقصدهم كانوا أخته وزوجها وأبوه القادم من المجهول، أما المولد الذي تحدث عنه فلم يكن كما ظننت مجرد الخناقة على تقسيم ملابس أمه وأوانيها وما تبقى من «سيغتها»، بل كان خناقة أكبر وأخطر حول مصير الشقة التي أصبحت الآن «على زبّ عفريت»، طبقاً لزلة اللسان المعبّرة التي وصّف بها ميمي من غير أن يقصد حالي مع الدنيا، منذ أن رقدت أمه على رجاء القيامة.

كانت الخناقة قد بدأت فور دخولنا إلى الشقة عائدين من المقابر على متن ميكروباص متهالك، كان شعراوي قد أجّره ليذهب بالمعزين من الأهل والجيران إلى المقابر ويعود بهم منها، وهو ما حرص على التذكير به في صيغ مختلفة الرزالة سمعتها خلال رحلة العودة، لأنني كنت شبه غائب عن الوعي في رحلة الذهاب، وأنا أحاول التعامل مع الخازوق الذي وجدته فجأة مرشوقاً فيّ.

حين مال عليّ ميمي الذي اختصني بشرف الجلوس جنبي في رحلة العودة، وهمس في أذني متسائلاً عما إذا كنت قد رأيت أمه ساعة الغسل وهي ترتدي سلسلة ذهبية أم لا؟ أدركت ما أنا مقبل عليه حين أعود إلى شقة الفقيدة، وفكرت في أن أستأذن في النزول على جنب، أي جنب والسلام، متحججاً بأن لدي موعداً مهماً لا يقبل التأجيل، لكنني كنت على وشك أن يغمى عليّ من الإعياء

والجوع، ولذلك قررت أن أتحلى بالشجاعة والصبر، وأذهب إلى المطعم لأحضر شيئاً آكله، ثم أعود إلى غرفتي لألبد فيها، فآكل ثم أسلم نفسي للنوم فوراً، لكيلا أفوت محاضراتي المهمة في الغد، مسلماً أمري لله لكي تحميني عنايته من أذى الفأرين والبرص.

حين أوصلنا الميكروباص إلى مدخل شارع خلف كازينو إيزيس بعد أن قام بإنزال أغلب حمولته من المُعزّين، طلب مني شعراوي أن أؤجل ذهابي إلى المطعم لإحضار ما سآكله، عارضاً أن نذهب إليه معاً، ثم طلب من صبحي وفاتن أن يظلا في الميكروباص لكي يوصلهما إلى بيتهما، حيث ينتظرهما أبناؤهما منذ زمن، لكن فاتن التي ما صدقنا أنها هدأت أغلب طريق العودة، عادت لترقع بالصوت الحيّاني، وأقسمت أنها لن تذوق طعم النوم الليلة إلا على سرير أمها، خاصة أن عيالها في الحفظ والصون، لأن أباهم سيبيت معهم الليلة بعد أن يطمئن عليها، وأظن أنها استبعدت فكرة بيات صبحي معها في الشقة، لأنها شعرت أن شعراوي وميمي لن يبلعا الفكرة، وسيتخذانها سبباً لإجبارها على العودة إلى شقتها.

هز الاثنان رأسيهما على مضض، لكن شعراوي أقسم لها أنه لو سمع صوتها يعلو بالبكاء أو الصويط أو الندب، لرماها في الشارع رمية الكلاب، مبرراً تحذيره الغاضب بأن «أصل أنا وميمي ورانا شغل بكره والأستاذ وراه جامعة»، وفي حين كنت أنظر مندهشاً إلى إصبعه الذي أشار إليّ بوصفي «الأستاذ»، وإلى لسانه الذي أعرب عن انشغاله بمسألة ذهابي إلى الكلية، صدرت عن ميمي زمزقة خفيفة لم يترجمها إلى كلمات، ومع ذلك فقد نزل على خده قلمٌ كاد شرره يضيء عتمة الميكروباص، أكد بعده شعراوي أنه لن يسمح لـ«حتة عيل خريان شغال باليومية» مثل ميمي أن يعمل من موت أمه «حلوانة في سلوانة» للتهرب من المسؤولية والقعاد دون شغلة ولا مشغلة، مضيفاً أن «الحزن في القلب مش في الطيز»، ومتباهياً أنه فتح صالون الحلاقة بعد ساعتين من دفن جد ميمي، تنفيذاً لوصية الجد الجدع الذي علّمه أن «الأرزُقي ما يقعّدوش عن رزقه غير الموت»، ملوحاً بإصبعه الأوسط في وجه ميمي وهو يضيف: «موته هو مش موت أمه يا خيبتها».

استجابت فاتن لتحذير أبيها، ولذلك «سورَقِت» وانطرحت أرضاً فور دخولها إلى الشقة، ربما لأنها لم تتحمل فكرة كتم انفعالاتها، أو لأنها كانت تتصنع الإغماء لسبب أو لآخر، فلفحها صبحي على كتفه ومدّدها على كنبة أمها، وقبل أن يفرد صبحي ظهره، كان ميمي قد طَبَق في زمارة

رقبته، مصدراً أصواتاً تشبه الفحيح، تبينت منها عبارة تقول: «اطلع بالسِنسلة يا متناك»، ليتضح أن فاتن لم يكن قد أغشي عليها أصلاً، فقد نَطَرَت نفسها من على الكنبة لتحاول تخليص زوجها من قبضة أخيها، فرزعها ميمي كوعاً أعادها إلى الكنبة مغشياً عليها بجد هذه المرة، وحين نظر صبحي الذي يغالب الاختناق إلى شعراوي مستنجداً، تجاهله شعراوي واقترب مني مربتاً على كتفي، وهو يقول لي مطمئناً بنبرات حنونة مريبة: «سيبك منهم دلوقتي يتصافوا»، ثم أخرج عشرة جنيهات من جيبه، وقال لي بضحكة لا يتحمل الموقف اتساعها: «على ما أصالحهم على بعض.. هات لنا عشوة على ذوقك.. هنتعشى النهارده على شرف المرحومة»، وحين نظرت مندهشاً إلى صبحي الذي كادت روحه تطلع في يد ميمي، قال شعراوي بابتسامة عريضة: «ما تشغلش بالك بيه، لو كان سرق السلسلة يبقى يستاهل، ولو كان مظلوم ربنا هينجيه، يالله والنبي قبل ما المطعم يقفل».

حين عدت من المطعم بتحبيشة من السندوتشات والسلطات والمخللات، كان الموقف في الشقة قد اختلف تماماً، حيث جلست فاتن بين صبحي وميمي متراصين كالتلامذة على دكّة واحدة، في حين جلس شعراوي بمفرده على الكنبة الأخرى، واستقرت السلسلة التي نَتَشها صبحي في المشرحة على الترابيزة التي تتوسط الكنبتين.

أذهلني ما رأيته، خاصة أنني كنت قد استرقت السمع فور عودتي، فلم أسمع حساً عالياً ينبعث من الشقة، فتصورت أن ميمي قد أجهز على صبحي وفاتن وأبيه في نوبة غضب متصاعدة، وأنني حين أفتح باب الشقة، سأجده يمسك بزجاجة رأس العبد، ويرقص عارياً إلى جوار الجثث الثلاث. نظر شعراوي إلى ذهولي مبتسماً بفخر، لأن ملامحي عبرت عن إقراري الأكيد بقدرته على السيطرة والحسم، ومد يده إلى السلسلة ونقلها إلى جواره على الكنبة، طالباً مني أن أضع السندوتشات على الترابيزة، وأدخل إلى الحمام لأتشطف وأنفض عني تراب المقابر، وأعود لنأكل لقمة مع بعض.

حين عدت من الحمام، كان ميمي وصبحي وفاتن قد بدأوا في التهام سندوتشاتهم بنهم، فيما كان شعراوي ينتظر قدومي بابتسامته المقلقة، ماداً يده نحوي بسندوتش، ومربتاً بالأخرى على الكنبة لكي أجلس إلى جواره، وما أثار استغرابي أكثر أن ذلك لم يلفت أنظار الثلاثي اللعين التي توزعت بين أكياس السلطة والطرشي ولفات السندوتشات، وهو ما كنت أدرك أنه لا يرجع إلى الجوع

الشديد الذي تملك الثلاثة، بقدر ما يرجع إلى شيء ما فعله شعراوي في غيابي، أقنع الجميع بأن يتحلوا بهذا الضبط المريب للنفس، وكان كل ما يهمني ألا يكون لهذا الشيء علاقة بشخصي التعيس، وهو ما استبعدته بفضل فئران الشك التي كانت تعربد في عبّي، بصخب يفوق عربدة الفأرين في غرفتي.

لم يدم بقاء السندوتشات طويلاً، بعد أن تفرغنا جميعاً للأكل دون أن نتبادل كلمة، وحين تلاشت أصوات المضغ والبلع والخرخشة، ساد في الصالة صمت طويل، قطعته تكريعة مدوية من شعراوي، أعقبها بأن طلب من فاتن أن تعمل لنا شوية شاي حلوين، على ألا يكون الشاي ثقيلاً، لكيلا يقلق منامنا، ليطلب صبحي من فاتن ألا تعمل حسابه في الشاي لأنه سيشربه في البيت حتى لا يتأخر على العيال، ففاجأتني حين قالت له إنها ستشربه معه في بيتهما، لأنها قررت أن تبات في حضن عيالها، لأن ذلك سيبسط أمها أكثر ويريحها في طُربتها.

دون أي اندهاشة، وقف شعراوي ليطبطب عليها بمنتهى الرضا، قائلاً لها إن ذلك عين العقل، طالباً من ميمي أن يضع برّاد الشاي على النار، لأنه سيذهب لتوصيل فاتن وصبحي، ويكمل كلامه معهما في الطريق، وحين شعر أن حيرتي أصبحت أقوى من كل محاولات كتمها، نظر إليّ بذات الابتسامة اللزجة وقال وهو يضع يداً على كتف فاتن وأخرى على كتف صبحي: «حكاية السلسلة دي كانت وزّة شيطان.. معلهش البني آدم مننا ضعيف وصبحي كان فاكر إنه بيحمي حق أم عياله في وِرث أمها.. بس خلاص هو اتأسف وعرف غلطه.. عشان حق ميمي وفاتن في حاجة أمهم محفوظ وهيتقسم بينهم بالعدل.. دهبها هيتباع بأعلى سعر يطلع منه وهيتقسم تمنه عليهم بما يرضي الله.. وأنا ما ليش فيه حتى سمسرة البيع.. المرحومة ما كانتش على ذمتي لما ماتت فحق ربنا ماليش في حاجتها.. هدومها هتروح لفاتن تعمل بيها اللي هي عايزاه.. ميمي هياخد المكواة والراديو والمنبّه.. وكل اللي متخزن في الدواليب وفوقيها وتحت السرير هيتقسم بالعدل أيا كان.. بس كل ده هيحصل بعد ما نعدي أربعين المرحومة.. عشان إحنا مش جعانين.. إحنا جدعان وكسّيبة وربنا ساترها معانا.. ومش هنفرّج الناس علينا.. صحيح إن انت مش غريب.. بس برضه ما يرضينيش إن ولادي يبانوا قدامك طمعانين في حاجة مامتهم.. هي حقهم بس هياخدوها بالأصول وبما يرضي الله سواءً كانت ملاية ولا سلسلة ولا حتى كلوتّ ولا مؤاخذة.. إنما المواعين والأجهزة وعفش الشقة.. كل ده ما حدش هيقرب له.. عشان أنا اللي شاريه من حر مالي.. أصل

يعني دي في الآخر شقتي ومكتوبة باسمي.. ومش من حق حد يتصرف في حاجة فيها إلا بإذني.. سليم الكلام ده يا عيال؟».

هز الثلاثة رأسهم باستسلام زاد من غموض الأجواء، وضاعف رغبتي في معرفة ما حدث خلال غيابي، فلم يعد أمامي سوى انتظار خروج شعراوي مع صبحي وفاتن، لأبدأ في استنطاق ميمي، لعلي أعرف منه ما الذي قلب حاله هو وأخته وزوجها في ذلك الوقت القصير، ومع أن رغبة كهذه لم تكن ليفوت إدراكها على شعراوي الذي ما زلت أميل برغم ما طرأ عليه من تغيير في الساعات الأخيرة لوصفه بالزِناوي، لكنني لم أعد متأكداً من درجة «زناويّته» التي وصفتها أم ميمي.

الغريب أن شعراوي لم يبد قلقاً من انفرادي بميمي على الإطلاق، بل إنه طلب من ميمي أن يؤجل عمل الشاي حتى عودته لنشربه معاً من غير ما يبرد، ثم طمأنني أنه لن يؤخرني عن النوم لكي ألحق بكليتي في الغد، ثم سألني فجأة عن المواد التي سآخذ محاضرات فيها غداً، وقبل أن أفتح فمي بالإجابة، قال مبتسماً: «ولا أقول لك خليها لما أرجع عشان عايز أفهم منك إيه اللي بتدرسه.. مين عارف مش جايز أخش معاك الكلية.. مش عندكو نظام انتساب برضه؟ وساعتها هابقى أذاكر معاك بعد كده اليوم بيومه».

كشفت العبارة الأخيرة عن وقائع انتقال حتمي وعاجل، من شعراوي المقيم في مكان ما لا أعلمه في الضاهر، لكي يعود للإقامة في شقته المؤثثة بعفشه الذي اشتراه بفلوسه، وكان ذلك كافياً لتحويل قلقي إلى هلع جاهدت في ضبطه، وأنا أفكر في أنسب مدخل لجرجرة ميمي إلى الكلام المفيد في أسرع وقت، لكن ميمي بالعبارات التي افتتح بها كلامه فور أن خلت الشقة لنا، أثبت أن هدوءه الطارئ والغريب كان مجرد تكتيك مرحلي للتعامل مع أبيه، وأنه غير راضٍ عن الترتيبات التي قرر شعراوي اتخاذها، والتي كنت سأموت وأعرف تفاصيلها، لكنني أدركت أن أي تساؤل سيفرمل اندفاع ميمي ورغبته الجليّة في البعبعة، فكسوت وجهي بقناع من الهدوء الكاذب، زيّنتُه بابتسامة لزجة تشبه تلك التي يرسمها شعراوي على وجهه، وأخذت أنصت إلى انفجار ميمي مكتفياً بهز رأسي المثقل بالمخاوف من حين لآخر.

لم أكن مُحقاً حين تصورت أن شعراوي استعان بمطواته لفرض سيطرته على الأوساخ الثلاثة، فقد استعان بما هو أقوى منها تأثيراً. استعان بلغة المصالح التي لا يمكن لسواها أن يروِّض وحشاً كاسراً مثل ميمي، ولو إلى حين، لكنه قبل ذلك مباشرة، اضطر للاستعانة مجدداً بالمطواة لكي يفك

الاشتباك البدني الذي عاد إليه ميمي وصبحي، ثم استعان بكوب من الماء لإفاقة فاتن من إغمائها الذي تسبب فيه كوع أخيها، وحين أخرج صبحي - بالذوق بدلاً من العافيةـ سلسلة حماته من «عِبّ» فاتن، التي لم يشغلها الحزن عن مساعدة زوجها في تخبئة غنيمته، وضعها شعراوي على الترابيزة، ثم لوّح بالمطواة في وجه ميمي، ليفرمل هجمة كلامية كانت ستتلو الشخرة التي وجهها لأخته، ثم وجّه لصبحي سؤالاً مباشراً عما دار بينه وبين «أبو سامية المعرّص» حين اختلى به في ركن ما من المقابر، وهو ما لم يكن ميمي قد لاحظه وسط نوبات الجنّونة التي كانت تعاوده من حين لآخر، مع أنها لم تمنعه من ملاحظة اختفاء سلسلة أمه بعد خروجها من المشرحة.

لم ير صبحي فائدة من اللّوَع، فقرر أن يصارح شعراوي بالحقيقة، وأخبره أنه تلقى عرضاً واضحاً بالتعاون البنّاء من الجار الذي لا يحب أن يؤجل عمل اليوم إلى الغد، لذلك وعد صبحي بمكافأة مجزية إن ساعده في إقناع ميمي وفاتن ببيع الشقة له، لأنه في أمسّ الحاجة إليها، وحين سمع شعراوي ذلك انبعثت منه ضحكة عالية مصحوبة بشخرات متقطعة، اكتشف ميمي وفاتن وصبحي على إثرها، أن المرحومة كانت قد كذبت عليهم حين قالت إنها لم تتمكن فقط من هزيمة شعراوي في ساحة العدالة بإجباره على الطلاق، بل ونجحت في انتزاع ملكية الشقة منه لتكتبها باسمها، وهو ما قال لها كل من ذهبت إليهم من محامين إنه حكم لن يصدره حتى أرق القضاة قلباً، لمخالفته الصريحة لحق شعراوي الدستوري في ملكية الشقة التي دفع فيها دم قلبه، خاصة أنها لم تعد حاضنة وصار أولادها «شُحوطة»، لكن أمهم قررت مواصلة العيش في وهمها اللذيذ، وجعلت ميمي وفاتن وزوجها يشاركونها في ذلك الوهم، على أمل أن تنتقل إليها الشقة بعد هلاك شعراوي، الذي لم تكن تتصور أن عزرائيل سيزورها قبله بكثير.

كل هذا أوصله أولاد الحلال في أوقات مختلفة سابقة إلى مسامع شعراوي الذي أعاد حكايته لميمي وصبحي وفاتن، ولم يمنعه التأكيد على طول عمره المرجوّ، من تذكير المكبوسين الجاثمين أمامه بأن الأعمار بيد الله، وأن الشقة ستكون نظرياً من حظهم ونصيبهم بعد عمر طويل، لكنه لن يسمح لأبنائه أن يتمنوا موته ليحصلوا على حقهم منه، وأنه لم يعد يرى أهمية الاحتفاظ بهذه الشقة بعد كل ما جرى فيها من مصائب، جعلتها قدم نحس على كل من سكنها، وبالأخص أمهم التي ماتت ناقصة عمر، ولذلك لن يعارض فكرة بيع الشقة، خصوصاً أنها لن تجد مشترياً يُقبل عليها بشغف، أكثر من «المعرّص أبو سامية» الذي سيستخدمها لتوسيع «شغله في المنيكة».

كان إيقاع ميمي في حكي ما جرى أسرع من معدل انبعاث التفتفة من فمه، لأنه كان يرغب في استشارتي فيما ينبغي عليه فعله قبل عودة أبيه، مع أنني كنت أرغب في الارتماء في حضنه لألطم وأصوّط وأشنشن نادباً حظي الذي كنت أظنه وصل أقصى درجات سواده، حين قرر شعراوي أن يضيف إلى الإيجار أربعين جنيهاً مرة واحدة، فإذا به يخبئ لي درجة سواد أشد قتامة، حين أصبح عليّ أن أبحث في مثل هذا الوقت عن خرم إبرة «أتّاوى فيه» حتى ينتهي العام الدراسي، لكن ميمي قرر من غير قصد أن يهدئ من روعي قليلاً، حين أضاف أن شعراوي طلب منهم أن يعاونوه في تعلية الثمن الذي يمكن الحصول عليه من «المعرّص أبو سامية»، والذي لن يعرض ثمناً مرتفعاً من تلقاء نفسه، بل سيفعل ذلك حين يكتشف أن عودة شعراوي إلى الإقامة في الشقة، لن تهدد فقط أحلامه في التوسع في المنيكة، بل ستؤثر على نشاطه الحالي فيها، لأن شعراوي ينوي أن يشتغل له في الأزرق فوراً، ليجبره على الجلوس معه على مائدة المفاوضات، راوياً لهم أنه سيكون له في المرحومة أمهم أسوة حسنة، حين فرضت على جارها بذكاء شديد، أن يدفع لها تلك الإتاوة الشهرية، التي لم يكن عيالها يعلمون عنها شيئاً، لكن ما قاله لهم أبوهم فسّر لهم حرصها الشديد على إسكان الشقة بطلبة واقعين من قعر القفّة مثل حالاتي، ليكونوا عوناً لها ولجارها المعرّص في التغطية على ما يجري في الأعلى، وهو ما لم أكن بحاجة إلى أن يكرره لي ميمي بعد أن سمعته من أبيه قبل ساعات، لكن ميمي لم يكن يعرف ما دار بيننا، ولذلك كان عليّ أن أتصنع دهشتي الشديدة مما يحكيه، ليساعدني ذلك على إخفاء ما يتنازعني من مشاعر الأسى والقرف والفضول الممزوجة بكميات مهولة من القلق.

كان شعراوي يعلم أن ميمي بالتحديد لا يثق فيه بـ«نِكلة»، وأنه كان بالتأكيد يشك في كل ما قاله عن استمرار ملكيته للشقة، لكنه كان يحتاج إلى بعض الوقت لمغالبة ذهوله والتفكير فيما يجب عليه أن يقوله، وهو ما لم يخف على فطنة أبيه الذي أخرج من محفظته الضخمة «المقيّحة» صورة لعقد ملكية الشقة، طالباً منهم أن يذهبوا إلى محامي أمهم الذي استصدر لها ذلك الحكم الذي أخرجه من حياتها، ليتأكدوا بأنفسهم مما قال، راجياً منهم ألا يفوتوا فرصة التعاون معه للخروج من جارهم المعرّص بأكبر مصلحة ممكنة، مؤكداً أنه سيكون صريحاً معهم منذ البداية في تحديد نصيبهم من تلك المصلحة، ولذلك سيعطي كلاً من فاتن وميمي نسبة 15 في المائة مما سيحصل عليه، على أن يحصل صبحي على «حلاوة» إضافية سيترك تحديد قدرها لما يجود به المولى الرزاق، محذراً ابنه وبنته من بعبصة الشيطان لهما بأفكار قد تحضّهما على طمع سيقلّ ما جمع، فيخرج الجميع من المولد بلا حمص، لأن شعراوي يمكن له ببساطة أن «يجيب ضُرَف» أحلامهم

في الشقة، لو قرر أن يتزوج فيها من بكره، إن لم يكن من الليلة، «وما فيش أكتر من النسوان اللايدة في شارع الهرم»، وهي حجة بدت لهم منطقية ومفحمة، فلم يفتح أحدهم فمه مقترحاً رفع نسبته ولو حتى بشيء من الزمزقة.

حين طلب مني ميمي أن أسرع في إبداء رأيي في خطة أبيه قبل عودته إلى الشقة التي صارت وصرت معها «على زبّ عفريت»، كان عليّ أن أفكر ألف مرة في أي تعبير يرتسم على وجهي، فضلاً عن أي كلمة تخرج من فمي، لأن ميمي ليس من الكائنات التي تتعايش لفترة طويلة مع الحكمة، ويمكن لأي كلمة طائشة أن تؤدي إلى تسخينه بشكل فوري، فيهبّ في وجه أبيه فور عودته، ويتهمه بالنصب عليه وعلى فاتن، أو ربما اتهمه بالتآمر مع صبحي وفاتن عليه، طالباً منه تعلية نسبته على الفور، «لإن ده شرع ربنا» طبقاً لما قاله حين سألني عما إذا كنت أرى النسبة التي عرضها شعراوي عادلة، أم أنها أقل مما يستحقه، ومن يدري ربما تصاعدت المواجهة بينهما وطال السلاح فذبح أحدهما الآخر بمطواة شعراوي، لأعود ثانية إلى المشرحة، أو ربما دخلتها أنا شخصياً هذه المرة، لو اختار ميمي أن يحتمي بي من مطواة أبيه، أو اضطر شعراوي إلى أن يحتمي بي من خطف ميمي لمطواته، أو ما إلى ذلك وسوى ذلك من السيناريوهات النَكِدَة التي تدافعت في رأسي، فألجمت لساني عن النطق بكلمات مفيدة، وهو ما أغضب ميمي الذي شخر لي لأني لا أملك سوى «التأتأة المتناكة اللي لا تودّي ولا تجيب».

أنقذني من تصاعد غضب ميمي، ترزيع أبيه على باب الشقة، الذي نزل عليّ برداً وسلاماً لم أعهده منذ أن دخل إلى حياتي، صحيح أنه كان سلاماً مؤقتاً، لكنني كنت سأطلبه بأي طريقة، حتى لو اضطررت إلى التأسّي بفاتن فأسقط مغشياً عليّ في قلب الصالة، وهو ما كان سيحدث حتماً لو قرر شعراوي أن يستأنف طاحونة اللتّ والعجن، التي لم تتوقف عن الدوران من مطلع ذلك اليوم المشؤوم، لكنه كعادته في مخالفة ظني مؤخراً، شخط في ميمي حين سأله عما دار بينه وبين صبحي وفاتن خلال توصيله لهما، مستنكراً أن يفتح «حتة عيّل بشخّة» تحقيقاً مع أبيه في أنصاص الليالي، ومتخذاً من عكننة ميمي له ذريعة لإلغاء مشروع شرب الشاي، متمنياً لي بمنتهى اللطف أن أصبح على خير وهو يتجه نحو غرفة المرحومة، وقبل أن ينطق ميمي بكلمة استنكار، نظر إليه قائلاً بتحدٍ: «عايز تخش تتخمد معايا على سرير أمك، ولا تخاف تعملها يا دَكَر؟»، ثم دخل الغرفة وقَفَل على نفسه الباب، ليتبعه ميمي بعد لحظات من التفكير، قرر بعدها أن يثبت شجاعته

لأبيه، وحين خلت لي الصالة قررت ألا أجازف بالنوم في غرفتي المسكونة، وأن أختار الأضمن والأسلم، وأنام على الكنبة.

عن إشكالية أن تعتبر
شعراوي «زي أبوك»

حين عدت من الكلية في مساء اليوم التالي مرهقاً قلقاً ومتحسباً لقدوم الأسوأ، كان كل شيء في شقة أم ميمي قد اختلف عما تركته عليه في الصباح، اختلافاً كان يبدو ظاهرياً نحو الأفضل، لكنني لم أكن لأنخدع بذلك بعد كل ما عرفته عن شعراوي، ولذلك توقعت قدوم الأسوأ بسرعة أشد وتيرة، ويؤسفني أنني كنت على حق.

كنت قبل أن أغادر الشقة إلى كليتي، قد شعرت أن شعراوي يخطط لأمر ما، منذ أن صحوت من نومي على صوت المنبه، فوجدته يجلس على الكرسي المواجه لي، وهو يبحلق فيّ مبتسماً، ويلقي عليّ تحية الصباح، ثم يشفط من اصطباحة شايه شفطة كبيرة، وبعد أن أثنى على سرعة استيقاظي على صوت المنبه، بعكس ابنه «الخريان» الذي لا يصحو من نومه إلا بالبعبصة والضرب على القفا، سألني عن سر نومي في كنبة الصالة، بدلاً من نومي في غرفتي التي أدفع في إيجارها دم قلبي، وقبل أن يأخذ من إجابتي المتلعثمة عُقاداً نافعاً، نظر إليّ معاتباً وقال إنه لم يصدق ما رواه له صبحي وفاتن عن خوفي من الفأرين والبرص الموجودين في غرفتي، ليتضح أن مشواره بالأمس مع صبحي وفاتن، لم يكن ميمي المستهدف به، وأنه كان يسعى إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عني، مما يجعلني هدفه القادم في خطة ما لا يعلمها إلا الله، وحين اعتذرت له بأن الوقت أضيق من أن أشرح له تفاصيل موقفي، لأنني لا أرغب في التأخر على أول محاضرة، قال إنه يتفهم الأمر، وأنه سيكون لدينا الكثير من الوقت لنتحدث عن الموضوع بعد عودتي، لأنه حتى الآن لم يتشرف بمعرفتي حق المعرفة، مع أنني أصبحت أعرف عنه الكثير، مؤكداً على أن ما جمعنا من سندوتشات في ليلة الأمس العصيبة، لا يُعد كافياً لنقلنا إلى مرحلة «بيننا عيش وملح»، لكننا سندخلها مساء اليوم بعد أن أعود من الكلية، حين نتغدى معاً على حسابه، كأقل واجب

لشكري على كل ما بذلته من مجهود في دفن الست التي مهما كانت وليّة بنت قحبة، فهي في الآخر أم عياله.

لم يكن لدي في الأصل خيار رفض العزومة التي ربما كانت في النهاية «عزومة حلاقين»، لكنني لم يكن لدي مانع أيضاً من قبولها، للمساهمة في تعويض الخسائر التي أصابت ميزانيتي في أيام مرض المرحومة. بالطبع لم أتوقع الكثير من شخص مثل شعراوي، يوحي مظهره العام بنتانة مؤكدة، لكن شعراوي استمر في تخييب توقعاتي، فبمجرد أن عدت من الكلية وفتحت باب الشقة المعفّنة على الدوام، وجدتها فجأة نظيفة جداً، تخلو حيطانها مما كان يكسوها من طبقات الغبار، وتخلو أرضية صالتها من ذلك الكليم النتن، فتصبح أوسع بشكل ملحوظ، ويظهر لأول مرة بلاطها الذي بدا عليه أنه تعرض لغسلة محترمة، في حين انبعثت من أجواء الشقة رائحة بخور مريحة غير خانقة، وحين خرج شعراوي من غرفة أم ميمي، وقد ربط رأسه بمنديل محلاوي، وشمّر قميصه حتى ذراعيه، ورفع بنطلونه إلى ركبتيه، رآني أنظر إلى ما حولي متعجباً، فأشار بيده نحو غرفتي، التي لم أكن قد التفتّ إليها كعادتي، فإذا بها قد أصبحت خلقاً آخر، حيث انتقلت الكنبة التي كنت أنام عليها في الصالة، لتحل محل المرتبة الملقاة على الأرض، والتي لا أدري أين ذهبت، بينما انتقلت الترابيزة الصغيرة والكرسي إلى جوار الشباك الذي أصبح زجاجه وشيشه الخشبي يلمعان من فرط النظافة، وأصبحت الغرفة أوسع بشكل غريب، بعد أن خرج منها إلى الصالة ذلك الدولاب التعيس الذي كان يحتل ثلث مساحتها.

إذا كنت تتساءل الآن لماذا لم أقلق على ما في الدولاب من مدخرات، دعني أطمئنك أنني كنت - في تصرف حكيم ومتوقع– قد اصطحبتها معي في الصباح، وأودعتها لدى أغنى أصدقاء دفعتي الدراسية، آملاً أن يردعه أصله الطيب عن لطشها أو عن إضاعتها ليضيع مستقبلي معها، وهو نفس السبب الذي جعلني أستبعد إيداعها لدى صديقي ناجي الذي كان أقرب إلى قلبي، لأن الشيطان وسوس لي أنه ربما عانى من زنقة مادية اضطرته إلى اللجوء لتحويشة عمري لفك زنقته، دون أن ينجح في تعويضي الفوري أو السريع عن فقدها.

لذلك فضلت اللجوء إلى أغنى أصدقائي برغم غرابة أطواره، والتي لفتت انتباهي إليه منذ أن أصر وهو يسلم عليّ حين التقينا لأول مرة أن يعرفني باسمه الرباعي: «أمجد بشندي متواضع قلادة»، قبل أن يقول لي إنه سمع من زميلة لنا أنني أعطيتها ملخصاً ممتازاً لمحاضرات علم الاجتماع،

متسائلاً هل أفعل ذلك مع البنات فقط أم أنني يمكن أن أخدم «الخناشير الذُّكورة» المحتاجين للمساعدة أيضاً، وحين ضحكت وقلت إنني يسعدني أن أعطيه الملخص بكل ترحاب، وأنني لا أعتبر ما أفعله خدمة، لأنني لا أجد مبرراً في الاستفادة من الملخص لوحدي بعد أن قمت بعمله، عاد لمصافحتي بحرارة مكرراً اسمه الرباعي، ثم سألني عن اسمي الرباعي وعن مكان سكني، وحين استغربت السؤال عن مكان سكني، قال إنه سيكون في أتم السعادة لو سمحت له بتوصيلي إلى البيت، وحين قلت له إنني أسكن في آخر شارع الهرم، لأجعله يلغي الفكرة، قال إنه سيسعد بتوصيلي، لأنه يسكن في العمرانية، حيث تمتلك أسرته مصنعاً للزبادي والألبان وآخر للحلويات، وحين أشار إلى سيارته التي ركنها خارج سور معهد الإحصاء، أدهشني أنها كانت مرسيدس بيضاء حديثة الموديل خلابة المنظر.

كان أغنى من عرفتهم من زملاء الدفعة قبل أمجد، يمتلك سيارة فيات 128، ومع ذلك كنت أنا وأغلب زملائي نحسده على نجاته من جحيم المواصلات، لذلك كان من الطبيعي أن تنفح عليّ مشاعر مختلطة من القلق والتوتر والعنطزة الكذابة حين رأيت سيارة أمجد المرسيدس، لأرفض بإلحاح رغبته في توصيلي إلى البيت، ثم اضطررت للكذب قائلاً إن لديّ مشواراً عائلياً مهماً لا بد أن أقوم به الآن، فأنجاني ذلك من إلحاحه، لكنه لم ينفعني بعدها حين أصر على توصيلي إلى البيت في مرة لاحقة، ضبطني فيها متلبساً بالجري خائباً وراء الميكروباصات المزدحمة أمام باب الجامعة، ولم أكن أعلم وقتها أن ناجي ولسانه، وأمجد وسيارته، سيكون لهم دور كبير في ما سأشهده مع شعراوي من تطورات، وهو ما جعلني أجيب لك سيرتهما الآن ببعض من التفصيل.

كان علي أن أتظاهر بالسعادة وألهج بآيات التقدير، وأنا أرى شعراوي يستعرض إنجازه في جعل الشقة مكاناً آدمياً به الحد الأدنى من النظافة، مع أنني كنت أعلم أنه لم يفعل ذلك لوجه الله أو من أجل خاطر عيوني، وأن ما رافق عملية التنظيف من خبط ورزع وكركبة وتنفيض، كان من أجل إرسال رسالة واضحة إلى جاره الطمعان في الشقة، بأنه ينوي البقاء فيها لفترة أطول مما يتخيل، وأنه لن يجعل مهمة شرائه لها سهلة كما يظن، ثم استنتجت أن نقل الكنبة التي كنت أنام عليها في الصالة إلى داخل الغرفة، كان رسالة موجهة لي من شعراوي بأنني يجب أن أترك له الصالة وألزم حدود غرفتي، كما كان يفترض منذ البداية، وهو ما لم تمر ثوانٍ حتى تأكد، حين دخل شعراوي إلى غرفتي بعد أن كان يقف خارجها، ثم مد يده إلى باب الغرفة، وقام بإغلاقه، وقبل أن أسارع بتنبيهه إلى خطأ ما فعله، فتح الباب ثانية بسهولة، ونظر إليّ في جذل، ليتضح أنه لم يكتف

بإحضار من يساعده في تنظيف الشقة، بل قام في نفس الوقت بإحضار نجار قام بإصلاح باب غرفتي، وإحضار سباك قام بإصلاح حنفية المطبخ التي لم تكن تكف عن التنقيط، وماسورة التواليت التي لم تكن تكف عن التسريب، وقام أيضاً بإحضار «بتاع تلّاجات» قام بحمل الثلاجة الخربة لإصلاحها متعهداً بتسليمها خلال ثلاثة أيام بالكثير، وكلها تطورات تاريخية كان يمكن أن أبتهج لها، لو لم أكن على يقين أن شعراوي - بغض النظر عن كونه زناوياً أم مجرد معرص أم بين المنزلتين– لا يمكن أن يفعل أياً من ذلك دون أن تكون له مصلحة مباشرة، سترد له ما صرفه «الطاق طاقين».

لكنني بعد مزيد من التفكير، استبعدت في عقل بالي أن يكون لإسراع شعراوي بعمل كل هذه الإصلاحات علاقة مباشرة بموضوع بيع الشقة في أسرع وقت، لأنه كان يمكن أن يقوم بذلك على أقل من مهله، فيكتفي بتنظيف الشقة، ثم يبدأ في إصلاحها شيئاً فشيئاً، على الأقل بعد أن يقوم باستلام الزيادة التي طلبها في الإيجار، أو يقوم بمساومة ميمي على الاشتراك معه في دفع تكلفة الإصلاحات، وجعلتني حركة إصلاح الباب بالتحديد أميَل إلى أن شعراوي ينوي جعل بقية الشقة منطقة تخصه هو وابنه دون شريك، ولأن ابنه يغيب عن الشقة أغلب ساعات النهار، ويوماً بأكمله كل أسبوع، فإن غرفة أم ميمي التي كانت عش زوجيتها السابق مع شعراوي، ستكون صالحة لكي يستأنف على الفور نشاطه السابق في التعريص، والذي لم ينفه خلال حديثه لي، وإن كان قد حاول تصوير نفسه كمجرد منفذ لرغبات أم ميمي، ومُفرمل لتوسعها في النجاسة، لكنه لم ينف أن الشقة كانت تستخدم في الماضي كوكر لطالبي المتعة الحرام، على حد التعبير الأثير لمحرري صفحات الحوادث.

بالتالي، إذا كانت أم ميمي قد جعلت من تأجير غرفة في شقتها لطالبي السُكنة الحلال، ستاراً يعين «أبو سامية المعرص» على ممارسة المنيكة، فلماذا لا يتخذ شعراوي من وجود طالب إعلام «مَلو هدومه ومرزوع في غرفته طول اليوم»، ستاراً يعينه على التعريص الآمن في ساعات المساء والسهرة التي قال لي قبل ذلك إنها تمثل ساعات الذروة التي يسهل فيها إيجاد زبائن أسخياء، على عكس زبائن ساعات النهار الذين يكونون عادة ممن ضربهم السلك، وليس لديهم شغلة أو مشغلة، لكن ذلك إن صح، يتناقض مع حركة إخراج الدولاب من الغرفة، ووضعه في ركن خالٍ من الصالة، صحيح أن استخدامي للدولاب لم يكن «مقطّع بعضه»، فأغلب ما فيه كتب ومجلات، مع

قليل من الهدوم، لكن مجرد إخراجه إلى الصالة كان يعني تأكيداً على حقي الذي كفلته أم ميمي من قبل في استخدام باقي أرجاء الشقة، ما عدا غرفتها.

أفقتُ من «تَولة» تلك الخواطر المتضاربة على صوت شيش شباك الغرفة وهو يُفتح على مصراعيه، ويرتطم بحائط البيت، لأرى شعراوي يقف إلى جواره منشكحاً مثل فتيات الإعلانات، وهو يقول بحماس إنه سيركب للشباك سلك شَبَك على آخر الشهر، ليكون بمقدرتي وقتها أن أفتح الشباك لتهوية الغرفة التي كانت مكتومة كتمة سوداء، خصوصاً أن الشتاء قد قارب على الانتهاء، واقترب دخول الربيع بخنقته وتلزيقه، مضيفاً أنه سيقوم بتركيب مروحة سقف استعداداً لدخول الصيف الذي تتحول فيه الغرفة إلى فرن خانق، وبالطبع لم أعلق قائلاً إنه بعون الله لن يرى خلقتي قبل دخول الصيف، لكنه قال كأنه يقرأ أفكاري إن تركيب الشَبَك والمروحة سيكون أمراً حتمياً مع دخول شهر مارس، فالشَبَك لن يقيني فقط من غلاسة الذباب، بل من هجمات الناموس التي تبدأ مبكراً، لأن أرض منطقة حسن محمد كغيرها من الأراضي المحيطة بشارع الهرم، كانت في الأصل إما مستنقعات تم تجفيفها أو حقولاً تم تجريفها، ولذلك ينشط فيها من بدري الناموس الذي يمتلك قدرة مدهشة على الفتك تجعل قرصته نَيكاً، وليس مجرد بعبصة كما يفعل الناموس في أماكن أخرى، أما المروحة فستكون مهمة لتجديد هواء الغرفة العطن، الذي قال ضاحكاً إنه يؤثر على القدرات الجنسية بشكل ملحوظ، وأنه لا يرضى أن تكون إقامتي في الشقة سبباً في ارتخائي المستقبلي.

لم يكن شعراوي يعرف أنني كنت وقتها مشغولاً بالتفكير في نوع آخر من النيك لا علاقة له بالناموس، نوع سيجعلني أخرج من الشقة ملفوفاً في ملاية الكنبة، لأن ضباط الآداب إن كبسوا على الشقة أثناء وجود بعض زبائنه فيها، لن يصدقوا أنه لا علاقة لي بما يحدث فيها، وأنني خرجت من بيتي في طلب العلم، وهو ما يجعلني في سبيل الله حتى أرجع، وأخذت أتخيل ما الذي يمكن أن يحدث للإنسانة الوحيدة التي أهتم برأيها في الدنيا، أمي عليها السلام، حين تعرف أنني استجبت لتحذيراتها المتكررة من النسوان، ولكن بطريقة خاصة، فقمت بالمشاركة في تسريح النسوان، بدلاً من النوم معهن، وكيف يمكن أن تميتها شماتة أبي لأنها وثقت فيّ وأملت خيراً في صلاح حالي.

حين لاحظ شعراوي أنني غير متجاوب مع عرضه العلمي عن حشرات المنطقة الطائرة والآثار الصحية لهواء الغرفة العطن، ظن أنني ما زلت أخشى من مشاركة الفأرين لي في الغرفة، وأنني أتصور أن ارتفاع مقامي من المرتبة الأرضية إلى الكنبة العالية، لن يمنعهما من الانتقام مني لأني عدت لاقتحام منطقة نفوذهما، فأخذ يسخر من خوفي المبالغ فيه من الفئران التي هي أغلب من الغُلب، لكنه في الوقت نفسه أبدى تفهمه لأنني لست معتاداً بحكم تربيتي «المستريّحة» على معاشرة الفئران، ولذلك بشرني أنه قام بالفعل بتخليصي من الفأرين اللذين استوطنا الغرفة، وأنه كان يرغب في أن يريني جثتيهما فور أن دخلت، لكنه لم يرد أن يسد نفسي عن الغداء الشهي الذي أعده لنا، والذي ينتظرنا فور الانتهاء من تفقد أرجاء الشقة.

وسط فرحتي العارمة بسماع خبر الفأرين، توقفت للحظات عند وصفه لتربيتي بـ«المستريّحة»، لأنني لم أكن قد حدثته لا هو ولا ميمي ولا أم ميمي عن ظروفي ولا عن حياتي، فقد كنت قانعاً منذ أن دخلت إلى هذه الشقة بدور المستمع المثالي الذي يطرطر الجميع في آذانه، دون أن يبدو عليه الضجر أو الامتعاض، ودون أن يقطع تدفق الحديث ولو حتى بتعليق أو سؤال، لكن مشاعر الفرحة تغلبت على مشاعر الريبة، حين عرفت بهلاك الفأرين اللعينين، لأن ذلك سيجعل من غرفتي منطقة محررة تخصني وحدي، ولو على الأقل حتى نهاية هذا الشهر، التي يجب قبل حلولها أن أكون قد حسمت أمري وشُفت لي حلاً في ورطة الاشتراك في مهزلة القوادة التي ظننت أن شعراوي ينوي جعلي طرفاً فيها رغم أنفي.

استغربت حين أعاد شعراوي غلق باب الغرفة فجأة، ثم قام بفرد قدمه اليمنى لينطر منها حذاءه ويلتقطه بحركة سينمائية، فظننت من ارتباكي مما حدث أن شعراوي يمتلك قدرة سحرية على قراءة الأفكار، ربما لأن عينيه الذئبيتين أوحتا لي بذلك، وتخيلت أنه قرر ضربي بجزمته القديمة عقاباً لي على ظني السيئ فيه، لكنه زاد من حيرتي حين طلب مني أن أخلع أنا أيضاً حذائي، ثم نظر إلى الدولاب بترقب، وقال لي بجدية: «أنا باقول بالمرة نحل مشكلة البرص عشان تبقى واخد راحتك في الأوضة، ولا أقول لك نخليها بعد الأكل أحسن».

شرح شعراوي بتفصيل أكثر نظريته في موضوع البرص، على مائدة الغداء التي لم يفاجئني فيها فقط أنها كانت من «عمايل إيدين» شعراوي الذي اتضح أن لديه نَفَساً حلواً في الطبيخ، بل فاجأني أيضاً أنها كانت مائدة أفخم مما تصورت، فقد تقاسمنا فيها حلّة مكرونة قَلَم بالصلصة من الحجم

المتوسط، وطبق سلطة محترم الحجم ومتنوع المكونات ومتقن التحييق، وطبق شوربة معتبر، وفرخة محمّرة غير مسخوطة، منحني منها صدراً ووركاً، وأخذ هو صدراً ووركاً، وحين سألته متودداً عن نصيب ميمي، أشار شاخراً إلى الرقبة والكبدة والقوانص وقال إنها أكثر مما يستحقه، وحين امتنعت عن التعليق، أضاف بجدية أنني لا يجب أن أشغل بالي من الآن فصاعداً بموضوع ميمي، «لإن مشكلته اتحلت خلاص»، وهي عبارة مفاجئة أكدت لي صدق ما ظننته، برغم أنني لم أفهم كل تفاصيلها، فالمؤكد أن شعراوي لم يقم بقتل ميمي ودفنه تحت بلاط الشقة على طريقة ريا وسكينة، والمؤكد أكثر أن ميمي لن يختفي من المشهد بسهولة، إلا إذا كان شعراوي قد قام بتعكيمه «خلو رِجل» مناسباً، يجعله يترك الشقة من سُكات، ليعيدها شعراوي سيرتها الأولى.

قال شعراوي إنه سيشرح لي حكاية ميمي بالتفصيل، لكن بعد أن ينتهي من إخباري بما سنفعله في موضوع البرص، حين ننهي أكلنا بالهنا والشفا، ونحبسه بكوبايتين شاي كفاءة، ليفسر لي لماذا لم يقم بنفسه بالتصرف مع البرص، كما تصرف مع الفأرين اللذين تعود على اصطياد أبناء جنسهما في صالونه المطل على خرابة تمتلئ بالفئران، قبل أن يفتح قوساً ضمّنه مفاجأة أخرى أكدت لي صدق ظنوني المقبضة، وهو أنه قرر ترك صالون حلاقته الكائن في الضاهر لأحد صبيانه مقابل إيجار شهري، لأن الشغل فيه لم يعد يجيب همّه، وأنه لو ذهب إليه كل يوم لأضاع ما سيكسبه من فلوس على المواصلات، لكنه عاد ليضيف أنه اتفق مع أحد تلاميذه القدامى الذي أصبح يمتلك صالون حلاقة كبير في منطقة (الطالبية) القريبة منّا على أن يعمل لديه كل خميس وجمعة، لمساعدته في تخفيف الضغط على الصالون المزدحم، وأنه سيكون مختصاً في التعامل مع زبائنه العواجيز وأصحاب الذوق الكلاسيكي الذين ليس لهم في قصّات الشعر الخولاتي، وعلى رأسها قَصّة (كابوريا) التي كانت لا تزال موضة رائجة منذ لحست دماغ الشباب الذين رأوها في فيلم أحمد زكي وخيري بشارة الذي كسّر الدنيا قبلها بعام، مضيفاً أن ما سيحصل عليه في يومين شغل فقط في صالون الطالبية سيكون أبرك وأكثر مما كان يحصل عليه من شغل يهلك البدن طول الأسبوع في الزنقور المدعوق بالضاهر، منطقته التي لم يعد يطيق عيشته فيها لأنها جابت له الفقر والمرض.

أغلق شعراوي قوسه المربك لفرط ما يحفل به من نقاط تستثير الأسئلة والتعليقات، وعاد إلى ملف البُرص، ليقول إن التجارب التي توارثها المصريون «أباً عن جد» تقول إن البرص لا يخرجه من مخبئه إلا وجود صاحب المكان الذي يوجد فيه المخبأ، وهي عبارة رأيت فيها مجاملة لطيفة، مع

أنها كانت تصب في نفس السياق المقلق الذي بدأ منذ دخلت إلى الشقة في هذا اليوم الذي بدا لي أنه سيكون أطول من سابقه، ثم أضاف أنه سيكون عليّ حين ندخل إلى الغرفة لمواجهتنا الأخيرة مع البرص أن أقول بصوت مسموع عبارة «صاحب البيت اسمه محمد» عدة مرات، وأن هذه العبارة ستخرج البرص من مخبئه فوراً، ثم ستجعله يتجمد في مكانه، لننهال عليه ضرباً بالأحذية، ثم قال لي إنه سمع من أمه عليها ألف رحمة ونور، أن من قام بضرب البرص بكف يده سبع مرات وهو يردد بصوت عالٍ «صاحب البيت اسمه محمد»، فإنه يكون كمن حج إلى بيت الله، دون أن يتعب نفسه بتطليع فيزا للسعودية، ولا دفع مصاريف الحج ولا يحزنون، وحين رأى امتقاع وجهي ضحك وطمأنني أنه لم يكن يقترح عليّ ذلك، وأنه لن يفعله هو أيضاً، وأنه يشك أن المرحومة أمه كانت تنخع وقت أن قالت له هذه الحكاية.

مع نزول دور جديد من الشاي، اتضح أن لدى شعراوي المزيد من حكايات أمه عن كائن البرص، الذي تزعم أم شعراوي أن خوفه من ترديد عبارة «صاحب البيت اسمه محمد» يرتبط بحكاية قديمة تعود إلى أيام سيدنا النبي، وبالتحديد إلى الليلة التي خرج فيها النبي من مكة هارباً من بطش قريش، وفي الطريق لجأ النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت تصادف أنه يشهد زفة عروسة، يبدو أنها تضايقت من لجوء النبي إلى البيت في ليلة فرحها، ولذلك حين جاء فرسان قريش الذين طاردوا النبي، وسألوا عما إذا كان موجوداً في البيت، قال لهم سكان البيت إنهم لا يعرفون شيئاً عنه، لكن العروسة الملعونة قالت للفرسان إنه موجود في البيت، ودلتهم على مكان الغرفة التي كان يختبئ فيها، فنزل عليها غضب الله وسخطها برصاً في التو واللحظة، ولكي يضفي شعراوي على حكاية أمه بعضاً من المصداقية، قال إننا لو نظرنا إلى «صوابع البرص» بعد أن نقتله، سنجد فيها ما يشبه آثار الحنّة، التي هي في الحقيقة آثار الحنّة التي كانت على صوابع العروسة اللعينة.

كان في حكاية أم شعراوي مئة خرم درامي، يكفي لهلهلتها، لكنها كانت تدريباً مبكراً لي على التعامل مع شعراوي الذي لا يتوقف عن الثرثرة، كعادة الغالبية العظمى من الحلاقين، صحيح أن ثرثرته كانت تتفوق على أغلب أبناء مهنته في إمتاعها ومفاجآتها، لكنني كان يجب أن أنبه نفسي إلى أنني لن أقضي لديه نصف ساعة والسلام، ثم أحلق له بعد أن يحلق لي ويأكل ما استطاع من وداني، فقد أصبح من المؤكد أنني سأجده في خلقتي كل يوم طيلة الأشهر المتبقية من العام الدراسي، صحيح أن إصلاحه لباب غرفتي يعطي إشارة إيجابية بأنه حين يرى الباب مغلقاً، ربما

انتبه إلى ضرورة احترام خصوصيتي، وتركني في حالي لأذاكر، لكن ذلك بدا لي احتمالاً ضعيفاً، خاصة أنه منذ رأيته لم يترك فرصة للرغي والنخع الذي ورثه عن أمه إلا وانتهزها.

ما زاد في تعقيد مشكلتي مع رغي شعراوي، أنه لم يكن يمتلك عادة زوجته وابنه في الكلام دون توقف، فهو على عادة الحلاقين المتمرسين يحب أن يناغش زبونه، ويشركه معه في الكلام، ولو حتى بمداخلات قصيرة، ولذلك حرص مثلاً على أن يوقف استرسال حكايات أمه عن البرص، ليسألني متعجباً كيف لم أسمع بهذه الحكاية من قبل، ويفاجئني بقوله إن أمي مسّاها الله بالخير، بوصفها ست متعلمة وبنت ناس، ربما لن يكون لديها حكايات مثل هذه عن الأبراص، لذلك سألني عما سمعته من جدتي عن الأبراص وحكاياتها.

كان وصف شعراوي لأمي بأنها «ست متعلمة وبنت ناس» جرس الإنذار الثاني الذي ضرب في نافوخي، وزاد من شكي في طريقة تعامله معي، التي لم أفهم لماذا أصبحت مختلفة بين يوم وليلة، صحيح أنه لم يكن عدائياً بشكل سافر معي منذ البداية، وحتى حين طلب زيادة ما سيحصل عليه من إيجار، حرص على تبرير ذلك بما قاله عن ثمن النظافة، لكنني قررت أن أتماسك ولا أستعجل في الوصول إلى نتائج ستتضح حتماً في الساعات المنيّلة القادمة، ولذلك قلت لشعراوي إن كل ما أعرفه عن الأبراص هو ما يشيع بين الناس جميعاً عن أهمية تغطية ما يوجد من ملح في المطبخ، لأن البرص يعشق المرمغة في الملح، وأن من يأكل من ملح تمرمغ فيه برص، يصاب على الفور بداء البَرَص الجلدي، الذي تلتصق بقعه المزرية بالجلد، ولا تخرج منه إلا بالضالين، والتي تزيد خطورتها حسب عدد الأبراص التي تمرمغت في الملح وحجمها، ولذلك كانت أمي تحرص على أن تضع الملح في الملاّحات ذوات الثقوب الصغيرة، لكي لا ينجح أي برص مهما كان صغر حجمه في التسلل إليها، ثم تقوم بإحكام غلق كيس الملح، وتضعه في درج الثلاجة التي لا تقترب منها الأبراص.

ومع أن جدتي هي التي كانت قد علّمت أمي هذه الحيلة، فإنني حرصت على نسبها إلى أمي، لأنفي لشعراوي حكاية أن أمي تمتلك استعلاءً طبقياً على الحكايات الشعبية، أو ربما لأؤكد له أنها لا تقل تخلفاً عن أمه، ولم أكن أعرف وقتها أن ذلك لم يكن لينطلي عليه، لأنه كان بالفعل يمتلك معلومات تفصيلية عني، أو هكذا كان يظن، وأن تلك المعلومات كانت هي السبب في كل ما جرى في الشقة من تغييرات، وأنه بنى عليها خطته القادمة في التعامل معي، وهو ما عرفته بعد أن أنهينا قتل

البرص، الذي لم نضطر للصراخ في وجهه بعبارة «صاحب البيت اسمه محمد»، فقد وجدناه مرزوعاً في ركنه المفضل من السقف فور دخولنا الغرفة، ولم نضطر لضربه بباطن الجزمة سبع مرات، فقد سقط على الأرض بعد أول ضربة من سِنّ جزمة شعراوي، وأجهزت عليه بباطن جزمتي، ليهتز ذيله عدة هزات ثم يسكن إلى الأبد، وما إن أخذنا نحتسي دوراً جديداً من الشاي على شرف جثمانه، حتى بدأ شعراوي في مصارحتي بخطته التي بدأها بعبارته التي ستتكرر كثيراً طيلة الأشهر القادمة: «بص بقى أنا عايزك تعتبرني زي أبوك»، وهو ما لم يكن وارداً بالنسبة لي أياً كان موقفي من أبي.

كالمستجير من أم ميمي
بأبي ميمي

اتضح أن عم سيد البقال كان بشكل غير مباشر سبب تغيّر الطريقة التي عاملني بها شعراوي في اليوم التالي لدفن أم ميمي، وهو تغير كنت أظنه سيصل إلى ذروته خلال شربنا لدور الشاي الذي أعقب قتل البرص، حين بادر شعراوي إلى إبلاغي بخبر بهيج، هو أنه قرر إعفائي من دفع الزيادة التي طلبها في الإيجار من الشهر القادم، وقبل أن أبتهج بذلك الخبر المفاجئ، أضاف شعراوي موضحاً أنه أعفاني فقط من الدفع الفوري، ولن يطلب تلك الزيادة مني نقداً مطلع كل شهر، بل سيعتبرها ديناً مؤجلاً، أدفعه له حين ميسرة، وأنه متأكد أن تلك الميسرة لن تكون بعيدة، لأن له نظرة في الناس، ونظرته فيّ تخبره أنني سيكون لي مستقبل باهر، وأنني حين يحدث ذلك قريباً لن أنسى أفضاله عليّ، وسأرد له الجميل وبزيادة.

وقبل أن آخذ فرصة لاستيضاح كلامه المليء بالألغاز المفخخة، قام لكي يعلّق على دور شاي جديد، ثم دخل غرفة أم ميمي التي قام أيضاً بتغيير معالمها، وفتح أحد أدراج التسريحة، وعاد بقلم وأوراق من بينها ورقة زرقاء اللون كنت أراها لأول مرة، واتضح أنها نموذج عقد إيجار يباع في المكتبات، وقال لي إن المعركة التي ينوي خوضها مع «أبو سامية المعرّص» لن تكون سهلة وسيكون لها ردود أفعال وآثار جانبية، ولذلك ينبغي أن نكون في السليم ونحن «نخُشّها»، وقد كانت تلك أول مرة يدخل حرف النون في حواراتنا الخاصة بالشقة، ليكون ذلك دلالة على عهد جديد، كان لا بد أن أعمل كل ما في وسعي لكي لا يطول.

لم يكن هناك أي جدوى من قراءة عقد الإيجار، ليس فقط لأنه كان مطبوعاً بوصفه «اسطمبة» تُباع في المكتبات ومحلات الخردوات لتسري على كل من سيدفعون ثمن توقيعه غالياً، بل لأن التجربة القصيرة والعميقة التي جمعتني بشعراوي كانت كافية لإدراك استحالة احترامه لأي عقود

واتفاقيات، حتى وإن تم التوقيع عليها في بطن الكعبة، لذلك اكتفيت بالحوقلة والحسبنة في سري ومضيت، لتكون تلك أول مرة ألطع فيها توقيعي على عقد مطبوع، وهي فكرة كانت ستستوجب الفرح لشاب في مقتبل العمر، لولا أن الطرف الأول في العقد كان كافياً لقتل أي شعور بالفرح، فضلاً عن كون العقد مرتبطاً بإعلان الحرب بين معرّص أسكن معه، ومعرّص أسكن بالقرب منه.

وهو يقلّب لي السكر في الشاي، زف شعراوي لي بشرى الخازوق التالي، حين قال إن ذلك العقد لن يكون آخر ما أوقعه له، لأنني في مطلع كل شهر، حين أقوم بتسليمه الستين جنيهاً التي كنت أدفعها كل شهر، سيعطيني إيصالاً بها، ثم يطلب مني توقيع وصل أمانة بمبلغ الأربعين جنيهاً التي زادت على الإيجار، ليتمكن من طلب حقه من أهلي الكرام حين يجمعه الله بهم على خير، وحين امتقع وجهي، عادت ضحكته اللزجة لتتصدر وجهه، وربّت على كتفي قائلاً إنني عليت في نظره كثيراً، حين عرف أنني لست غلباناً على باب الله أو مقطوعاً من شجرة كما بلغه من قبل، وأنني أنتمي إلى عائلة عريقة شديدة الغنى، لكنني قررت أن أتمرد عليها وأعتمد على نفسي وأعيش على قد حالي، حتى لو أدى الأمر بي لأن أسكن في زنقور حقير مع ست معفنة مثل أم ميمي، ولأنه لم يصادف نموذجاً مشرفاً مثلي منذ زمن بعيد، فقد قرر أن يتضامن معي بالتحسين الفوري لأحوال الشقة، وتأجيل زيادة الإيجار حتى أتمكن من تحقيق هدفي بالتفوق في الامتحانات، وحين يحين موعد لقائي بأهلي بعد إعلان النتيجة، سيكون علي أن أخبرهم بالموقف النبيل الذي وقفه عمي وحبيبي شعراوي، وأطلب منهم رد جميله على ابنه المكافح بما يتفق مع ذوقهم وأصلهم.

حين رأى شعراوي علامات الدهشة الممتزجة بالحنق تملأ وجهي، قرر أن ينهي محاولات استمراري في التنكر كشاب مكافح على باب الله، وقال إنه عرف حقيقتي المشرفة تلك بعد حديث مستفيض مع عم سيد البقال الذي عرف بها بدوره من اثنين من أعز أصدقائي وزملائي هما ناجي وأمجد، اللذان أخبراه بحكايتي الدرامية في مناسبتين سابقتين، وبالطبع كان يجب علي بعد هذه المعطيات الجديدة ألا أبادر بإصدار تعليق رسمي على ما يقوله، قبل أن أفهم ما الذي حدث بالضبط، ولذلك اكتفيت برسم ابتسامة عريضة على وجهي وإصدار غمغمات يفهم منها موافقتي على ما يقوله وإعجابي بجدعنته ولطفه، محتفظاً لنفسي بحق الرد المناسب حين تكتمل صورة ما حدث بالفعل.

في اليوم التالي، وبعد كثير من الاندهاش والامتعاض والشخر والنخر ولعن السنسفيل، اتضح أن ناجي وأمجد سامحهما الله، قررا من قبل وبدون سابق اتفاق أن يقوم كل منهما بالتوجيب معي، برسم صورة زاهية وكاذبة لي عند عم سيد البقال، حين التقيا به في مناسبتين مختلفتين، مرة حين ترك لي ناجي عنده ملزمة كان قد استعارها مني، وأخرى حين ترك أمجد صينية رقاق كانت أمه قد أجبرته على أن يحملها لي تقديراً منها لوقوفي إلى جواره بتلخيصات المحاضرات التي لم يكن يحضر الكثير منها بسبب انشغاله في مساعدة أبيه في إدارة المصنع.

لم يبادر ناجي إلى النخع من أجلي، بل جاء نخعه استجابة لسؤال من عم سيد عن طبيعة الأوراق التي سيتركها لديه، لكيلا يضطر إلى فتحها، لأن «البلد لَبَش وإرهاب زي ما انت عارف»، فشرح له ناجي طبيعتها، ثم جاب الكلام بعضه إلى أنني أقوم بمساعدة الكثيرين من زملائي بما أقوم بعمله من ملازم أبادر فيها إلى شرح وتبسيط بعض ما يغمض عليهم في الكتب المقررة علينا، وهو ما أثار إعجاب عم سيد لكنه عبر عن إعجابه بتعبيرات من نوعية «بس غريبة ما يبانش عليه»، فرأى ناجي أهمية أن يقوم بتحسين صورتي بأن يقول إنني ابن ناس مبسوطين، جار عليه الزمن لأنه قرر أن يتحدى رغبة أسرته في دراسة الطب والهندسة، وأصر على دراسة الإعلام، ولذلك طرده أبوه المتعنت وصاحب النفوذ من البيت، فلم يأبه لذلك وواصل الدراسة معتمداً على جهوده الذاتية، لكن ناجي رجا عم سيد ألا يخبرني بما عرفه منه، لأنني سأغضب منه لو عرفت أنه أذاع سري، وأنني قررت أن أواصل الحياة كشاب مكافح حتى أحقق ذاتي وأعود إلى أسرتي منتصراً في مشهد لم تعد مصر تعيشه منذ أن انتهى زمن أفلام «الأبيض والإسود».

في المرة التالية، وحين اضطر أمجد لترك صينية البسبوسة، لأنني كنت وقت مجيئه في سينما الفانتازيو أحضر الفيلم الثالث من أربعة أفلام في بروجرام واحد، اضطر أيضاً لأن يكمل كذبة ناجي ويعلّي عليها، مستغلاً التأثير الدرامي الذي أحدثه دخول سيارته المرسيدس إلى شارع خلف كازينو إيزيس الذي لا تدخله المرسيدسات إلا كل حين ومين، وحين قال له عم سيد إنه عرف من مصادره الخاصة بقصة كفاحي ومواجهتي لعائلتي الثرية، كاد أمجد أن يقول له إنه ابن خالتي وأن ما سمعه عن قصة كفاحي صحيح مئة في المئة، لكن الصليب الذي دقه أبوه على ظاهر يده كان سيتطلب تفسيرات درامية قد تربك اتساق القصة، لذلك اكتفى أمجد بأن قال لعم سيد إن عائلتي الغنية ترتبط بعائلته الأغنى بصداقة وثيقة منذ سنوات بعيدة، وأن والدتي الحزينة على فراقي وعلى عدم تمكنها من التواصل معي حتى لا تُغضب أبي، ترسله من حين لآخر بمعونات عاجلة، من

بينها مثلاً صينية البسبوسة هذه، لكنني دائماً أرفض استلام أي معونات مادية أو عينية، ولذلك تعمد أن يأتي إلى المنطقة في غيابي، ليترك الصينية لدي ويضعني أمام الأمر الواقع، وهو ما تأثر له عم سيد بشدة، وجعله يسلمني صينية البسبوسة بنظرات استغربتها، ثم اتضح لي بعد أن سمعت حكاية أمجد أنها كانت تحمل مزيجاً من الفخر بي والأسى على حالي.

ومع أن عم سيد استجاب لطلب ناجي وأمجد وقام مشكوراً بكتمان ما قالاه عني، بل ولم يحكه لأبنائه الذين كانت علاقتي بهم ودودة للغاية، لكي لا يقوم أحدهم بتسريبه لي، إلا أنه قرر أن يبوح بكل ما يعرفه لشعراوي حين التقى به بعد ذهابي إلى الكلية في اليوم الذي أعقب دفن أم ميمي، بعد أن ظل يفكر في ذلك القرار طيلة الليل، واستشار فيه أم العيال التي وافقته على أن إطلاع شعراوي على حقيقة عائلتي، سيجعله يفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قراراً يتسبب في تعكير صفوي بشكل يتسبب في تأخر تفوقي الدراسي الذي أحتاجه لمواجهة أسرتي، خاصة أن صبحي كان قد سأله يوم الدفنة عن السعر الذي يمكن أن تجيبه شقة مثل شقة حماته هذه الأيام، ففهم عم سيد أن معركة حامية الوطيس ستندلع بين ورثة أم ميمي على الشقة وسأدفع أنا ثمنها، ولذلك قرر الرجل المجدع أن يتدخل ويبلغ شعراوي بما يعرفه عني، لأن طمع شعراوي في عائلتي ورهبته من نفوذهم، سيكونان أرحم من استهيافه واستهفاقه لي، وهو ما قاله لي عم سيد وهو يحتضنني بقوة ماسكاً دموعه بالعافية ومتمنياً أن يرى أبناءه في مثل إصراري وعزيمتي، طالباً مني أن أحكي لهم قصتي في الوقت الذي أراه مناسباً، لأشجعهم على تعلية سقف طموحهم والتفكير في آفاق أبعد من شارع الهرم وشارع فيصل وما بينهما من مناطق تعيسة لن يكتب الله لهم الفرج والخلاص إلا إذا فارقوها إلى غير رجعة.

ظللت لفترة مرتبكاً، لا أدري كيف أتصرف في هذه الورطة التي أوقعتني فيها تلك الجدعنة التي تطوع بها ناجي وأمجد وعم سيد، بل إنني ظللت حائراً في توصيف ما إذا كانت ورطة بالفعل، أم أنها كانت فرصة يجب استغلالها على أكمل وجه حتى ينتهي العام الدراسي على خير، وعندها لن يرى شعراوي خِلقتي، وسيكون أقصى ما يجب أن أفعله وقتها أن أدفع له فرق الإيجار الذي يتوهم أنه سيأخذه من عائلتي الثرية بدل الطاق طاقين، لكنني لم أكن واثقاً أن شعراوي سيتركني في حالي لو اكتشف الخديعة التي وقع فيها، وتوقعت أن يحاول الانتقام مني بشكل أو بآخر، ولو حتى حكمت بأن يقوم بتجريسي بين أبناء كليتي التي يمكن أن يصل إليها بسهولة، وهو ما يعني فضيحة ستلاصقني طيلة السنوات الثلاث القادمة، إذا لم تصل إلى أساتذتي الذين نجحت في ترك انطباع

إيجابي لدى أغلبهم، ولم يكن غريباً أن أفكر في سيناريو كهذا، فشعراوي الذي لا أحتاج لمعرفة الكثير عنه، لن يتورع في فعل أي شيء، ولو كان حتى اتهامي بأنني كنت شريكاً لأم ميمي في عملياتها التعريصية الوسخة، أو أنني كنت أعمل ناضورجياً لدى «أبو سامية المعرص»، أو أي كذبة أخرى سيلجأ إليها للرد على ما يتصور أنه «قرطسة له» قمت بها مع زميليّ اللذين لن يصدق أنهما تطوعا بما قالاه لعم سيد بدون الرجوع إليّ.

لكن كل تلك المخاوف والهواجس المشروعة تضاءلت أمام حسنات العهد الجديد الذي عشته في شقة أم ميمي بعد أن بسط شعراوي سلطانه عليها، حيث لم يكتف شعراوي بتحويل غرفتي إلى ملاذ آمن صالح للعيش الآدمي، بل تكفل بنظافتها الأسبوعية على أكمل وجه، طالباً مني أن لا أشغل نفسي بكنسها ومسحها لكيلا أعطل نفسي عن المذاكرة، وقام بإنجاز ما وعد به لضمان تهوية الغرفة وحمايتها من الحشرات التي فشخت الشارع مع بشائر الربيع، واستمر في تقديم خدماته الغذائية اليومية على أكمل وجه، لأستمتع بطبيخه اللذيذ والنظيف دون أن أدفع أكثر مما كنت أدفعه كل يوم في أكل السوق الذي اشتكت معدتي من تكراره وزيوته الثقيلة ومستواه المتضارب من يوم للثاني.

حتى سيئة الرغي المتواصل التي كانت ثقيلة على قلبي في أول أيام عِشرتي به، سرعان ما تحولت إلى حسنة مؤكدة، لأنه كشف عن حكّاء بارع وفاتح للشهية، لم يكن من الممكن أن أجد مثيلاً لحكاياته العشوائية الحرّاقة في إذاعة البرنامج العام وبرامجها الرصينة وإذاعة الشرق الأوسط وبرامجها الخفيفة، خاصة أن شعراوي كان ذكياً حين قرر أن يقصر حكاياته على قعدة الغداء وحدها أو فلنقل قعدة الغداء المتأخر التي كانت تجمعنا كل يوم في الخامسة أو السادسة مساءً حسب ظروف المواصلات، ليتركني في حالي بقية اليوم لكي أتفرغ لمذاكرتي، مكتفياً بعبارات التشجيع حين أمر إلى جواره في الصالة متجهاً إلى الحمام، أو حين يتطوع بعمل حسابي في دور شاي يشربه معي وهو يشاركني في الاستماع إلى واحد من البرامج الإذاعية التي تعودت على الاستماع إليها في فترة المساء والسهرة، محتفظاً بأسئلته وتعليقاته حتى ينتهي برنامج «كتاب عربي علم العالم» أو «قال الفيلسوف» أو «من تسجيلات الهواة» أو «لغتنا الجميلة» لكي يسألني باهتمام مربك عن بعض ما جاء فيها من تفاصيل، مصدقاً كل ما أقول له ولو كان مجرد فَتي للهروب من الاعتراف بالجهل، ثم يتمنى لي بعد نهاية سهرتنا نوماً سعيداً وأحلاماً هادئة، فأتعجب من قدرته على التحكم في مفاتيح الرغي، وهو ما لم أكن أحسب أن حلاقاً يمكن أن ينجح فيه.

كان واضحاً مع مرور الوقت أن شعراوي لم يعد يتعامل مع حكاياته على الغداء باستهتار وعشوائية، بل بدأ يعتبرها فرصة للاستمرار في إبهاري، وتمتين علاقته الإنسانية بي، فبعد أن كانت الحكايات في الأيام الأولى تتحدث عن مواضيع من نوعية أن ما يطلق عليه الناس «صدر الفرخة» ليس في الحقيقة سوى «طيز الفرخة»، ودون أن أطلب منه تفسيراً لذلك، بادر شعراوي بالشرح متسائلاً: «مش محتاجة فكاكة يعني، مش أطرى حاجة في الإنسان هي طيزه؟»، وبالطبع كنت أعقل من أن أناقشه في تفسير كهذا، لسبب بسيط هو أنني سمعت نفس هذه «المعلومة المهمة» من فم أم ميمي، مما كشف لي عن تأثرها الشديد به، وهو أمر لم يكن سيسعده، وكان سيحرمه من بهجة الشعور بسيطرته على مسامعي، ولذلك هززت رأسي مبتسماً، وأنا أستمع إليه وهو يقول إن ما جعل ذلك الخطأ يشيع بين الناس، هو رغبتهم ألا يقرفوا مما يأكلون، فلا أحد سيأكل طيز الفرخة مهما بدا له أنه أشهى ألف مرة من أوراكها، مؤكداً أنه سمع هذه المعلومة من أستاذ في كلية الزراعة قسم الدواجن كان يحلق عنده، لكنه نصحه بألا يقول هذه المعلومة لأي أحد، لأن شيوع المعلومة يمكن أن يتسبب في ضرر بالغ للفرارجية وشركات إنتاج الدواجن.

لكن شعراوي الذي كان يتعامل معي بمنطق التجربة والخطأ، شعر أنه يحتاج إلى ما هو أبعد من مثل ذلك الهذر لكي ينسج علاقة إنسانية معي، يمكن له أن يستثمرها حين يأتي موعد الحصاد المرتقب في الصيف القادم، حين أنجح بتفوق يبهر أهلي «الأثرياء»، ويكون عليهم أن لا يكافئوني وحدي على ذلك، بل ويكافئوا معي شريكي في صنع ذلك النجاح، لذلك بدأ يحكي لي كل يوم على الغداء فصلاً من فصول قصة حياته، وكان علي في كل مرة أن ألعب دور المنبهر المتأثر، حتى لو بدا لي ما يحكيه نخعاً مرتجلاً أو محبوكاً، لأتمكن بفضل ذلك من تطوير مهاراتي التمثيلية التي بدأت في المسرح المدرسي، لكنني في أوقات كثيرة كنت أنبهر وأستمتع بما يحكيه، بالطبع لم أعد أذكر الآن كثيراً من تلك الحكايات التي كان شعراوي يحول بها غدواتنا إلى فقرة ترفيهية ممتعة، لكنني لا يمكن أن أنسى ما حكاه لي عن ذكرياته مع أبيه الذي ورث مهنة الحلاقة عنه، لأنني من شدة استمتاعي به كنت أقوم بكتابة ما أتذكره منه فور أن ينتهي الغداء، وكانت تلك المرة الأولى التي أفكر فيها في كتابة عمل فني يحكي عن تاريخ صالون حلاقة تتبدل فيه عبر العصور وجوه الحلاقين وحكاياتهم وأقفية الزبائن ومصائرهم، وهي فكرة لم أجد من يقتنع بأهميتها حتى الآن.

شوف يا سيدي، كان شعراوي الطفل يذهب مع أبيه إلى سوق الحلاقين الكائن بجوار مسجد سيدنا الحسين في حي الأزهر بالقاهرة القديمة، وهو السوق الذي انقرض منذ مطلع الخمسينيات، مع

توسع الرقابة الحكومية على الأسواق الشعبية خوفاً من انتشار الأوبئة والفيروسات. في تلك السوق المنقرضة كان أبو شعراوي يبيع للباعة الفارشين على الأرض أمواس الحلاقة التي «هراها» وثلمها من كثرة الاستخدام، والفوَط والبشاكير التي كشّت وتهربدت وشكت لمن خلقها، والمقصات التي أكلتها البارومة، والفُرَش التي انخلعت مقابضها، والأمشاط التي تساقطت أسنانها، وماكينات الحلاقة التي أصبحت منظراً على الفاضي، ومع أن والده لم يكن يجد غضاضة في بيع أدواته المستعملة، ليستخدمها غيره من فقراء الحلاقين على أقفية غيرهم من فقراء المحلوق لهم، فإنه كان يرفض رفضاً باتاً شراء أي شيء من أصحاب الفرشات الذين يكتظ بهم السوق، اللهم إلا إذا استلقط من أحدهم مرآة صغيرة استلطف نقشتها، أو اكسسواراً قديماً يقوم بتلميعه لكي يزين به المحل، وكان يوصي شعراوي دائماً بأن لا يستخسر القرش الذي يصرفه على شغله، لأن الاستجابة للفكاكة في تلك المهنة يمكن أن يكون له عواقب وخيمة، فالموس الذي يبدو لك على الفرشة في حالة جيدة، ولا ينقصه إلا التلميع والشحذ والتعقيم، يمكن أن يجيب لك مصيبة سوداء، لو انتقل إلى أحد الزبائن مرض من الأمراض المعدية التي تلبد في ثنايا حديد الموس، ولا تخرج منه إلا حين تلامس جلد الإنسان، خاصة أن المرض لا يمكن أن ينتقل إلى المحلوق له فقط، بل يمكن أن ينتقل إلى الحالق نفسه، لو أخطأ للحظة وعدّى الموس على بقعة من جلده، وكان هذا هو الدرس الثاني الذي تعلمه من أبيه، وهو أن عليك كإنسان ألا تأمن أبداً لخوازيق الدنيا، لأن المصيبة المستحدثة يمكن أن تقع على قفاك أنت دوناً عن غيرك، ولذلك دع اختبارها لغيرك، وتمسك دائماً بالأحوط والأصيع.

لذلك، كان أبو شعراوي يمر على فَرشات السوق ونَصَباتِه متعجلاً متأففاً، بعكس مروره على محلات السوق التي كانت أقل في العدد، لكنه كان يقضي وقتاً طويلاً أمام واجهاتها وداخل جنباتها، ليطلع على أحدث ما وصل إلى باعتها من مستلزمات الحلاقة، حريصاً على المقارنة بين الأسعار المختلفة، ليؤجل شراء ما يرغب فيه حتى النهاية، إلا إذا وجد أمامه «لُقطة» كذلك الحوض الرخامي الذي اشتراه، وأنهى به عهد الطشت النحاسي الذي كان يغسل رؤوس الزبائن فيه، أو كذلك الكرسي الفخيم الذي اتضح أنه «فرز ثاني» جاء من صالون حلاق جريجي أُغلق بعد أن وافت المنية صاحبه الذي لم يورّث مهنته لأبنائه، وقد اضطر الأب للاستدانة لكي يشتري الكرسي، لكنه جاب ثمنه وزيادة في وقت قياسي، لأنه نقل صالون الأب من مصاف الحلاقين البلدي إلى مصاف الحلاقين المودرن الذين كان سكان الظاهر وباب الشعرية يحسدون عليهم جيرانهم من سكان غمرة والعباسية.

لم تكن تلك النقلة هي الأكبر في حياة الأب، فقد سبقها من قبل نقلة أكبر وأخطر، هي انتقاله إلى حلاقة الصالونات، من كونه حلاقاً متجولاً يسرح في الأسواق ومواقف العربيات والمقاهي، ويسترزق في الموالد والجُمَع، راضياً بأي شيء ثمناً لحلاقته، حتى لو كان ثلاث بيضات أو كوباية شاي ودور معسّل، ومضطراً للنداء على خدماته كأنه بياع سرّيح يبيع الجاز والتين الشوكي، ومهدّداً من أصحاب صالونات الحلاقة الذين لا يمانعون من كسر رِجله لكي لا يعتّب منطقتهم مرة ثانية، ومستحملاً رزالة الزبائن الذين يحلو لهم أن يحركوا رؤوسهم لتأمل ما يتحرك حولهم، ويتأففون إن عَفَق رؤوسهم لكي لا يجرحها موسه الذي يشحذه على الدوام في سير جلدي لا يبخل عليه بالزيت الفاخر، لاعناً سنسفيل الذباب الذي يحلو له المرمغة في كوباية الصابون التي يحرص على استخدام رغوتها، لتطرية عملية الحلاقة على الزبون، ليميزه ذلك عن غيره من حلاقي الشوارع ولو من باب المنظر، إذ لا مجال أن يتميز عنهم من ناحية الأجر، الذي يمكنه أن يطير منه في الشوارع والأزقة، لو لم يحرص على عفق الزبون جيداً بعد انتهاء الحلاقة، أو رهن عمّته أو طاقيته أو شاله، لكي لا يهرب دون دفع ما اتفقا عليه، وهو ما كان يتكرر كثيراً فيزيد من قرف الأب من اللف الأزليّ في الشوارع، ليستقر بِه المقام أخيراً على قهوة الحلاقين في شارع قنطرة الدكة بالقرب من شارع عماد الدين، حيث كان بعض أصحاب صالونات الحلاقة يأتون للاستعانة بحلاقين من المرابطين على القهوة للحلول، محل صنايعيتهم الذين تغيبوا لعذر طارئ، أو قرروا أن يتملعنوا على أسطواتهم، فقرر هؤلاء الاستغناء عنهم، ليثبتوا لهم أن الدنيا لا تقف على أحد مهما كانت شطارته وخفة يده.

كان الفخر يملأ ملامح شعراوي وهو يحكي عن أبيه الذي نجح بجدارة في الامتحان الذي عقده له شيخ الحلاقين، الذي لم يكن يمكن أن ينال أحد شرف الجلوس على قهوة الحلاقين إلا بعد أن ينال رضاه وينجح في اختباره، ولذلك لم يكن القادمون إلى القهوة بحاجة لإجراء المزيد من الاختبارات، ليقتصر الأمر على المقاولة والفِصال والمفاضلة بين الحاضرين، دون أن يتطور ذلك إلى ابتذال للنفس، أو خناق بين الجالسين في طلب الرزق، لأن ذلك إن حدث يحرم صاحبه فوراً من حق الجلوس على القهوة، لأنه خرق أهم مبدأ يعتنقه الجميع وهو «إن ما حدش بياخد رزق حد»، لكن أبو شعراوي تعلم أن المبادئ وضعت لتُخرق، ولذلك لم يكن يجد مشكلة في الاتصال بأصحاب الصالونات التي عمل فيها «ظهورات» من قبل لعله يجد فرصة جديدة لديهم، دون أن يضطر لدفع النسبة المقررة لإدارة مقهى الحلاقين، مع أن ذلك كان يمكن أن يكلفه الكثير لو تم ضبطه، ليشاء حظه السعيد أن تنتهي هذه المعاناة بعد أن نال إعجاب حلاق شهير، لم يكتسب

شهرته فقط من محله ذي الصيت في الأزبكية، بل من كونه الحلاق الخصوصي لصاحب السعادة والمعالي مصطفى باشا النحاس.

فرح شعراوي حين وجد أنني أعرف جيداً من هو مصطفى باشا النحاس، وأنني أدرك أهميته التاريخية، فأخذ ينعى حظه وخيبته في ابنه المخروق الذي لم يسمع من قبل بالنحاس باشا، ولذلك كان يتأفف من فلق أبيه لدماغه بحكاية جده مع النحاس، وزادت فرحة شعراوي حين أحضرت له أعداداً من مجلة «روز اليوسف» نُشرت فيها حلقات من مذكرات القيادي الوفدي إبراهيم فرج صديق النحاس الصدوق، فأخذ يملّس بيده على صور النحاس وكأنه يطبطب على صديق قديم، وغضب حين رأى كلاماً في العناوين ينتقد زينب الوكيل زوجة النحاس، ولم يرتح إلا حين قلت له إن ما هو منشور يرد على الانتقادات الموجهة لها ولا يتبناها، ليقف شعراوي فجأة ويذهب لإحضار المصحف، ليحلف لي عليه أنه رأى مصطفى النحاس وهو صغير، حين ذهب مع أبيه مرة إلى قصر النحاس في جاردن سيتي، بعد أن جاءت الفرصة لأبيه لكي يحل محل معلّمه الذي أصابته نزلة برد، ولم يرغب في التورط في نقلها إلى زعيم الأمة، الذي لم يكن المعلّم ينسى قط فضله عليه، لأنه على عكس كثير من باشاوات الوفد، قرر أن يحلق لدى «حلاق وطني»، بدلاً من التردد على «الحلاقين الإفرنجي»، تشجيعاً لأولاد البلد الذين لم يكن علية القوم يحبون تسليم أقفيتهم لهم، لكن مرواح شعراوي ليلعب دور صبي الحلاق في ذلك اليوم، لم يكن قدم سعد على أبيه، فالنحاس الذي أعجب بخفة يد والد شعراوي ونظافته ومهارته والأهم بقلة حديثه، نقل إعجابه إلى المعلّم في صيغة ساخرة، لم يكن يتصور أنها ستغضب المعلم وتشعره بالتهديد من صبيه، فيقوم بقطع عيشه على الفور، لكيلا يطلبه النحاس باشا بالاسم بعد ذلك. ومع أن تلك الخطوة أجهضت أحلام الترقي التي راودت أبا شعراوي، فأخذ ينظر بعد تلك الزيارة إلى صور قيادات الوفد المنشورة في الصحف، وهو يتخير لكل منهم قصة تناسب رأسه، إلا أنه شعر أن فصله جاء بمنزلة رسالة إلهية، لكي يكف عن العمل كصبي حلاق، أو حتى كصبي أول، ليفتح محلاً خاصاً به على القد في مسقط رأسه، وهو نفس المحل الذي ورثه عنه شعراوي، وما زال كرسي الحلاق الجريجي قائماً فيه يتحدى الزمن، وما زالت مراياته التي اشتراها الأب من سوق الحلاقين تزين جدران المحل الذي لم يتغير فيه شيء إلا أن والد شعراوي اضطر بعد ثورة يوليو لنزع صورة مصطفى النحاس، لتتناوب على موضعها صور جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك.

لم يكن يمكن مع حكايات متجددة ومتدفقة مثل هذه، أن يصيبني الضجر من قعدة شعراوي، خاصة أن مستواه في الطبخ لم يكن ينزل قط، لأنه كان يستمتع بالطبخ وتفاصيله، وحتى كوباية الشاي التي يصنعها الناس متعجلين متلهوجين، كان يحرص على تحويلها إلى طقس لطيف، حين يقوم بوضع أوراق النعناع التي قام بتقطيفها في كوب ماء يضعه على الصينية إلى جوار طبق صغير عليه «شوية قرنفل»، لأتعلم منه أن وضع السكر على الشاي يمثل إهانة لمقام الشاي، وأن شرّيبة الشاي الحقيقيين لا يمكن أن يضيفوا إليه شيئاً غير النعناع والقرنفل، وأن السكر لا يضاف إلا إلى المشروبات الهفأ مثل الحلبة الحصى التي تجعل رائحة البول كريهة، واليانسون الذي يرخي أشد الرجال عزيمة، والقرفة التي تليق بالحوامل والمطلقات، مستثنياً من عدائه الكركديه الذي قال إن سيدنا النبي كان يحبه منذ أن ذاقه على يد ستنا مارية القبطية التي أحضرته معها من الأقصر وأسوان، وهي معلومات لم يكن من الحكمة أن تناقش شعراوي في دقتها، أو أن تبدو غير منبهر بما فيه الكفاية حين تسمعها.

كان كل ذلك كافياً لكي أخمد شكوكي وهواجسي، وأطلب منها أن تتوارى حتى يأتي وقت مواجهتها في الصيف، مستلهماً في ذلك حكاية كنت قد قرأتها أيام الطفولة وأعاد برنامج إذاعي تذكيري بها، عن جحا الذي ورّط نفسه مع أحد الملوك، متطوعاً بأن يقوم بتعليم حمار الملك الكلام خلال عشرين عاماً، وحين لامته زوجته على تلك الورطة الحمقاء قال لها مطمئناً إن الورطة ستحل نفسها بنفسها، فخلال عشرين عاماً سيموت الملك أو يموت جحا أو يموت الحمار، ومع أن صحة شعراوي لم يكن يبدو عليها ما يوحي أنه سيموت خلال الأشهر القليلة المتبقية على قدوم الصيف، أو العشرين صيفاً التي ستليه، مما كان يجعلني مرشحاً للعب دور الحمار بجدارة، فإنني لم أكن أقوم بتطبيق القصة بحذافيرها، بل اكتفيت منها بالمغزى الحكيم الذي يوصيني أن أدع النكد لوقته وأستمتع بالحياة، وهو ما فعلته، لولا أن النكد الذي جاءني قبل موعده، لأكتشف أن شعراوي لم يكن من الممكن أن يهنأ بذلك السيناريو البسيط الذي تخيلت فيه كيف سيطلب من أهلي أن يقوموا بمكافأته على وقوفه إلى جواري وتعويضه عن خسائره المادية والمعنوية، وأنه كان يخطط لما هو أبعد وأهم، ومن أجل ذلك قرر أن يصفي خلافاته التاريخية، ويستعين بحليف لم يكن على البال ولا على الخاطر، هو «أبو سامية المعرّص» شخصياً.

سلام الشجعان بين شعراوي الزناوي
و«أبو سامية المعرّص»

من عالم البرزخ ومن غياهب ما بعد الموت، عادت روح أم ميمي لتنقذني من فخ شعراوي اللعين الذي كنت سألبسه مثل المدبّ، قبل أن أكتشف أصابع ميمي الرِمّة في الموضوع برُمّته.

سأقول لك ما دخل ميمي بالموضوع وهو الذي أخفاه أبوه عن حياتي فجأة في ظروف لم أتمكن من الحكم بدقة هل كانت غامضة أم لا؟ لكنني متأكد أنك مهتم أكثر بمعرفة الظروف التي تحول أبو سامية المعرص فيها من خصم لدود لشعراوي إلى حليف ودود، وكيف اتفق الاثنان بعد طول عداء بسببي؟

صحيح أنني عرفت بذلك من خلال ميمي، بعد زيارته المفاجئة لي التي جاءت في وقت حرج للغاية بالنسبة لي، حيث زارني قبل امتحانات نهاية العام بأسبوعين تقريباً، لكنني كما لا أظنك تستغرب لم أكن لأصدق ميمي بسهولة، لولا أن ما قاله لي كان كاشفاً للكثير من الأحداث التي كنت أستغرب تحولاتها وملابساتها، ليتضح لي أن تلك الأحداث كانت نتيجة تخطيط عقل شعراوي اللعين، الذي أصبح يعتبرني صيده الأثمن والأسمن في ما تبقى له من الحياة، ولذلك قرر ألا يخاطر بانتظار تفوقي الدراسي لكي يطلب جائزته من أهلي، بل قرر أن يكلبشني معه بقيود ظنها أبدية، ولم يجد فخاً يساعده على توثيقي بتلك القيود أفضل من رحاب ملائكية الوجه ومنائكية الجسد، ليس لأنه أدرك بعقله الشيطاني أن سامية وإن كانت الأجمل والأشهى، قد أصبحت ورقة محروقة بالنسبة لي من فرط ما سمعت اسمها مرتبطاً بالدنس الذي قد يشتهي سيرته ويتمناها أمثالي، لكنهم سيأنفون منه ساعة الجد، بل لأن سامية كانت قد راحت لصاحب النصيب بعد صفقة انتقالات خيالية لم تعد العائلة بعدها مضطرة للتعريض، ولا لإجبار رحاب على أن تزيد من عدد «الشيفتات» لكي تعوض غياب أختها الكبرى.

خيوط الحكاية ملعبكة بعض الشيء، ولكي لا أشقّ عليك بها، سأبدأها أولاً بذكر كيف ضحك شعراوي على ذقني، حين برر لي قراره المفاجئ بالانسحاب من معركته الشرسة مع «أبو سامية المعرّص»، والتي كان قد بدأها فور امتلاكه زمام الأمور في الشقة، لأظل في حالة تحفز منتظراً أن تطرطش عليّ بعض ردود الأفعال التي ستبدر عن «أبو سامية المعرّص» الذي كنت متأكداً أنه لن يقف مكتوف الأيدي وهو يشاهد حاله الواقف بفعل ترزيل شعراوي عليه، خصوصاً أن شعراوي استطاع تطفيش الكثير من الزبائن الصاعدين للانبساط وبحركات مدهشة في بساطتها، على رأسها فتح باب شقتنا أغلب ساعات اليوم، وحين أبديت قلقي من أن ذلك قد يعيد بعض أقارب الفأرين القتيلين إلى الشقة، طمأنني شعراوي أنه مستعد للتعامل مع أي غزاة محتملين للشقة، إذا استطاع أحدهم تجاوز بقائه الدائم أمام باب الشقة الذي أصبح محل شعراوي المختار، هو وكرسيه المفضل والراديو والسبرتاية وبراد الشاي وكنكة القهوة ومنشّة الحشرات.

وحتى حين كان شعراوي يدخل إلى المطبخ ليتابع سير أكلة وضعها على النار، أو يذهب إلى الحمام لفك زنقة، كان يترك الراديو وصوته العالي ليلعبا بدلاً منه دور اللّبَش الكافي لإفزاع المتعودين على التسلل الهادئ نحو وكر الملذات، ولم يكن غريباً أن تكون إذاعة القرآن الكريم سنده الأهم في حرب معنوية كهذه، تاركاً لأصوات مقرئيها ومشايخها لعب دور الحارس الأخلاقي للعمارة، ولذلك لم يكن غريباً أن أجد أشخاصاً غير مألوفي الشكل وهم يخرجون من باب البيت بعد لحظات من دخولهم إليه، وحين كان بعضهم يصم أذنيه عما يسمعه من الراديو، أو يرفع صوت شهوته بداخله لكي يغلوش على صوت الإذاعة، كان شعراوي يستلمه فور شروعه في صعود درجات السلم بالغمغمة واضحة الصوت بعبارات من نوعية «توب علينا يا رب من التعريص.. هي الدنيا جرى فيها إيه بس يا ناس.. عشنا وشفنا الزمن اللي الأب بيعرّص على بناته.. هي القيامة هتقوم ولا إيه.. وهي الحكومة فين من اللي بيحصل ده.. أنا باقول نبلغها ولا نسيب الحكاية لربنا هو اللي يحلها بمعرفته.. لأ أنا رأيي نبلّغ الحكومة أحسن ما ربنا يحرقنا بجاز ونروح في الرجلين»، وهو ما كان يدفع الغالبية العظمى من المقاوحين، إما بسبب حدة هيجانهم أو طمأنة «أبو سامية المعرص» لهم، إلى صرف النظر عن الواحد المنتظر الذي كانوا يحلمون به، مفضلين إطلاق سيقانهم للريح، وطالبين من «أبو سامية المعرص» أن يحل مشاكله قبل أن يطلب منهم التورط في مشوار غير مأمون العواقب إلى وكره الذي اجتاحته عواصف شعراوي بدون ميعاد.

ولأن شعراوي رجل محنك اعتركته خطوب الحياة، فقد كان أذكى من لعب هذه «النِمرة» في اليوم الذي يأتي فيه حضرة الضابط الهمام لنيل وطره من سامية أو من أختها أو حتى من أمها، فقد تعددت في ذلك الأقاويل. كان شعراوي يومها يكتفي بتشغيل إذاعة القرآن الكريم بصوت عالٍ، بينما ينشغل شعراوي بمسح بسطة السلم وتنظيف باب الشقة والجدران المحيطة به بهمة ونشاط، وهو يتجاهل أن تلتقي عيناه بعيني الضابط ونظراتهما العدائية، ولأنني كنت أتوقع حدوث مصيبة في ذلك اليوم من كل أسبوع، فقد كنت أحرص فيه على ترك الشقة والابتعاد عن المنطقة بأسرها، تاركاً شعراوي لمصيره، لكن حضرة الضابط توقف عن المجيء إلى المنطقة بعد أسبوعين من الحرب الإذاعية التي شنها شعراوي، ولم أفهم هل حدث ذلك لأن ضميره صحا فجأة بعد أن اخترقت آيات الله الحُجُب المسدلة فوق ضميره؟ أم لأنه شعر أن شعراوي لن يبادر إلى حرب كهذه إلا إذا كان مسنوداً من أحد ما، ولذلك فضل البعد عن الشوشرة حتى يتمكن أبو سامية المعرص من حل مشاكله؟ أم أنه قرر تغيير موعد زيارته الثابت ومداهمة شعراوي على حين غرّة؟

أياً كان السبب، فقد استغل شعراوي ذلك الغياب أحسن استغلال، وبدأ في تعلية «تون» تعليقه الصوتي المصاحب لطلوع ونزول أي شخص من الدور الذي يقع فيه وكر الملذات، وبعد أن كان يكتفي بالصمت حين يدخل العمارة أو يخرج منها أحد أفراد أسرة «أبو سامية المعرص»، أصبح يصاحبهم بخطب قصيرة عن خطورة الدياثة والقوادة وآثارها الفتاكة على الإنسان في الدنيا قبل الآخرة، لدرجة أنه طلب مني أن أحضر له من مكتبة الجامعة بعض نصوص قانون العقوبات الخاصة بجريمة الزنا وإدارة شبكات الدعارة، ليقرأها على سامية ورحاب وأمهما من باب التوعية وإخلاء المسؤولية، وهو ما لم أمانع في فعله رغبة مني في الثأر لحالة القرطسة المعنوية التي عرّضتني لها العائلة الكريهة، دون أن ينسيني ذلك أن كل ما يفعله شعراوي لم يكن لوجه الله والفضيلة، وأنه يفعله فقط لتعلية سعر سكوته وتواطئه لدى «أبو سامية المعرص»، وأنه سيتوقف عنه حين يصل إلى الثمن الذي يرضيه.

كان ذلك أول ما فكرت فيه حين عدت من الكلية فوجدت باب الشقة مغلقاً على غير العادة، فظننت أن شعراوي أنهى أخيراً إجازته الطويلة وبدأ بالفعل في ممارسة عمله في صالون حلاقة تلميذه الذي طلب منه شعراوي أن يمنحه فرصة لكي يلملم أحزانه على رحيل أم عياله، وحين سمعت صوتاً ينبعث من داخل الشقة، لم يكن صوت إذاعة القرآن الكريم التي لم يكن شعراوي يحول

مؤشر الراديو عنها إلا في فترة المساء والسهرة، حين يحين موعد استماعي إلى برامجي المفضلة، دون أن يثنيه ذلك عن لعب دور الحارس الأخلاقي الرابض في مدخل العمارة.

ما سمعته هذه المرة كان صوت شعراوي وهو يمارس لعبته المفضلة في الغناء مع كل من يغني في الراديو ولكن بعد تحريف كلمات الأغنية إلى كلمات أحط وأبذأ، وهي اللعبة التي اتضح لي يومها أن أم ميمي تعلمتها منه، وحين دخلت عليه هذه المرة كان يغني بمنتهى الانسجام مع أم كلثوم: «وإن كان على البز الكبير.. إن كان على الكس الحرير.. ستاير النسوان نزلت بقالها زمان»، وقبل أن يترك لي فرصة للاندهاش أو التساؤل عن توقف حربه على الجيران المعرصين، هجم علي ليحتضنني بحرارة وهو يهنئني بأن «عمليتنا» جاءت بنتيجتها والحمد لله، وأن الله سيكتب لنا ثواب تستير بنت غلبانة رماها أبوها في سكة الحرام، ولولا أن الله أرسلنا لها لظلت مغموسة فيه طيلة عمرها.

وقبل أن أُجري على لساني كل الأسئلة المتدافعة نحوه، قال شعراوي ونشوة الانتصار تطفح من وجهه المشعر إنه فوجئ قبل صلاة الظهر بزيارة مفاجئة من «جارنا أبو سامية»، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسقط فيها شعراوي كلمة «المعرص» من اسمه الثلاثي ويستبدلها بكلمة «جارنا»، مما بدا لي تأكيداً على صفقة قذرة وقعت بين الاثنين، وكان كل ما يهمني ألا أكون طرفاً فيها، لكن شعراوي قال لي إنه بعد أن استعد لمواجهة بدنية مع الرجل، فوجئ به يلقي عليه السلام بكل تهذيب ويقول له إنه جاءه لكي يدعوه إلى حضور حفل زفاف «كريمته سامية» التي كتب الله لها الدخول في بيت العَدَل، وأن الحفل سيقام على الضيق في «منزل العائلة المنيوكة»، قالها شعراوي ساخراً ثم تراجع مستغفراً لأن الله حليم ستار، ودون أن يرف له جفن، قال لي وقد تقمص دور شيخ من مشايخ إذاعة القرآن الكريم إن علينا أن نتذكر أن خلافنا مع «أبو سامية الله يسامحه» لم يكن لأن بيننا وبينه ثأر أو خلاف على ميراث أو حتة أرض، بل لأنه كان يمشي في الحرام ويقوم بتسريح ابنتيه وزوجته، وبالتالي علينا أن نحتفي بتوبته على الفور ونشجعه على المضي قدماً فيها.

وقبل أن أعلق مؤكداً لشعراوي بأن الموضوع لا يعنيني من قريب ولا من بعيد، سألني بجدية عما سأرتديه في حفل الزفاف الذي اكتشفت أنني مدعو له بعد يومين، وأنه لن يسمح لي بالاعتذار لأنني لا أمتلك ما أرتديه، لأن الفرح في الآخر سيكون على الضيق، ولن يكون فيه «حد غريب»،

واعتذاري عن حضوره سيكون إهانة مني لسامية التي لم تكتف بإرسال أبيها لدعوة شعراوي، بل نزلت هي وأمها لكي تؤكد على الدعوة، بل إنها تلكأت حين صعدت أمها، لتقول لعمها شعراوي بصوت هامس إنها لن تنسى جميله عليها، فلولا ما قام به باستبسال وإصرار، لما شعر أبوها بضرورة التوقف عن تسريحها في المشي البطال، والبحث عن سكة شريفة تسترها هي وأختها بعد طول انحلال.

لم أفاجأ حين عرفت أن العريس المنتظر كان واحداً من زبائن سامية المخلصين من السعودية، ولم أندهش حين عرفت أنه يكبرها بأربعين عاماً أو يزيد، وأن رغبته في الاقتران بها لم تكن وليدة اللحظة الحرجة التي عاشتها العائلة بسبب شعراوي، فقد وقع الرجل الذواقة في غرام سامية من أول نطّة قام بترتيبها وكيل أعماله في القاهرة، الذي حلف لنا حين التقيناه في حفل الزفاف أن الشيخ على كثرة ما ذاق من حريم في كافة أرجاء الدنيا، لم يجد من هو أجمل ولا أشهى ولاأحنّ من سامية، وأنه ظل في كل زيارة لها يرفع سعر الاقتران بها، ويغضب حين يفاجأ بصد العائلة له، ويستغرب كيف لم يقدروا قراره الصعب بأن يتزوجها على سنة الله ورسوله، خصوصاً أنه لن يتركها في مصر كالبيت الوقف حين يسافر، بل سيصطحبها معه إلى السعودية معززة مكرمة، صحيح أنه لن يجعلها تعيش في نفس المدينة التي تعيش فيها زوجته الأولى وأم عياله، لكنها ستعيش في بيت فخم في إحدى مدن المنطقة الشرقية التي يمتلك فيها سوبر ماركت كبيراً، وستعيش عزاً تحلم به كل راقصات وفتاحات كباريهات شارع الهرم التي رمين نفسهن على الشيخ، لكنه لم يجد في إحداهن ما وجده في سامية.

اتضح أيضاً أن قرار «أبو سامية المعرص» بالتوقف عن المشي في البطال، وعدم تصعيد رحاب لكي تخلف أختها في «السراير»، لم يكن رغبة منه أو من زوجته المُلعَب، بل كان قراراً من الشيخ العاشق الذي كان على استعداد ليتجاوز عن تاريخ العائلة المشين، شريطة أن يتعهد له حموه وحماته بفتح صفحة جديدة لا مكان للنجاسة فيها، محذراً من مغبة التحايل على ذلك القرار، لأن عيونه المبثوثة في مصر ستوافيه بأخبار العائلة أولاً بأول، وأنه سيتكفل بكل مصاريف العائلة وسيحقق لها كل أحلامها، لكنه سيحول تلك الأحلام إلى كوابيس لو اكتشف لعب العائلة بذيلها من ورائه، وهو ما اتضح فيما بعد أنه كان طلباً من سامية، بل وكان شرطها الأهم لقبول الزواج من ذلك العجوز الأشرّ الذي لم تكن تحبه، أو هذا ما قالته لي رحاب في جلسة من جلسات الفضفضة

لاحقاً، والتي لم أكن أعلم أنها كانت جزءاً من ترتيبات الفخ الذي ينصبه لي شعراوي اللعين بالاتفاق مع أبيها الأضل والألعن.

حين أستعيد ما جرى أو ما كان يفترض أن يجري لي، لا أستبعد نفسي من اللوم، لأنني كنت سبباً أكيداً في إسالة لعاب شعراوي عليّ، وجعله يتصور أنني أصلح لأكون صفقة استراتيجية ستؤمن مستقبله لما تبقى من العمر، خاصة أنها قد ساهمت في تعزيز اعتقاده بأنني «يا ما هنا يا ما هناك»، لكنني لم أكن أثقل على نفسي باللوم، حين أتذكر أنني لم أكن أمتلك خيار مصارحته بالكذبتين اللتين ورطني ناجي وأمجد بسببهما، ليس فقط لأن ذلك كان يعني خسارة طبيخه اللذيذ الآمن والعودة إلى حالة الرمرمة الغذائية، ومطالبته الأكيدة لي بالدفع الفوري للزيادة التي طلبها في الإيجار، بل كان الأخطر بالنسبة لي أن يرمي طوبتي، فيقرر المضي في إجراءات بيع الشقة، إن لم يكن بالاتفاق مع «أبو سامية المعرص»، فمع أي معرّص غيره، لأجد نفسي في الشارع في وقت حساس، وأخسر كل ما عملت من أجله منذ بداية العام.

كنت سأكون أسعد حالاً لو كان شعراوي قد اكتفى باعتماد الكذبتين اللتين سمعهما من عم سيد البقال، لكن عقله الديكارتي ونفسه الأمّارة بالاحتراس من خوازيق الدنيا - نصيحة أبيه المهمة لهــ دفعاه إلى أن ينهمر علي بعشرات الأسئلة عن أسرتي وأسباب خلافاتي معها، ليطمئن إلى أن الصيدة ستكون مجزية، طالباً مني أن لا يلعب الشيطان في دماغي بمفكّ، ويأخذني حماس الشباب إلى حد أبعد، فأستمر في مقاطعة أسرتي بعد أن تظهر نتائج العام الدراسي مثبتة تفوقي، ومشدداً على أهمية الاحتفاظ بخط الاتصال بيني وبين ست الكل أمي عبر قريبنا من بعيد أمجد، لكي لا يقسو قلبها علي، فتزيد من قساوة قلب أبي علي، لأجد نفسي مع كل وجبة غداء، مطالباً بتذكر ما سبق أن نخعته له من قبل من أكاذيب، وحريصاً على أن تكون أكاذيبي الجديدة متسقة مع سابقاتها، دون أن أندفع وراء مبالغة تثير شكه في القصة بأكملها.

ولكي تكتمل اللعبة سبكاً، كان لا بد أن أستعين باللعينين اللذين ورطاني فيها، دون أن يثير ذلك شك شعراوي، فاتفقت مع كل من ناجي وأمجد على أن يزوراني في مواعيد لا أكون فيها في البيت، ليتعرف عليهما شعراوي، وأن يقبلا دعوته على الشاي، ويجيبا على أسئلته التي اتفقنا معاً على إجاباتها، فإن أوغل فيها أكثر من اللازم تهربا منه واعتذرا بضرورة الانصراف سريعاً لكي لا يتأخرا على مشاوير عائلية مهمة، ولم تكن مهمتي صعبة في تدريبهما على الكذب، فقد كانا

بارعين فيه بالفطرة، وإن كان ناجي أكثر انضباطاً من أمجد الميال للمبالغة، لكن وهج سيارة أمجد المرسيدس كان يضفي على مبالغاته البسيطة معقولية انطلت على شعراوي الذي أعمى الطمع بصيرته عن كثير من الأخرام المنطقية الموجودة في الروايات التي اشتركنا في تأليفها، والتي ساعدنا على العبور بها أنه لم يكن قد سافر إلى الإسكندرية في حياته سوى مرات قليلة، كان آخرها منذ ربع قرن، ولم يكن له فيها أصدقاء أو معارف يمكن أن يساعدوه في التأكد ممّا قلناه له من معلومات عن أسرتي الفاحشة الثراء، وحتى حين توقف أمام معلومة تقول إن عائلتي تمتلك فيلا في منطقة كفر عبده التي يسكن فيها عِلية الاسكندرانية، أثارت المعلومة شكه، إذ لم يستوعب أن يكون اسم المنطقة مرتبطاً بالأثرياء، خاصة أنه يحتفظ في ذاكرته بأسماء أجنبية للأحياء الراقية، لكنه حين سأل عن المعلومة تأكد منها، فلم يقم بالتشكيك في باقي ما سمعه، وقرر أن يشغل عقله بما هو أهم وأجدى، وهو تدبيسي في زيجة من رحاب، تحصل بعد تدخله لستر فضيحة يمكن أن تمس سمعة عائلتي الثرية، فتعم الفائدة عليه وعلى «أبو سامية المعرض» وفردته الثانية رحاب التي كان يرى أنني لن أصبر كثيراً على مقاومة إغراء السقوط في حبائلها.

قبل الوقوع في فخ رحاب

لا أدري متى بالضبط لمعت تلك الفكرة النميسة في ذهن شعراوي، لكن أغلب الظن أن ذلك حدث حين رأى نظراتي الشبقة التي استقرت على منحنيات ومنعطفات جسد رحاب وهي ترقص بذمة وضمير في فرح أختها سامية، مع أنني لم أكن وحدي الذي انبهرت برحاب التي رأت في الفرح فرصة لإعلان إمكانياتها التي تؤهلها ببراعة لتجاوز أختها، ولم يكن ذلك الإعلان عاماً لكل من حضروا الفرح وهم قلة على أي حال، بل كان موجهاً نحو ثلاثة من أقارب العريس حضروا في الأغلب لإسعافه في حالة حدوث مضاعفات في ليلة الدخلة، لكن رحاب لم تحظ باهتمامهم، ليس فقط لأنهم لم يكونوا سعداء بالزيجة إيماناً منهم بمبدأ إعلاني كان منتشراً في تلك الأيام يقول «ليه تدفع أكتر لما ممكن تدفع أقل؟»، ولكن لأنهم شعروا أن تسليط نظراتهم على جسد أخت العروسة وإن كان فائراً مثل بركان فيزوف، سيغضبه أو سيحرجه، والواقع أنهم صبروا ونالوا، لأن «أبو سامية» كان قد قرر إكرام ضيوف صهره بـ«نِمرة» خاصة كان ذكرها يمرّ علي أحياناً في بعض ما أقرأه عن أخبار المجون والليالي الحمراء التي ينفق فيها الأثرياء آلاف الجنيهات والدولارات، ولم أكن أتصور أنني سأشهدها عياناً بياناً دون أن أدفع مليماً أحمر.

لم يكن حجم الشقة يتسع لحضور فرقة غنائية، فقد كان يكفي بالكاد للعشرين ثلاثين كرسياً التي جلس عليها المعازيم المنتقون على الفرازة، لكن الكاسيت الذي انبعثت منه أكثر الأغاني ترقيصاً وهشتكة قام بالواجب وزيادة، ليتم إسكاته فجأة، ثم يقوم أبو سامية وشخصان من أقاربه أو من شركائه لا أدري، بوضع ترابيزة خشبية متوسطة إلى جوار الكوشة الصغيرة التي جلس عليها العروسان، في الوقت الذي كانت أم سامية ورحاب فيه قد دارا علينا بأطباق كبيرة تحوي قطعاً منتقاة من الكفتة والكباب وخرطة مكرونة باشميل وبعض أصابع محشي الكرنب وورق العنب، وبعد أن انتهى أغلبنا من التهام ذلك الأكل البيتي اللذيذ، قام أبو سامية بإطفاء أنوار الصالة التي ظلت مضاءة إلى حد ما بالأنوار المنبعثة من باقي الشقة، وفور أن أعاد تشغيل الكاسيت ليصدح

بمطلع أغنية «حبيبي يا عيني»، اندفعت من مكان ما امرأة ترتدي عباءة سوداء فضفاضة، وقام أبو سامية بمساعدتها على الصعود إلى الترابيزة التي كانت أعلى من أن تقفز عليها لوحدها.

بعد أن بدأت ذات العباءة في التمايل من باب التسخين على الترابيزة التي ثبت متانتها، أضاء أبو سامية أنوار الصالة وبدأ في التصفيق فتبعناه دون حماس في البداية، لكننا سرعان ما تحمسنا، حين اكتشفنا أنها لا ترتدي العباءة لكونها من أقارب سامية الراغبين في المجاملة، بل كانت على وشك تقديم وصلة رقص استربتيز، حيث بدأت بفك أزرار العباءة على مهل، وانتهت بعد فترة من الزمان مرت كأنها ثوانٍ، بالشروع في خلع ورقة التوت الكلوتّي التي كانت آخر ما ترتديه، لولا أن أوقفتها صرخة العريس الذي أمرها بالتوقف عن ذلك، لأن لكل شيء حدوداً كما قال، وإن كان شعراوي يعتقد أن سامية هي التي طلبت منه أن يتدخل لوقف نِمرة النِمرة التي كانت ترقص بملحمية مدهشة، ربما لأنها تعلم أن ما كان سيراه في حالة خلع الكلوتّ أفضل مما سبق له أن رآه لدى سامية، لكن ذلك التدخل الغاشم والغشيم لم يوقف راقصة الاستربتيز عن استكمال نمرتها ولكن بالمعكوس، لتنزل من الترابيزة وهي ترتدي العباءة التي دخلت بها علينا، ثم تنزل بمساعدة أقارب العريس الثلاثة الذين لم تساعدهم الجلاليب على مداراة انتصاباتهم مثلما ساعدتنا البناطيل، لتنتهي تلك الليلة الليلاء التي ختمها شعراوي بأن قال لي فور أن دخلنا إلى الشقة بلهجة طبيب حل ضيفاً على برنامج استشارات صحية: «بالراحة على نفسك يا ابني.. ما تضربش عشرتين ورا بعض، خلي واحدة الليلادي والتانية بكره بعد الفطار، تصبح على خير».

لم يمض أسبوع على تلك الليلة الحمراء إلى حد ما، حتى وجدتني وجهاً لوجه أمام رحاب، وهي تقف على باب الشقة ممسكة بطبق مغطى بورق فويل، ومصدّرة في وجهي ابتسامة ودّ عريضة، ومفاتنها التي اجتهدت الجلّابية البيتي المحزّقة في بروزتها، وقالت وهي تمد يدها بالطبق نحوي إنها قامت بعمل حلة محشي كرنب، وقررت أن تشاركنا فيه أنا وعم شعراوي وتشكرنا على تشريفنا لفرح أختها، وحين قلت لها بارتباك إن عم شعراوي في صالون الحلاقة، لكي أنبهها إلى أهمية انصرافها سريعاً قبل أن تجيب لي الكلام، تلفتت حولها في حذر ومالت نحوي أكثر وهي تقول هامسة إنها بصراحة كانت تعرف أنه خرج من البيت، ولذلك جاءت في هذا التوقيت لأنها تريدني في خدمة إنسانية لأنها توسمت فيّ الرجولة الجدعنة، لكنها لن تستطيع إخباري بالتفاصيل ونحن على الباب.

وقبل أن أجمع الهواء اللازم للتنفس والتفكير، لأن مراكز الهيجان في المخ كانت قد سحبت أغلب الدم المخصص لتسيير حركة المخ، فوجئت برحاب تدخل إلى الشقة وتطلب مني غلق الباب، أو أن أردّه بعض الشيء إن أردت، فاخترت بالطبع تركه مواربا،ً ودخلت إلى المطبخ لأضع طبق المحشي، وأنا أتوقع أن أجدها خلفي مبادرة إلى احتضاني، قبل أن نتدرمغ معاً على بلاط المطبخ الذي لم يفارقه العفن برغم اجتهاد شعراوي في تنظيفه، لكن ذلك لم يحدث، لأنها ظلت ملتزمة مكانها في كنبة الصالة، رافضة عرضي بأن نشترك معاً في دور شاي، وطالبة مني أن أجلس وأستمع إليها ثم أبدي لها رأيي في ما تنوي فعله، لأنها سمعت من عم سيد البقال - الذي لم أعد أنطق اسمه إلا مصحوباً بلقبه الجديد «الله يحرقه»– أنني ابن ناس مستورين ومثقف ومتربّي أحسن تربية، فيبدو لي حينها أن عم سيد لم يعد يدخل إلى دكانه الخريان زبون ليشتري علبة رابسو أو مشط كبريت أو ثُمن بسطرمة، إلا وحدثه عن أسرتي الميسورة وصراعي معها من أجل تحقيق ذاتي، ربما لأنه لا يمتلك قصة أنظف أو أطهر منها لكي يحكيها، وسط كل ما يحفل به شارع خلف كازينو إيزيس من نجاسة.

كان من البديهي أن أستبعد دخول رحاب المفاجئ إلى حياتي على طمع، بعد الانتعاشة الاقتصادية التي شهدتها أسرتها، والتي بانت أول بشائرها في العربيّة البيجو الفاخرة التي اقتحم بها أبو سامية فضاء الشارع عقب الفرح بيومين، مصحوباً بزغاريد أم سامية التي وقفت تستقبل المحروس زوجها في البلكونة، قبل أن تنزل إليه هي وإحدى قريباتها - أو مساعداتها لا أعلم– ليشتركا في ذبح أرنب على «الكبّوت» وطرطشة دمه على الإطارات الأربعة، فداءً للعربيّة الفرنسية من عيون الحاسدين، ولأنني لم أكن أمتلك الكمية الكافية من الدم لتوزيعها بالعدل على مراكز الهيجان والخيال والإنصات وضبط النفس في المخ، فقد قررت تقسيم ما أملكه بين مراكز ضبط النفس والإنصات، لكي لا أرتكب حماقة أندم عليها، مع أن رحاب لم تكن تساعدني بقيامها بهز رجلها بعصبية يرتج منها ثدياها المتوثّبان، لذلك قررت أن أكبح جماح هيجاني باستحضار كل قصص أبي ومروياته عمّا أعده الله للزناة من عقاب أليم، وكل تحذيرات أمي من سخط الله وعواقب الانفضاح بين خلقه، طالباً من رحاب أن تحكي لي ما لديها شاكراً على حسن ظنها، وواعداً بمساعدتها بما استطعت.

لم أكن بحاجة إلى المزيد من ضبط النفس، لأن دموع رحاب الغزيرة تكفلت بذلك، حين انهارت وهي تحكي لي عن ضيق أبيها اللعين بالحظر الأخلاقي الذي فرضه عليه صهره الجديد، ولأنه

طماع ودنيء، فهو كما فوجئت رحاب، لم يكتف بسيل الفلوس المنهمر عليه كل شهر من صهره وابنته التي لا تنساه هو وأمها وأختها من هداياها، وقرر أن يسعى لرحاب هي الأخرى في زيجة مشابهة لزيجة أختها، وهو ما لم تكن رحاب لتمانع فيه لو كان العريس شاباً أو حتى رجلاً أربعينياً كالذين حضروا الفرح من أقارب زوج أختها، لكنها فوجئت به يبشرها بقرب زيارة عجوز من أقرب أصدقاء صهره، أعجبته التجربة التي خاضها صديقه، والتي ظهرت آثارها الحسنة على شكله ومزاجه، فقرر الاقتداء به، وأعجب الصديقان بفكرة الاشتراك في الزواج من أختين، وهي فكرة استحسنتها سامية التي وازنت بين مساوئ زواج أختها من عجوز كُهنة، وبين محاسن وجودها معها في نفس البلدة الغريبة، فرجحت كفة المحاسن، وهو ما عرفته رحاب حين هرعت إلى سنترال الطالبية لتتصل بها من وراء ظهر أبيها، وتشكو لها من المصيبة القادمة، ففوجئت بها تزين لها ذلك الاختيار الذي سيحل مشاكلهما مدى الحياة، وسيخلصهما من سيطرة أبيهما اللعين وأمهما الكريهة، لتشتمها رحاب وتغلق في وجهها السكة وتعود إلى البيت باكية منهارة، وقد أدركت أنها لا تملك في هذا الزمان حلفاء يمكن أن تستعين بهم على مواجهة المصيبة القادمة، فقررت أن تلجأ إليّ لعلي أكون حليفها على خطة الهروب العاجل إلى الإسكندرية، الذي تنتويه قبل وصول العريس في الصيف.

لم تكن رحاب تعرف إلى أين ستذهب في الإسكندرية، بل ولم تكن قد ذهبت إلى الإسكندرية من قبل، لكنها كانت بحكم إدمانها للأفلام والمسلسلات العربية، تتعامل مع الإسكندرية بوصفها المهرب الدرامي الأمثل، وكان مسلسل «ذئاب الجبل» أحدث تلك المسلسلات التلفزيونية التي قدّمت الإسكندرية كمهرب درامي مثالي قد حقق نجاحاً طاغياً في نفس العام، وهو ما شجع رحاب على تكرار التجربة، ولأنها كانت قد علمت من عم سيد الله يحرقه أنني على خلاف مع أسرتي التي «تسكن أرقى أحياء الإسكندرية»، لم تطلب مني أن أقوم بتخبئتها عند أحد من أهلي أو معارفي، ولم تطلب مني أيضاً أي مساعدة مادية لأنها تمتلك تحويشة مناسبة لتأمين مصاريف الهروب، لكنها توقعت وتمنّت أن أكون عوناً لها في رحلة هروبها، سواءً بإمدادها بمعلومات وافية عن المطرح الأمثل الذي يمكن أن تسكن فيه بمفردها أو مع أخريات، أو المكان الذي يمكن أن تجد فيه شغلانة شريفة، تساعدها على استكمال دراستها وبناء مستقبل نظيف مشرق، وهي مهمة أعلَنَت بالنيابة عني أنني سأكون سعيداً بها لأن ما سينالني من ثواب بسببها، سينهمر علي طول العمر، فضلاً عن أنها لن تنساه لي، حين تقف على رجليها وتبدأ حياتها الجديدة التي سأكون من أهم أركانها.

كانت المفاجأة أقوى من احتمالي، فأخذت أهلفط بكلام إنشائي عن الشرف والتغيير والبدايات الجديدة والأمل في بكره، قبل أن تربكني رحاب أكثر حين قالت لي إنها تتوقع مني في زيارتها القادمة التي ستكون بعد يومين، اقتراحات عملية بأماكن للسكن والعمل، لتنهض بعدها وهي تنظر مرتبكة إلى ساعتها، وتشكرني على سعة صدري وحسن إنصاتي، ثم تتوقف قبل وصولها إلى الباب، وتستدير مادة يدها لي بالسلام، وحين منحتها يدي، وضعتها بين كفيها بحنان، ثم أخذت تهزها بحماسٍ ارتبكت له مراكز المخ، فكادت تصدر أمراً بالإنزال المنوي المباغت، لولا تدخلي العاجل لفرملة ذلك، وقبل أن أفتح الباب وأدفعها عبره قبل حدوث ما لا تُحمد عقباه، باغتتني بسؤال عما إذا كان يمكن أن أسافر معها إلى الإسكندرية حين تهرب، فقط لكي أوصلها إلى المكان الذي ستأوي إليه، فتدخل الإسكندرية مصحوبة بعِزوة بدلاً من أن تدخلها طريدة شريدة، وحين هززت رأسي هزة حيرة، لا هزة تسليم بما قالته، وجدت نفسي في حضنها لثوانٍ لو طالت لكانت تلك اللحظة البريئة قد تحولت إلى مسخرة، لكنها انتزعت نفسها من حضني في الوقت المناسب، وفتحت الباب جارية نحو السلم، لأجري أنا نحو الحمام، لعلي أستطيع بعد خروجي منه التفكير بهدوء في المصيبة التي ارتمت في حضني بدون ميعاد.

على عكس ما توقعت، لم يتحمس ناجي برغم تديّنه وحسن خلقه لفكرة اشتراكي في تهريب رحاب، ولم يبال بكل ما قالته عن الثواب والأجر والصدقة الجارية، وقال إنني يمكن أن أجيء لنفسي بمصيبة لو تم إيقافي أنا وهي للاشتباه والتحري خلال سفرنا إلى الإسكندرية، ولأنني لا أستطيع أن أثبت صلة قرابة بها، سيكون علي أن أجيب على أسئلة الضابط الذي سيشك فينا، وهو ما سينتهي بإعادتها إلى أهلها وإيداعي السجن للتغرير بفتاة وتشجيعها على الانحلال والخروج على طوع أهلها، وبالطبع لم أعترض على افتراضه أن منظر رحاب سيثير الاشتباه، لكنني حاججت بأن هذه المشكلة يمكن حلها بإلباسها نقاباً لكي لا تلفت انتباه أحد، ثم سرعان ما تذكرت الشكوك الأمنية التي أصبحت تنصب على المنقبات بعد تصاعد العمليات الإرهابية في السنوات الأخيرة، فأخذت أتهمه بتكسير المقاديف وأطلب منه أن يقترح حلاً ناجعاً يساعد المسكينة أو يسكت، لكنه لم يقترح حلاً ولم يسكت.

على العكس، تحمس أمجد الفلاتي الهلّاس لرغبة رحاب في فتح صفحة جديدة في الحياة، وقال إن الأمر لا يحتمل التأجيل حتى الصيف، لأن ذلك العريس العجوز قد يهفّه الشبق إليها فيقدم سفره، وحينها لن يكون بوسعها الهرب، عارضاً أن يقوم بتشغيلها فوراً في مصنع الزبادي والألبان الذي

تمتلكه الأسرة، وأن يتكفل بالبحث لها عن سكن مع بعض فتيات المصنع، فشكرته على حماسه ووعدته بنقل الفكرة إليها في زيارتها القادمة، لكن ناجي البارع في تكسير المقاديف، ذكرني بما سبق أن حكاه لنا أمجد عن علاقاته ببعض فتيات المصنع اللواتي غرّر بهن، مشككاً في براءة حماسه لإسراع رحاب بالهرب من أسرتها، ومنبهاً إلى أن رحاب لن تسامحني لو شاركت في مهزلة كهذه، ستجعلها تهرب من زيجة كريهة تجيب همها، إلى علاقة نجسة تبيع فيها نفسها بالرخيص، ومع أن ما قاله ناجي بدا وجيهاً، لكنني قاوحته ودافعت عن حسن نوايا أمجد، متهماً ناجي بالتخلف لأنه يرى الدنيا كلها بمنظار الأبيض والأسود، فقد يكون لأمجد سقطات أخلاقية، لكن ذلك لا ينفي جدعنته وروحه الخيرة، بدليل أنني الهائج على رحاب حتى الثمالة، أصبحت أرى في إنقاذها من أسرتها المنحطة واحداً من أشرف وأهم مشروعات حياتي.

في زيارتها التالية لم تعجب رحاب بفكرة أمجد، مع أنها أوصتني أن أشكره على جدعنته، لكنها قالت إنها أصبحت تعتبر سفرها المرتقب إلى الإسكندرية بمنزلة ميلاد جديد تحلم به، وأن أول ما ستفعله حين تصل إلى الإسكندرية هو الذهاب إلى بحرها والانغماس فيه حتى أم رأسها، لتخرج منه خالية من الذنوب والخطايا، ومع أنني لم أكن أعرف أن لبحر إسكندرية الذي أعرفه منذ طفولتي خواصّ تطهيرية، لكن ما قالته ذكّرني بطقس التعميد في المسيحية الذي لعلها رأته في مسلسل أو فيلم ما، فتأثرت به، ولذلك تأثرت بدوري بفكرتها، وحين طلبت مني أن أساعدها في تحقيق حلمها لأنها لا تجيد العوم، لم أقل لها إنها قررت أن تستند إلى حيطة مايلة، وقلت لنفسي إن تنفيذ هذه الفكرة يمكن أن يكون على مقربة من الشاطئ لأنها في النهاية فكرة رمزية، الهدف منها أن تأخذ رحاب غُطساً في المالح وهي متشبثة بي، ثم نخرج من البحر مسرعين قبل أن نلمّ علينا الناس، مقرراً إقناعها بتأجيل الفكرة إلى فجر اليوم التالي الذي نصل فيه، لأذهب معها إلى بقعة بعينها في شاطئ الأنفوشي، كانت أمي تذهب إليها مع إحدى جاراتنا للعوم بعد صلاة الفجر، وتخرجان من الماء قبل ازدحام الدنيا.

لم تخف رحاب سعادتها حين رأت أن حماسي لفكرة هروبها قد زاد مقارنة بالمرة السابقة، لدرجة أنني أصبحت أفكر في تفاصيل تعميدها في بحر إسكندرية، لكنها أعربت عن خيبة أملها لأنني لم أنجح في تقديم تصور عملي عن المكان الذي يمكن أن تعمل فيه بعد هروبها، لأن أمر السكن سيكون مقدوراً عليه بشكل مؤقت مع تعدد الفنادق واللوكاندات الصغيرة التي تتسامح مع سكن الفتيات والسيدات دون أن يكون برفقتهن أحد، لكنها تفهّمت حين قلت لها إن يديّ مقيدتان بسبب

خلافاتي الشديدة مع أسرتي، وأن الأمر سيتطلب بعض الوقت حتى أصل إلى سكة مضمونة لشغل تستطيع استلامه فور وصولها إلى الإسكندرية، وأن أفضل فكرة خطرت على ذهني هي أن ألجأ إلى أحد أخوالي الذي يعمل في شركة الأسمدة والكيماويات في منطقة «أبو قير»، ليس لأنه أكثر من أعرفه دراية بملف العمل والتوظيف، ولكن لأنه بحكم شقاوته القديمة وصياعته الطويلة التي انتهت بتوبة نصوح مدهشة لكل من عرفه، سيمتلك قدرة على تفهم حالتها ورغبتها في التغيير، وسيتحمس للمساعدة في ذلك، لكن شرح الفكرة له في الهاتف لن يكون قراراً صائباً، لأن من عيوبه الرغي والرطرطة في الكلام، ولذلك أفضل أن أؤجل مفاتحته في الموضوع حين نذهب إلى الإسكندرية ونضعه أمام الأمر الواقع.

ابتهجت رحاب للفكرة ومنحتني حضناً أقوى وأطول، ثم فاجأتني حين انهالت على يديّ لتقبلهما وهي تبكي متأثرة وحالفة بالله أنها لن تنسى جميلي ما عاشت، ليزداد ارتباكي، حين ارتطمت يدي بثدييها وأنا أحاول إبعاد فمها عن يدي، لترتبك أولوياتي ما بين إقناعها بالهدوء والسيطرة على النفس، وما بين توفير هذا الإقناع لنفسي لعلها تنجح في تهدئة انتصابي الذي لم يكن يتناسب مع جلال الموقف وطهرانيته، دون أن يخطر على بالي أنني كنت وقتها في حضرة ممثلة بارعة لو أتاحت لها الدنيا فرصة أن تقدم أداءً كهذا أمام كاميرات السينما والتلفزيون لأقعدت نجمات كثيرات متوسطات الموهبة في بيوتهن.

حين أخذت بعد ذلك أسترجع شريط ما جرى، قبل أن أوجه اللوم لنفسي على غفلتها، اكتشفت أنني لم أكن لأبادر إلى الشك في رحاب، ليس فقط لأن أداءها كان مدهشاً ومضبوطاً على الشعرة، بل لأنها بعيداً عن ذلك لم تطرح فكرة غير منطقية أو مبالغاً فيها، وحتى حين اقترحت علي فكرة الزواج العرفي ليكون لدينا ورقة تثبت زواجنا إن أوقفنا حدّ من الحكومة خلال رحلة هروبها، لم تبادر هي إلى طرح الفكرة، بل قالتها كإجابة على السيناريو المتشائم الذي طرحه ناجي والذي صارحتها به، وحين رأت الارتباك الذي قابلت به الفكرة، وهو ارتباك لم يكن سببه الرفض بل المفاجأة، بادرت إلى سحب الفكرة وقالت إنها وجدت فكرة أفضل وأكثر عملية، وهو أن نطلب من أمجد بوصفه ثاني المتحمسين لهروبها وميلادها الجديد، أن يوصلنا بسيارته المرسيدس إلى الإسكندرية، لأن ماركتها وفخامتها ستكونان الدرع الواقي لنا من غتاتة وفضول رجال البوليس، وهي فكرة تحمس لها أمجد، وقال إنها ستكون أقل هدية يقدمها لهذه الإنسانة الرائعة التي تثبت أن الدنيا بخير، ليثبت بموقفه النبيل زناخة مخ ناجي الشكاك الذي لم أعد أشركه في تفاصيل علاقتي

برحاب، زاعماً له أنني اقتنعت بما قاله ولذلك قطعت معها بحدة، وطلبت منها ألا تعود إلى الشقة ثانية لكي لا تتسبب لي في فضيحة تعطلني عن دراستي في وقت حرج، تفصلني فيه عن الامتحانات أسابيع قليلة فاصلة.

لم أقل لناجي إن رحاب التي كان يتهمها بأنها ستقضي على مستقبلي الدراسي، قد أعلنت لي منذ أول زيارة أن أكثر ما يهمها هو أن أحقق حلم التفوق في امتحانات نهاية العام، وأنها لن تسامح نفسها لو تسببت في تعطيلي عن ذلك الحلم، ولذلك حرصت على أن تكون زياراتها مقتصرة على يومي الجمعة والأحد اللذين يقضي شعراوي أغلب أوقاتهما في صالون الحلاقة، وحين قلت لها إنني يمكن أن أغيب عن محاضراتي يوم الأحد لنقضي وقتاً أطول، قالت لي إنها ستمتنع عن زيارتي لو فعلت ذلك، لأن تفوقي الدراسي خط أحمر بالنسبة لها، ووافقت على مضض حين رجوتها أن تضم يوم الخميس إلى قائمة أيام زياراتها لأن شعراوي أصبح يعمل فيه ساعات أطول، مصممة على ألا يزيد وقت زيارتها عن ساعة أو ساعة ونصف في كل مرة، لكي تتمكن من التغطية على غيابها عند أمها، أما أبوها فقد أصبح منذ أن اطمأن إلى مستقبله المادي يقضي النهار كله نائماً والليل كله على القهوة، أما فكرة اللقاء بها خارج البيت فقد رفضتها رحاب من أول لحظة، بل وغضبت مني لأنني طرحت فكرة خطيرة مثل هذه يمكن أن تؤدي إلى انكشاف علاقتنا وانهيار حلمها بالولادة من جديد.

ربما كان يمكن لي أن أشك في نوايا رحاب، لو أنها طاوعتني في المرات القليلة التي حاولت فيها أن أجعل من حضنها الدافئ الممتن لوقفتي الرجولية، مدخلاً للتأكيد على وقفة أخرى كانت تثيرها وتؤججها مع كل زيارة، لكنها تجاهَلَت الارتطامات التي تعمدت حدوثها في الحضن الذي أنهى زيارتها الثالثة، والتي صوّر لي شيطاني اللعين أنها ستكون بمنزلة رسائل لا تقبل الشك والرفض، وحين توقعت أن تسلقني بألسنة حداد معربة عن خيبة أملها في شخصي الهائج، فاجأتني بالترفع عن ضعفي البشري، وكأنها لم تلمسه وتدرك احتياجه إليها، مصوبة نحوي نظرات حزينة متضرعة وهي تقول لي إنها لم ولن تثق في أحد مثلما وثقت في، ثم تبشرني أنها منذ تعرفت عليّ أصبحت تصلي الفرض بفرضه، وأنها تدعو لي في كل سجدة بأن أتفوق وأحقق كل أحلامي لتراني في أحسن مكان، وبالطبع كان من المستحيل أن أفاتحها بأحلامي الفاضحة أو بتصوراتي المزرية لأحسن مكان يمكن أن يجمعنا معاً، لأكتفي ببلع ريقي وهز رأسي مستعجلاً خروجها، لكي أريح ضعفي البشري من وقفته الطويلة، وأتفرغ لمحاسبة نفسي الأمارة بالسوء وأطلب منها أن

تشوف لنا حلاً في هذه الحالة المزرية التي لن ينفع فيها أن نجمع بين دور المنقذ الجدع والشرير الهائج، حتى لو كنا ندرك بحكم دراسة الفلسفة أن نفس الإنسان أكثر تركيباً وتعقيداً من أن يتم تسكينها في دور واحد.

ما يدهشني الآن أن نفسي التي لم أعرفها من قبل إلا أمّارة بالسوء محرضة عليه، استكانت أمام ضعف رحاب وانكسارها ورغبتها في التوبة، ليس لأن رحاب أصبحت تحضّني بشدة كلما زارتني على الصلاة وقراءة القرآن لكي يكرمني الله في امتحاناتي، حتى إنها طلبت مرة أن نصلي العصر معاً، وهو طلب كان تحققه كفيلاً بالقضاء على أي انتصابات محتملة، خاصة أن رحاب أصبحت تتعمد اختيار ملابس أوسع وأكثر حشمة مع كل زيارة، أما لقاءاتنا نفسها فقد تحولت مع الوقت إلى حلقات من برنامج فتاوى واستشارات اجتماعية يمكن أن تتم إذاعتها ببساطة على إذاعة القرآن الكريم ليستفيد منها كل خطّاء راغب في التوبة.

كانت أسئلة رحاب موجهة بذكاء شديد لتضعني في مواجهة نفسي في اللحظة المناسبة، لتذكرني بكل ما قلته عن أهمية التسامح مع الراغبين في فرصة ثانية في الحياة، وخطورة التعامل مع الخطايا بوصفها أبدية، وإدراك أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، خاصة أنها استدرجتني أكثر من مرة لأجيب بحماس على أسئلة افتراضية من نوعية «تفتكر هالاقي راجل يحبني ويتجوزني لو عرف أنا كنت إيه وبنت مين؟»، لأقول لها إنها لن تكون في حاجة إلى أن تصارح أحداً بماضيها لأنها ستولد من جديد، ومن يعرفها لن يرى إلا رحاب الجديدة، المكافحة الشغيلة التي لا تأكل بثدييها، أما إن حصل وعرف لسبب أو آخر، فإن ابتعاده عنها بسبب هذا الماضي، سيكون مشكلته هو، وسيكون عليها أن تحمد الله لأنه نجاها من رجل ضيق الأفق يتصور أنه إله من حقه أن يحاكم البشر ويحاسبهم، ومع أنني كنت في كل مرة أتوقع أن تبادرني بسؤال «طب انت لو مكانه تعمل إيه؟»، إلا أنها لم تسأله لي ولا مرة، وهو ما جعلني أقتنع أنها لم تكن ترى فيّ أكثر من منقذ جدع أرسله الله لكي يجسد لها قول إبراهيم ناجي على لسان أم كلثوم «ويدٍ تمتد نحوي كيدٍ.. من شباك الموج مُدّت لغريق»، ولا أنكر أن ذلك أراحني كثيراً وجعلني أقضي أوقاتي معها دون توتر، لأنني كنت قد تورطت معها إنسانياً لا عاطفياً، فقد كنت في ذلك الوقت غارقاً في قصة حب عاصفة سيتضح فيما بعد أنها أشد بلاهة وعبطاً مما كنت أتصور، ولذلك لم أجد مشكلة بعد أن كبحتُ جماح ضعفي البشري المتكرر، في التعامل مع رحاب بوصفها «الحتة الطرية الطاهرة في حياتي».

لم يكن ليخطر على بالي وقتها أن شعراوي أجاد هندسة علاقتي برحاب، ليس فقط لأنه كقوّاد عُقر يدرك فعالية مبدأ «شوّق ولا تدوّق» في الفتك بالنفس البشرية، بل لأنه لم يكن يرغب في المخاطرة بحدوث الفضيحة التي خطط لها في وقت يؤثر على أدائي في الامتحانات، فينتج عن ذلك اختلال في تفوقي الدراسي الذي كان يراهن عليه، ولذلك كانت تعليماته صارمة لرحاب بألا تتمادى أكثر من اللازم، مهما بدا الأمر سهلاً بالنسبة لها بحكم خبرتها وتمرسها، منبهاً عليها أن تدرك أنني بحكم السن مختلف عن زبائنها المعتادين الراغبين في النط والجري، لأنها لو نامت معي مرة سيكون من المستحيل بعد ذلك إقناعي بالزواج منها مهما حدث، وأن المكان الأمثل للفضيحة التي سيكون سهلاً بعدها إجباري على تصليح غلطتي معها، هو الإسكندرية، خصوصاً بعد أن أقوم بتوريط خالي في البحث لها عن وظيفة وسكن.

كل هذا عرفته بالصدفة من ميمي الذي قرر تنبيهي إلى تلك المؤامرة لأسباب عانيت من أجل استيضاحها، ولأنني لم أكن لأصدق روايته بسهولة، فقد حرصت على أن أواجه رحاب بها، لتعترف لي بالحقيقة المرة، صحيح أن اعترافها جاء متأخراً، لكن المهم أنه جاء قبل فوات الأوان.

ميمي يكشف المؤامرة
في دخول مفاجئ

كان الخريان ميمي آخر من أحتاج إلى رؤيته قبل أسابيع قليلة من بدء امتحانات نهاية العام الدراسي، وكان باب معهد الإحصاء حيث أدرس آخر مكان أتوقع رؤيته فيه، لكن ذلك كان قضاءً أخف من مداهمته لي داخل مدرّج الدراسة كما كان يسعى، لكن الحرس الجامعي منعه من الدخول لأنه لا يحمل بطاقة جامعية ولا شخصية، فظل ينتظرني لأكثر من ساعتين متلقّحاً على سور جنينة الأورمان المواجه لباب المعهد، كل ذلك لأنه لم يكن يستطيع المخاطرة بمقابلتي في شقة أمه، بعد أن قطع أبوه رِجله عنها، وحذره من العودة إليها والاتصال بي لأي سبب، ومع أنه كان يعرف المواعيد التي يذهب فيها أبوه إلى عمله الجديد، فإنه لم يرغب في تحدي أوامر أبيه، ليس احتراماً له، بل خوفاً من جواسيسه الذين ينقلون إليه كل ما يجري في الشقة والشارع أولاً بأول، وكنت أتوقع أن يكون عم سيد البقال و«أبو سامية المعرص» من بينهم، لكني لم أكن أتوقع أن يكون من بينهم رحاب الطاهرة المتطّاهرة والراغبة في الميلاد الجديد.

كانت هذه طريقة ميمي لكي يصدمني ويضعني في أجواء ما هو قادم من أجله، لكنه بذكائه المفرط لم ينتبه إلى أن ذلك المدخل الصادم، سيتناقض مع الحدوتة الصايصة التي أجهد نفسه في اختراعها، وهي أن أمه طيّب الله ثراها وبشبش الطوبة التي تحت رأسها، جاءته في المنام متشحة بالأبيض في أبيض، وقد بدت على وجهها علامات الفزع، ورجته أن يذهب إليّ في أسرع وقت ممكن، ويخبرني أن آخذ حذري من شعراوي الزِناوي - هكذا نَطَقَت اسمه في برزخها ومنام ميمي كما كانت تنطقه في حياتها ويقظته– لأنه يحفر لي مصيبة بالتعاون مع حِرباية جلدها ألوانه زاهية وبراقة لكن سُمّها ناقع وفتاك، وحين سألها ميمي في منامه عن اسم هذه الحرباية قالت له إنها لا تعرف اسمها ولكنها رأت أن هذه الحرباية حين تعود إلى جُحرها، يستقبلها أمامه أبو سامية المعرص ويقوم بالتربيت عليها، قبل أن يتركها لتدخل إلى الجُحر، ويذهب للحديث مع شعراوي

بحديث لم تتبينه أم ميمي كاملاً، لكن ما سمعته من طراطيش ذلك الحديث يفيد أنني سأكون هدفاً لغدر تلك الحرباية.

حين وصل ميمي إلى ذلك الجزء من حكايته المتهافتة، كنا قد تجاوزنا في تمشيتنا سور كلية الزراعة القريب من ميدان الجيزة، فسمح لي المكان الخالي نسبياً من المارة أن أتوقف وأنظر في عينيه وأنا أشخر له شخرة حادة، ثم أطلب منه أن يتوقف عن «الأفلامانات الخايبة» ويجيب من الآخر، وإلا أخبرت أباه فور رجوعي إلى البيت بزيارته المفاجئة، ولم يكن ليشجعني على رد فعل كهذا إلا ما لمسته من ارتباكه وقلقه، اللذين جعلاني أراه ميمي مختلفاً عن ميمي الذي عرفته قبل أشهر فلم أر منه إلا كل أذى وغتاتة، وكانت المفاجأة أن ميمي لم يغضب من شخرتي التي لم أكن أجرؤ على توجيهها إليه من قبل، بل سكت قليلاً ثم ربّت على كتفي ضاحكاً وهو يقول: «برافو عليك.. صاحي والله.. ده أنا افتكرت موضوع الحلم ده هياكل معاك عشان انت كنت بتحب أمي الله يرحمها».

بالطبع، لم يكن الوقت مناسباً لأقول لميمي إنني لم أكن أحب أمه ولا أطيق منظرها، خاصة أنني أكبرت له عدم المقاوحة واعترافه السريع بتفاهة القصة التي قام بتأليفها، لذلك انتهزت فرصة ذكر أمه، وحلّفته برحمتها وبغلاوتها عندي وعنده أن يدخل في الموضوع الذي جاء من أجله، لأنني مرهق وجائع ولست حِمل خسارة ساعة في هذا الوقت العصيب الذي اقتربت فيه الامتحانات، فأخذ نفساً عميقاً وقال لي إنه سيدخل في الموضوع وسيحكي لي الحكاية من طقطق إلى السلام عليكم ولكن بعد أن نأكل لقمة نجدد بها الأيام الخوالي التي جمعنا فيها العيش والملح على طبلية ست الكل، وهي الأيام التي لم أنازعه في تقديره المبالغ لها، مكتفياً بهز الرأس والتنهد مجاملة واحتراماً للمياه المالحة التي اغرورقت بها عيناه إما صدقاً أو تمثيلاً، لم أكن متأكداً بالأمانة.

لم أقاوح طويلاً حين أصر ميمي على دفع ثمن الكُشري الذي أكلناه معاً في الحديقة المجاورة لكوبري عباس، نادماً على أنني لم أختر إحضار الغداء من كافتيريا «أولاد طلعت» التي أعشق سندوتشاتها البديعة، لكنني لم يخطر على بالي أن يتصدر ميمي لدفع الحساب، في بادرة لم أكن أحتاجها لأتأكد أنه لم يخبط هذا المشوار لوجه الله، وأنه جاء من أجل مصلحة تتعلق بالتأكيد بفردوس الشقة الموعود الذي حرمه أبوه منه، وهو ما تأكد بعد أن انتهى ميمي من سرد قصته الجديدة التي تغيرت تفاصيلها عن القصة السابقة، لكنه تمسك في القصتين بدور المنقذ الذي جاء

لتخليصي من الهلاك على يد الحرباية ذات الجلد الزاهي الألوان التي اتضح أن ميمي يعرف اسمها جيداً.

حين سألت ميمي عن السبب الذي جعله يختار اللف والدوران واللجوء إلى حيلة هابطة مثل حكاية الحلم الذي زارته أمه فيه بعد موتها، وهي التي لم تكن تطيق رؤيته في حياتها، قال بعد تردد إنه كان يخشى أن يكون ما سمعه عني صحيحاً، وأن أكون قد وقعت لشوشتي في غرام رحاب التي تزعم للكل أنني أصبحت كالخاتم في إصبعها، ومع أن كلامه العبيط السابق كان قد جعلني أتأكد أن لزيارته علاقة ما برحاب، وأن أحد الجيران رآها وهي تدخل إلى شقتي، أو سمع صوتها ينبعث من شباك غرفتي المطل على الشارع، إلا أن ما قاله بشكل مباشر وواضح أربكني وجعلني أرد متلعثماً ومنفعلاً وأنا أقسم له إنني لا أعرف ما الذي يتحدث عنه، وأنني لا تربطني برحاب علاقة من أي نوع، وأن من نقل إليه هذا الكلام قد خدعه، وعليه أن يواجهني به إن أراد، لألقنه درساً يتعلم بعدها أن لا يخوض في سمعتي أبداً.

كانت الشخرة الحادة هذه المرة من نصيبي، منبعثة من حلق ميمي الذي استغرب لجوئي للمراوغة والعلوقية، في الوقت الذي أدعي فيه أنني حريص على استثمار وقتي في المذاكرة، قبل أن يسلقني بنظرات حادة طافحة بخيبة الأمل ويقول لي: «الشرموطة بتشتغلك يا ابني.. افهم بقى»، وقبل أن أكمل البربرة بكلمات من نوعية «شرموطة مين.. انت بتتكلم عن إيه؟»، تجاهلني وأخذ يحكي عن تفاصيل الملعوب الذي طق في دماغ شعراوي بعد أن رأى دلقتي على مفاتن رحاب في ليلة الفرح، فقرر أن يضاعف حجم انتفاعه من أسرتي التي يتوهم ثراءها، فلا يظهر أمامهم فقط بصورة الجدع الذي وقف إلى جواري في ساعة العُسرة وساعدني على التفوق الدراسي، بل يظهر أيضاً في صورة الفارس النبيل الذي أنقذ رقبتي من الطيران، حين اكتشف أهل رحاب أنني ألعب ببنات الناس وأغرر بهن وأسقيهن «حاجة أصفرة»، ويضمن في الوقت نفسه عمولة مجزية سيحصل عليها من صهري المستقبلي «أبو سامية المعرص» الذي سيضطر أهلي للقبول بشروطه وطلبات بنته بدلاً من الفضيحة المجلجلة في أوساط المجتمع السكندري الراقي الذي يمكن أن ينظر إلي بإكبار حين أخاصم أهلي من أجل تحقيق أحلامي، لكنه سينظر إلي بازدراء وتحقير، حين يعلم أنني حاولت اغتصاب فتاة بريئة لم تكمل العشرين من عمرها، بعد أن أسمعتها من معسول الكلام ما جعلها تضعف وتزورني في شقتي، ظناً منها أنني سأساهم في رفع ثقافتها وزيادة وعيها،

فيتضح أنني مجرد وغد كسائر الأوغاد لا يطمح إلا في رفع سوتيانها وإنزال كلوتّها وتغطيس أقرعه فيها.

ولأن شعراوي كان حريصاً على أن يلعب دور البطل المخلّص بشكل مزدوج، فقد اختار أن تقع واقعة ضبطي متلبساً باغتصاب رحاب في نفس اليوم الذي أنتهي فيه من امتحاناتي، ولذلك أصدر تعليماته المشددة لرحاب أن تحرص على تشويقي وتلويعي في كل مرة ألتقي بها، وألا يزيد ما تقدمه لي عن حضن دافئ أو قبلة عابرة على الخد، لكي أستوي وأكون على آخري حين تأتي ساعة الصفر، فلا أستطيع مقاومة إغراءها لي، وأتصور أنها ضعفت أخيراً أمامي وقررت أن تمنحني ما كنت أتمناه، ثم يعلو صوت صراخها في لحظة ما، لتكون تلك إشارة البدء لعملية اقتحام الشقة على يد شعراوي وأبيها المعرص وبعض محاسيبه الذين سيكون من بينهم صديقه الذي قام بتصوير الفرح، والذي سيحمل معه كاميرته الفيديو ليكون شريطها دليلاً دامغاً لا يمكن دحضه، وهو اقتراح تشكك أبو سامية المعرص في جدواه، ليس خوفاً على سمعة ابنته التي ستظهر في الفيديو، ولكن لأنه يشي بوجود تحضير مسبق للإيقاع بي، لكن شعراوي طمأنه أنه لن يستخدم الفيديو كورقة للمساومة مع أهلي، بل سيستخدمها لإجباري على توقيع عقد زواج عرفي، سيقدمه أبو سامية لأهلي حين يزورهم برفقة شعراوي الذي سيطرح نفسه كوسيط راغب في لمّ الموضوع وتحويل العقد العرفي إلى عقد رسمي يوفّق رأسين في الحلال ويعطي كل ذي حق حقه.

كنت قد فقدت قدرتي على التمسك بوجه لاعب البوكر بعد لحظات من حكي ميمي لسيناريو النصباية التي كان يفترض أن أكون ضحيتها، لتبدو آثار الصدمة جلية على وجهي الممتقع وأنفاسي المتلاحقة، ولأن الحكاية بدت متماسكة إلى حد يصعب التشكيك فيه، قررت أن أكابر بشكل مختلف، فيكون أول ما يصدر عني بعد أن انتهى ميمي من حكايته، تساؤل بارد النبرات عن المصدر الذي عرف منه حكايته التي يفترض أن يكون أبوه حريصاً على إخفائها عنه، خاصة بعد أن اتضح أن الموضوع أكبر من مجرد رؤية رحاب داخلة إلى شقتي أو سماع صوتها منبعثاً من شباكي.

حين رفض ميمي أن يرد على سؤالي مباشرة، لم أمانع نفسي من الجري وراء خاطر قال لها إن كل ما قاله ميمي ليس سوى كذبة متقنة الصنع، يمكن أن يكون وراءها صهره اللعين صبحي الذي لم أكن محتاجاً للتأكد من وساخته بعد أن رأيتها رأي العين، وربما كانت فاتن المنحطة هي المبادرة

بكيدها العظيم إلى تأليف الحكاية، صحيح أنني لم أعهد عنها إلا العبط والبلاهة، لكن ما الذي يمنع أن تكون مواهبها الشريرة قد تفجرت بعد صراعها مع أبيها وإحساسها بالخذلان هي وزوجها لأنه أخرجهما من مولد الشقة بلا حمص، ولحس وعوده لهما بالإسراع في بيع الشقة بعد تعلية سعرها، قبل أن يكتشفا أنه فضّل عليهما الاهتمام بغريب يطمع في ثروة أهله.

لكن إذا كان ميمي وفاتن وصبحي قد عرفوا بموضوع ثروة أهلي من عم سيد البقال الله يحرقه، وعرفوا بموضوع تردد رحاب على شقتي من أحد الجيران المقيمين أو المارة العابرين، فمن أين عرفوا أن رحاب لم تكن تمنحني حين نلتقي إلا أحضاناً منضبطة وقبلات أخوية؟ وهي تفصيلة كانت بالنسبة لي كافية للتأكد من مصداقية ما رواه ميمي، ومع ذلك قررت أن أكابر بالسؤال عن مصدر سرديته، مع أنني سألت نفسي قبل ذلك: إذا كنت مخترقاً إلى هذا الحد ومختوماً على قفاي، هل سيفرق معي في شيء أن أعرف المصدر الذي عرف منه ميمي الحكاية؟ وهل من الحكمة الآن أن أضيع وقتي الثمين في شيء غير التفكير في الخلاص من هذا الخازوق المتين؟

كانت معرفة المصدر الذي أخبر ميمي بالحكاية ستقطع أي شكوك سوّلتها لي نفسي الغاضبة من الظهور بمظهر المخدوعة المُقرطَسة، لكن ميمي لم يجبني بسهولة، بل اختار سكة اللوع في البداية، وأحسبُ أنه خلال فترة الصمت التي انهلت فيها بالأسئلة على نفسي، كان يطرح على نفسه أسئلة عن جدوى كتمان مصدره، فاكتشف ربما أن مكاشفتي بالمصدر ستكون أجدى في تأكيد صدقية الرواية وإعلان حسن نواياه ورغبته في الخلاص من أبيه، حتى وإن كنت أعرف أن هدفه من كل ذلك هو أن أختفي من حياته في أسرع وقت ممكن، ليخلو له ولأخته وزوجها وجه الشقة، ويسهل عليهم دفع أبيه إلى بيعها، حتى وإن تطلب الأمر خوض مزيد من المعارك، التي ستكون أسهل من معركة طرد طالب يمتلك عقد إيجار رسمي، خاصة أن «أبو سامية المعرص» لن يكون وقتها راغباً في شراء الشقة من شعراوي لكي يقوم بتشغيلها في الدعارة، بعد أن اكتشف فوائد الدعارة المقننة التي تتم في حضور المأذون والشهود، وتنال رضا الحكومة والمجتمع والناس.

كالعادة، لم يأتِ اعتراف ميمي سهلاً، بل جاء على مرحلتين، الأولى كانت كاذبة بشكل مفضوح، مع أنني كنت أتمنى أن تكون محكمة لكي أصدقها وأستريح، بدلاً من مواجهة الحقيقة التي حملتها المرحلة الثانية من الاعتراف التي بدت أنها صادقة، قبل أن يتضح أن الحقيقة أصعب مما تخيلت وتمنيت.

في البدء وبعد أن تصنّع التمنّع والقلق، قال ميمي إن من أخبره بحقيقة المؤامرة التي يدبرها أبوه، مخبر شرطة من جيران وزبائن أبيه في حي «الظاهر»، وأن شعراوي لجأ إليه لكي يتولى الجانب الشُّرَطيّ في المؤامرة، لأن علاقة شعراوي بالدولة وكل أجهزتها ليست على ما يرام، مقابل أن يحصل على هبرة محترمة من شعراوي ومن «أبو سامية المعرص» حين يكتمل تنفيذ المؤامرة.

كنت متوتراً وقرفاناً لدرجة تجعلني أصدق أي شيء يقال لي، ومع ذلك فقد وقفت تلك الرواية في زور عقلي، فما الذي يجعل المخبر يبادر لتهديد مصلحته وإبلاغ ميمي بما سيجري، حتى لو كان زميلاً له في المدرسة وصديق عمره كما قال ميمي، والأهم من ذلك ما الذي يجعل «أبو سامية المعرص» يلجأ إلى مخبر تافه يسكن في قلب القاهرة ليؤدي عملية يفترض بها أن تتم في أطراف الجيزة؟ وهو الذي يمتلك علاقات جيدة بأكثر من رتبة في البوليس ساعدته على تدوير النجاسة بنجاح ساحق خلال السنين الماضية، وقد رأيت بنفسي واحداً من هؤلاء في الشهور التي سبقت معرفتي بحقيقة سامية وعائلتها، وإذا كانت الشبّورة التي أحدثها شعراوي قد أدت إلى غيابه منعاً للفضيحة، فلماذا لم يعد للظهور من جديد بعد أن تصالح شعراوي وأبو سامية المعرّص، ولو حتى لأداء خدمة نهائية للرجل الذي سهّل له المتعة والمزاج لسنين لا أعلم عددها؟

كان قلقي وقرفي قد جعلاني أنهال على ميمي بتلك الأسئلة بحدّة، لكنني لم أكن أتوقع أنه سيرتبك وينتقل بمنتهى السرعة إلى المرحلة الثانية، طالباً مني أن أهدأ لأنه سيخبرني بحقيقة المؤامرة التي وجد نفسه طرفاً فيها دون أن يحتسب، لكنه قبل أن ينطق بحرف، طلب مني أن أصافحه وأقرأ الفاتحة بصوت عالٍ قبل أن أتعهد بأنني لن أفشي سره مهما حدث، لكي لا يندم على تصدّره في الخير، وهو الذي لم يعتد فعل ذلك من قبل، ثم قال بصوت متهدج إنه يدري أنني يصعب أن أصدقه حين يقول إنه بادر إلى كشف المؤامرة لي، لأن أمه زارته في المنام وأوصته علي، لكنه لا يبالي بموقفي لأنه في الآخر يعامل ربنا، ويراعي خاطر الست التي لم يعرف الهناء وراحة البال منذ أن فقدها.

كنت على استعداد لأن أجري نحو أقرب مسجد أو زاوية لآخذ مصحفاً وأحلف عليه لميمي أن مشاعره الدافئة لمستني بقوة، وأنني أصدق أن الإنسان يمكن أن يتغير إلى الأحسن حين يجرب مرارة الفَقد، وأنني لن أنطق بحرف مما سيقوله لي، وأنني سأكون مديناً له طيلة العمر لو أفلتّ من المؤامرة التي يتم نصبها لي، لكنه لم يصر على ذلك واعتبر أن بركة الفاتحة التي قرأتها أمامه

بصوت عالٍ ستكون كافية لمحقي من الوجود لو خالفت ما تعهدت به، لأنني لو فعلته سأكون سبباً في خسارة الإنسان الوحيد الذي أحبّه بصدق في الكون، وحين قال ذلك لم أكن أعرف أنه لا يقصد أباه شعراوي، بل كان يقصد رحاب.

لم تكن رحاب مجرد «حتة طرية» في حياة ميمي الملأى بالمغامرات والنزوات التي ساعدته عليها ملامحه «الخواجاتي» طبقاً لتوصيف أمه، بل كانت «الحتة الطرية المركزية» في حياته، منذ أن انتهى خراط البنات من خرط رحاب وجعلها مهيّجة للأنظار. كان ميمي الرجل الوحيد الذي منحته رحاب نفسها من غير مقابل، ومع أنه لم يكن يكِنّ لها أي مشاعر عاطفية بسبب معرفته بتاريخ عائلتها، وكان ما يجذبه إليها في بداية العلاقة شعوره بالتفوق على كل الرجال الذين يحلمون بمضاجعة جسدها الفتيّ الفائر، خصوصاً بعد أن فوجئ حين لم ترتبك ولم تنهَر حين فضّ عذريتها في لقائهما الأول الصاخب، مفسرة له ذلك بأنها اختارت أن تشاركه هو دون غيره في تلك التجربة الخاصة التي استعجلها أبوها فور بلوغها سن السادسة عشرة، لكي تنتقل من مرحلة «التفريش الحذر» إلى مرحلة الممارسة الكاملة التي تجني منها العائلة عائدات أكبر، ولأن الأب بخبرته وحنكته كان يدرك خطورة إجبارها على خطوة كهذه يمكن أن تقفلها من الجنس فيما بعد، قرر أن يدير وجهه بعيداً ويترك لها التصرف، دون أن يسألها عمن اختارته، مشترطاً عليها فقط أن تتذكر الاشتراطات التي علمتها لها أمها، وأن لا يقلب الموضوع بجد فيما بعد ويتحول إلى ارتباط يعطل العائلة عن مشاريعها.

لم يكن ميمي يتخيل أن الموضوع سيقلب بجد، في ظل ظروف كهذه، لكنه وجد نفسه يتورط شيئاً فشيئاً في محبة رحاب التي كانت تقلب كيانه وتعصف بروحه، حين تقول له إن النوم معه يطهرها من أدران النجاسة التي تعيش فيها، ويجعلها تشعر أنها بني آدمة وليست مجرد مَنَطّ للإيجار، وأنها تعلم استحالة أن يقع أحد في حبها يوماً ما، لكنها لن تبالي بذلك إذا سمح لها ميمي أن تظل في حياته بالشروط التي يطلبها والكيفية التي تريحه، وأنه لو كان عليها لما بالت بأي اشتراطات أو احتياطات، وتركت نفسها له لكي تنجب منه ابناً وبنتاً تعيش من أجلهما العمر كله، حتى لو هربت من عائلتها، وحين شعرت أن ميمي توتر مما قالته، أقسمت له أنها لن تفعل ذلك رغماً عنه، فهي تعلن أمنية لا أكثر ولا أقل، وأنها لن تفعل أبداً شيئاً يغضبه أو يبعده عنها.

كانت رحاب تراهن على أن ميمي سيضعف حين تغمره بكل هذا الحب، فيساعدها في لحظة ما على ترك حياتها المزرية مع عائلتها، ليحقق لها حلم الهروب الذي اتضح أنه كان أقدم من دخولي في حياتها، لكن ميمي لم يبين كرامة طيلة العامين اللذين استمرت فيهما علاقتهما، لأنه لم ير حكمة في شقلبة حياته وإرباكها، وهو ينال مجاناً كل ما يتمناه من شهوة وحنيّة ودفء واهتمام، معتبراً أن علاقاته الأخرى التي كان أغلبها في محيط ورشته وصالون حلاقة أبيه، تكافئ علاقات رحاب بزبائنها المنتظمين والعابرين، وهو ما يعطي لعلاقتهما خصوصية يصعب فهمها على ضيّقي الأفق من أمثالي، لكنه في الوقت نفسه حرص على تأكيد أنه ليس منفتحاً إلى الحد الذي يجعله قواداً على رحاب، كما اقترحت عليه ذات مرة أن يفعل، بعد أن يساعدها على الهروب من بيتها الذي كانت مستعدة لفعل أي شيء للخلاص منه.

لذلك، حين التقط شعراوي نظراتي المنبهرة برحاب في ليلة الفرح، ورأى فيها سكة لمصلحة محققة تعم على الجميع، ووافقه أبوها على ذلك، رأت رحاب أنني يمكن أن أكون طريقها الأكيد للخروج من تلك البلّاعة التي فتّحت عينيها عليها، لكنها اكتشفت أن حبها لميمي أقوى من أن يزول أو يتلاشى، فقررت تحويلي من طريق دائم للخروج، إلى مجرد عتبة للعبور نحو عالم مختلف تعيش فيه مع ميمي، ولكن بعد أن تحصل على ما فيه النصيب من أسرتي التي كانت مثل أبيها وأبيه تظنها أسرة ثرية من علية القوم، فتفتح عندها لميمي ورشة يكون فيها الأسطى المطاع من سائر الأنطاع العاملين فيها، وتحقق حلمها في العيش خدّامة تحت قدميه، ولكن بالحلال الذي دفعت أنا وأسرتي تكاليفه.

كانت تلك صفقة مغرية بكل المقاييس لميمي، وكنت سأستغرب لو رفضها، وكنت سأبصق في وجهه لو أهان ذكائي وقال إنه رفضها إكراماً لخاطر أمه التي زارته في المنام، لكنه لم يفعل ذلك، واعترف لي أن دماغه لقّت بعد أن سمعت عرض رحاب، خاصة أنها تطوعت بالتعهد أنها لن تمانع في وجود نزوات في حياته بعد الزواج، لأنها تدرك بحكم خبرتها المؤلمة في الحياة حاجة الرجال إلى العطّ المتنوع، وقبل أن يقول لها كلمته النهائية، اكتشف أن أباها اللعين لم يكن نائماً على أذنيه طول الوقت، وأنه كان يعرف تفاصيل علاقته برحاب من أول يوم بدأت فيه، بل كان يسهل التقاءهما في شقته، حين يتعذر لقاؤهما في شقة أمه، متصنعاً ذهابه هو وأمها إلى مشاوير عائلية، لأنه كان يعلم أهمية وجود «غيّة» في حياتها، لكي لا تقرف منها وتقرفهم معها، وحين أدرك الأب أن ميمي لن يفكر في تحويل تلك «الغيّة» إلى علاقة جادة تعطل مشاريع العائلة،

عَصَر على نفسه ليمونة لكي يتقبل قرفه من ميمي وأمه وأبيه، معتبراً أن الجار الوسيم أولى من غريب مجهول ربما تسبب في لخبطة الأمور بشكل لا يمكن لمّه.

كان يمكن ألا يعرف الأب أبداً بخطة رحاب وميمي، ليتم لهما ما تمنياه، لكن غلطة رحاب أنها حكت ما تنتويه لأختها سامية التي لم تكن تحب أحداً في الحياة مثلها، مع أن أباها وأمها نبّها عليها ألا تفعل ذلك إلا بعد أن يتم الملعوب، لكيلا تخبر سامية زوجها فيخبر صديقه بأن يصرف النظر عن الارتباط بها، وتفقد العائلة مكسباً آخر يمكن الحصول عليه بسهولة في حالة فشل الخطة الأصلية، لكن رحاب التي لم تكن تخطو خطوة بدون استشارة أختها الكبرى، حكت الموضوع بكامل تفاصيله لسامية، دون أن تتخيل أن سامية ستسعى في إفساد ما كانت تحلم به، حتى لا يصير أمام رحاب طريق آخر سوى القبول بالزواج من صديق زوجها العجوز والإقامة قريباً منها في ذلك البلد البعيد الذي كرهت عيشته الخانقة ووحدته المملة، وقالت سامية لنفسها إن رحاب مهما زعلت منها، ستضطر للتصالح معها حين تجد نفسها أمام الأمر الواقع، وحينها ستغمرها بالمحبة والدلع والهدايا والحنيّة حتى ترضى عنها، بل ستدرك أنها خدمتها خدمة العمر، حين أبعدت من طريقها ذلك الميكانيكي الشلحلجي الذي ستفقد يوماً ما انبهارها بلون عينيه وشقرة ملامحه، لتبقى أسيرة طول عمرها لطبعه الرديء وأصله الواطي وأخلاقه الزبالة.

أبلغت سامية أباها بما تنتويه رحاب، ليبلغ الأب شعراوي بما سمعه، ويهبط الاثنان على ورشة ميمي في زيارة مفاجئة، ويحملا له تهديداً صريحاً بالقتل لو لم يبتعد فوراً عن رحاب ويتركها تشوف حالها دون أن يشوّش على تفكيرها بوجوده في حياتها، لأن مصلحتها ومصلحة الجميع تتنافى مع رغبتها في التعامل معي بوصفي مجرد عتبة مؤقتة للارتباط الدائم به، وقبل أن يفتح ميمي فمه بكلمة يترجم فيها أفكار الابتزاز ولوي الذراع التي كانت تدور في ذهنه، سأله أبو سامية المعرص بهدوء القتلة عما إذا كان يظن أن الأب الذي يوافق على عمل بناته وزوجته في الدعارة يمكن أن يتورع للحظة عن قتل من يفكر في الوقوف أمامه، خاصة أنه لن يدفع من أجل قتله مليماً أحمر، بل سيجعل رحاب هي التي تدفع من جسدها ثمناً لقاتله الذي سيأتيه من حيث لا يحتسب.

نجح ذلك المنطق البارد الرهيب في قمع أي رغبة لدى ميمي في المقاومة والزياط، ولو حتى من باب إثبات الوجود، ليأخذه أبوه على جنب، ويقول له إنه لا يمكن أن يسمح بقتله، مهما كان قرفه منه، وأنه استمع إلى ما قاله أبو سامية وهو صامت، لكي لا يساهم في تعقيد الأمور، لكنه في

الوقت نفسه يعلم قدرة «أبو سامية المعرص» على البطش، الذي سيعمل جاهداً ألا يصل إلى درجة القتل، لكنه لن يستطيع منعه من تلفيق قضية ما لميمي، الذي لن يصعب تلفيق قضية له، وهو صاحب المزاج الرخيص والسيرة العطنة، وحينها سيجد ميمي نفسه محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، فيتمنى حينها لو سمح أبوه بقتله لكي يرتاح بدلاً من رميته الأزلية في غيابة السجن.

لم يكن ميمي بحاجة بعد كل ما رواه إلى تكرار فيلمه الهابط عن زيارة أمه له في المنام، بعد أن اتضحت الرؤية وبان أنه لم يجد سبيلاً آخر إلى الانتقام من أبيه وأبي سامية، خاصة أنه كان في الأساس يشك في أن رحاب يمكن أن تعبّره أو تبصّ في خلقته بعد أن تذوق العز والهناء في قصر عائلتنا المنيف، وهو ما قاله له شعراوي البارع في الحرب النفسية، الذي طلب منه أن يعملها بجميلة ويعلن انسحابه من حياة رحاب، طالباً من أبيها «خِلو رجل» مناسباً، ومتعهداً بأنه سيقنع الأب بذلك، بل وسيضع فوق ما سيدفعه الأب نفحة إضافية من نصيبه، لكي يضمن أن يخرج ميمي من العملية راضياً مرضياً، لكن ميمي كان يعلم أن شيئاً من ذلك لن يتحقق، وأن أباه لن يعطيه مليماً مما سيتعهد به، ولذلك قرر أن يلعب في المضمون ويضرب للجميع كرسياً في الكلوب، حتى لو أدى ذلك إلى أن ترحل رحاب إلى السعودية لتعيش مع أختها، لأن زوجها العجوز لن يعيش لها إلى الأبد، وبعد أن يموت وترثه ستعود شايلة ومحمّلة، لتجده في انتظارها، ويتحقق له حلم الورشة الذي لم يستطع أن يزيله من خياله منذ سمعه منها.

لم أكن سأثق بكلمة مما قاله ميمي، لو لم يكن قد صارحني بنيته تلك التي دفعته للمجيء إليّ وإخباري بما يجري خلف ظهري، مخاطراً بإغضاب أبيه وأبي سامية اللذين كانا سيتوقعان وجود دور قوي له في إفشال العملية، معترفاً أن خوفه من ذلك جعله يؤجل مصارحتي بالحقيقة لعدة أسابيع، لكنه قرر المخاطرة بعد أن داهمته لحظة تنوير، بفضل صديق حميم يثق في رأيه، قال له إن المخاطرة ستظل قائمة، حتى وإن التزم بكل ما طلبه منه أبوه وأبو سامية، لأنهما ليس لهما عزيز، ويمكن أن يبادرا إلى التخلص منه، لكي لا يشكل خطراً عليهما في المستقبل، واستغرب صديقه أن يثق ميمي بقوّادين صريحين مثل أبيه وأبي سامية، حتى وإن اختلفت درجتهما في القوادة، إلا أن قلبهما الميت يمكن أن يقودهما إلى فعل أي شيء للتأكد من دوام مصلحتهما، وإذا كان ميمي سيتعرض للقتل أو للرمي في السجن، فمن الأفضل أن يحدث له ذلك وهو يضحك لأنه أفسد عليهما حلم الثراء السريع الدائم، وحرق قلبهما مثلما حرقا قلبه، ومع أن ميمي لم يكن لديه قلب لكي يحترق، فإنه تأثر بالتعبير واعتمده وحسم بفضله قراره بالمجيء إلي وإخباري بالحكاية

من طقطق إلى السلام عليكم، لأشكره من كل قلبي على مساعدته لي وإنقاذه لي من الوقوع في فخ رحاب ومن خلفها، أو هكذا كنت أظن.

الهروب الكبير من قبضة
شعراوي ورحاب

«هتعمل إيه دلوقتي؟». قبل أن يسألني أصدقائي هذا السؤال المصيري، وقبل أن تقضّ نفسي مضجعي بتكراره الدائم عليّ، كان ميمي قد كرّره كثيراً قبل أن أفلت من صحبته الكريهة يوم التقيته، وفي كل الحالات لم تكن لدي إجابة قاطعة.

لم أكن أملك سوى الصبر والانتظار، مستحضراً من ذكريات الصبا ما قاله لي خالي الأحب إلى قلبي ذات يوم، ونحن نشاهد عملية انتشال جثة غريق من مياه البحر في الإسكندرية، عن خطورة مقاومة الدوّامات وأهمية الاستسلام التام لها حتى تضعف وتروح لحالها، لأن أي حركة ستبذلها في مقاومة الدوّامة ستفتح شهيتها أكثر لابتلاعك، ليذكرني بعدها بمشهدين مبهرين رأيتهما معه في فيلمين أمريكيين عن الرمال المتحركة في الصحراء والمستنقعات، التي تساعدها مقاومة الضحايا على تعجيل ابتلاعهم والفتك بهم، ولأنني كنت أكره النزول إلى البحر منذ أن غرق زميل دراسة فيه أمام عيني، وأكره الصحراء والمستنقعات دون سابق معرفة، فقد بقيت نصيحة خالي معي عبر السنين مرتبطة بباقي دوامات الحياة ورمالها المتحركة، وأزعم أنها ساعدتني على الإفلات في كثير منها، أو فلنقل إن الله تعالى كان رحيماً بي فلم يختر لي من الدوامات والرمال المتحركة إلا أهونها فتكاً وأقلها عزماً، على الأقل حتى الآن.

لا أريد أن أظهر نفسي بمظهر الحكيم المتعقل الذي وضعت أمامه اختيارات عديدة، فاختار الصبر والانتظار، فالحقيقة أنه لم يكن لدي خيار آخر، لأنني لم أكن أمتلك رفاهية إضاعة الوقت في البحث عن مأوى أستقر فيه قبيل الامتحانات وخلالها، صحيح أنني تلقيت عرضين كريمين من زميلي دراسة بالإقامة لديهما خلال فترة الامتحانات، لكنني رفضتهما بشكل قاطع، لأن رائحة المصلحة المنبعثة من عرضيهما أزكمت أنفي، فلم أكن لأقبل على نفسي أن أتحول إلى مدرس

خصوصي يعمل أربعة وعشرين ساعة خلال فترة الامتحانات، مقابل أن أجد مأوى للبيات ولقمة حلوة، خاصة أنني كنت أعرف أن الصديقين اللذين تلقيت هذا العرض منهما أو بالأصح من أهلهما، لم يكن لهما طقطان على المذاكرة، وكانا سيحولانني إلى فاسوخة أمام أسرتيهما، تثبت جديتهما في المذاكرة، ولن ينوبني من ذلك إلا تضييع وقتي، وبعثرة كرامتي عند أول خلاف أو زعلة، وما أكثر الخلافات والزعلات في تلك السن التي تعبث فيها الهرمونات بالعقول وتتلاعب بالأعصاب.

كان ميمي قد ألحّ كثيراً على ضرورة الخروج الفوري من الشقة، وأن أسافر إلى أهلي طالباً رضاهم عني، وداخلاً تحت جناحهم دون أن أفكر في مغادرته، وحين لمس امتعاضي من ذلك الاقتراح، قال إنه يحترم عنادي ورغبتي في إكمال ما بدأت فيه، لكنه مهتم بالتأكيد على أهمية خروجي السريع والعاجل من الشقة، أياً كان البديل الذي سأختاره، لأن أي مكان سأذهب إليه، سيكون أرحم من البقاء في ذلك المكان الذي تُحاك لي فيه المؤامرات الشريرة، مؤكداً أنه لا يضمن ما الذي يمكن أن يقوم به شعراوي، لو شك أنني التقيت به وعرفت منه تفاصيل المؤامرة، وعندها يمكن أن يقرر تقديم ساعة الصفر، بدلاً من انتظارها حتى تنتهي الامتحانات، ومع أن ما قاله بدا لي منطقياً، لكن إلحاحه على طلبه جعلني أشك في مقصده، وأفترض أن الرواية الثانية التي قالها لم تكن النهائية، مهما كانت منطقية ومتماسكة، أو فلنقل إنني أحببت أن أفترض ذلك، لكي أطمئن نفسي بأن قرار البقاء في الشقة حتى تنتهي الامتحانات هو عين العقل والحكمة.

للحظات فكرت أن أنهي تلك المهزلة، فأقول لميمي إن كل ما يفكر فيه أبوه وأبو سامية المعرض مبني بالكامل على اشتغالة قام بها زميلان متحمسان، وأن نقبهما سيطلع على شونة حين تتضح الحقيقة، لينقل ذلك إلى رحاب مشترطاً عليها ألا تبلغ أحداً به، فتنسحب من تلقاء نفسها، وتدرك أن الزواج بصديق زوج أختها سيكون أبرك وأفضل لها، لكنني وجدت أنه من الحماقة البالغة أن أثق في فتاة لعوب مثلها، اتضح أنها لم تكن تتلاعب بي فقط، بل وتتلاعب بأبيها وأمها منذ سنين، وأنها بالتأكيد ستبلغ أباها أو أمها أو أختها بما سيقوله لها ميمي، وسيصل فوراً إلى شعراوي، هذا إن لم يصل إلى شعراوي من ميمي نفسه، لو حرّضته نفسه الأمارة بالوساخة على أن يستمتع برؤية مخطط أبيه وهو يتهاوى أمام عينيه، وعندها سأدخل في مواجهة عنيفة مع شعراوي، في وقت حرج، الغلطة فيه بفورة، فضلاً عن أن شعراوي لن يقوم بإخراجي من الشقة قبل أن أسدد له كل مليم أدين له به، وهو ما لم أكن مستعداً له على الإطلاق.

لذلك ولذلك كله، لم يكن أمامي بديل سوى الصبر والانتظار ورفع قدراتي التمثيلية إلى أقصى درجاتها، لأظهر لرحاب أنني متمسك بما اتفقنا عليه فور أن تنتهي الامتحانات، وأظهر لشعراوي رضاي الكامل عنه وسعادتي بكل ما يقوم به من أجلي واستعدادي لرد الجميل أضعافاً مضاعفة حين يحين الأوان، ولكي أسهل على نفسي تلك المهمة، كنت أحرص على قضاء فترات أطول خارج البيت، خصوصاً في ساعات الصباح التي تعودت رحاب على أن تطبّ عليّ فيها، خوفاً من أن يحدث ذلك التعديل في ساعة الصفر، الذي تحدث عنه ميمي، فأدخل في حوسة لا قِبَل لي بها.

كنا قد توقفنا عن الحضور إلى الكلية استعداداً لبدء الامتحانات، وكانت مظاهر حضوري في الشقة في ساعات الصباح، تشجع رحاب على المرور بي، بدعوى الاطمئنان على مزاجي ومعنوياتي، أو لإحضار بعض ما أعدته لي من طعام أو مشروبات، أو منحي قدراً من الأحضان الدافئة والقبلات الأخوية التي يمكن أن تحمّسني على أكل الكتب أكلاً، ولكي أهرب من التوتر الرهيب الذي كان يصاحب مجيئها إلى الشقة، بدأت أفكر في الخروج من الشقة مع شعراوي كل صباح، زاعماً أنني سأذهب إلى الكلية لتلقي دروس تقوية من أحد المعيدين أو الدكاترة، فأقضي ساعات الصباح في المذاكرة على القهوة أو في أي حديقة عامة، أو أقضيها في التسكع في أروقة جامعة القاهرة، أو في مكتبتها المركزية، وقبل أن أبدأ في تنفيذ ذلك الاقتراح الذي كان سيثقل على ميزانيتي، حلّها لي ناجي، حين دعاني إلى المجيء كل يوم إلى شقة قريبة في شارع الهرم، يمتلكها أخوه المسافر للعمل في الخليج، والذي استأذن منه ناجي في تحويل الشقة إلى معسكر مذاكرة، فوافق أخوه على ذلك شريطة أن نغادر الشقة كل يوم قبل صلاة المغرب، ربما لأنه خاف من أن أقوم بوضع يدي على الشقة، أو لأنه لم يكن يثق في ما الذي كنا سنفعله بالشقة في جنح الظلام الذي تسهُل فيه الوساخة وتطيب.

كان من المهم أن أقوم بإخراج هذه الخطوة بشكل لا يثير حفيظة رحاب وأبيها وشعراوي من ورائهما، ولذلك سبّقت بإبلاغها أن قراراً كهذا سيحرمني من رؤيتها كل يوم كان صعباً على نفسي، لكنه بمنتهى الصراحة التي أرجو ألا تغضب منها، قرار مهم جداً لكي ننفذ خطتنا، لأن لقاءها اليومي يفعل بي الأفاعيل، فأنا في النهاية بشر من لحم ودم، ولست قديساً ولا ملاكاً يمكن أن يتسامى عن حاجته إلى تصريف شهوته التي تتأجج بمجرد رؤيتها، فما بالك باحتضانها أو لمسها، ولم أستغرب حين رأت في ذلك إطراءً مني لها ولجمالها، مضيفة أنني سموتُ في نظرها أكثر، وأنها لن تكف عن الدعاء لي والتفكير فيّ، وأنها ظلت تمنع نفسها طيلة الفترة الماضية من

مصارحتي بتطور مشاعرها ناحيتي، وأنني أصبحت أشغل تفكيرها طيلة الوقت، وأنها لا تريد أن تشغل بالي أكثر بما يؤثر على تركيزي، لكنها فقط تريد أن تطمئنني إلى أنها ستعوضني عن كل لحظات الفراق حين تجمعنا الأيام في رحلة الميلاد الجديد التي أصبحت تراها خطوة سنبدأ بها مشواراً مشتركاً يجمعنا معاً في الحياة، وأنها حلمت كثيراً بتفاصيل ذلك المشوار، لكنها ستؤجل مشاركتي في التفاصيل إلى الوقت المناسب، لأهز رأسي بحرارة فتتصور أنني متأثر بما تقوله، مع أنني كنت في الحقيقة متأثراً بقدراتها التمثيلية الرفيعة، وبمعاناتي من الضغط على نفسي لكي لا أسكعها بدل القلم عشرين، وأنا أخبرها بما عرفته من حبيب القلب ميمي، الذي لم تكن تعلم ولا تتصور فضحه لها.

شعراوي من جهته لم يعترض على خطوة المعسكر الدراسي اليومي، بل شجعني عليها بحفاوة بالغة، ورأى أنها ستصب في مصلحة تفوقي المرتقب، مشترطاً فقط ألا أتغدى خارج البيت، لأن وجبة الغداء المتأخر أو العشاء المبكر التي كانت تجمعنا في السادسة من مساء كل يوم، مهمة لتقريبنا المستمر من بعض وإشاعة روح المودة والدفء في الشقة، خاصة أنه كما قال لناجي بدل المرة مرات لم يعد يشعر فقط أنني ابنه الثالث، بل أصبح يشعر أن الله عوّضه بي عن خيبة أمله في ابنيه الموكوسّين، متعهداً أنه سيتوقف عن الحديث معي بعد أن أنتهي من شرب ثاني كوباية شاي تعقب الغداء، ليتركني لجولتي النهائية من المذاكرة، قبل أن أنام مبكراً لكي أصحو في الصباح الباكر مستعداً للذهاب إلى معسكر المذاكرة، ولكي يبدي حسن نيته ودعمه الكامل، كان يقوم بالاستماع إلى برامج المساء في الراديو داخل غرفته بعد أن يغلق عليه بابها ويخفض صوت الراديو، لكي لا يصل إلى مسامعي ما قد يغريني بالتوقف عن المذاكرة والانضمام إليه كما كنا نفعل من قبل.

حين رأيت حماس شعراوي المذهل لخطوة الإفلات من قبضة رحاب، انبهرت بقدراته التمثيلية الرفيعة، لأنه لم يتردد لحظة حين فاتحته في الموضوع، مع أن مصلحته تقتضي نظرياً أن يظل حبل الود موصولاً بيني وبين رحاب، لكي يسهل الإمساك بنا متلبسين حين تحين ساعة الصفر، ليبدو لي بعد قِصَر تفكير أنه كان لا بد أن يرحب بذلك القرار، لأن رحاب التي قال لي ذات مرة أنها ولدت كأختها «في كسّها دودة» تدفعها إلى فتح رجليها ورفعهما طول الوقت، قد تؤدي إلى تضييع وقتي ومن ثم تضييع مستقبلي، ولن يستفيد مني حينها بالطريقة الأمثل، لذلك سيكون إبعادها عني أكثر فائدة وضماناً لتنفيذ الخطة في التوقيت المناسب.

بدا لي بعد طول تفكير أن شعراوي الغويط، ربما لم يكن يثق أصلاً في رحاب وأبيها، ولذلك خشي أن يقوما بالالتفاف حولي والانفراد بي وأخذي منه على الجاهز، لذلك رأى أن ابتعادي عن البيت في الساعات التي لا يكون فيها موجوداً، سيجعله أكثر قدرة على التحكم في علاقتي برحاب وأبيها، ومن يدري، ربما يكون شعراوي قد عرف باللقاء الذي جمعني بميمي، فقرر أن يمارس معي ألعاب الخداع الإستراتيجي التي برع فيها زعيمه المفضل أنور السادات، والذي كان لا يكف عن تصديعي بانبهاره الدائم به وحنينه إلى أيامه التي لم تر البلد بعدها خيراً، ولومه الدائم لنفسه لأنه لم يأخذ بجدية مقولة السادات «اللي مش هيغتني في عهدي مش هيغتني»، وإلا لكان قد عملهم من زمان وارتاح من وجع القلب.

كنت معذوراً لأنني أفكر في كل تلك السيناريوهات وأنتقل من أحدها إلى الآخر، لأن شعراوي كان في تلك الفترة في قمة اللطف والعذوبة معي، وكان يظهر حرصاً شديداً على وقتي، ويبدي استعداده لتقديم أي معونة دراسية ممكنة، مثل التسميع لي أو توجيه الأسئلة المفاجئة من داخل الكتب الدراسية، وأخذ يتفنن في تقديم وصفات متنوعة تكسر رتابة وجبات الغداء، وأصبح يتحمل بالكامل مسؤولية مهام التنظيف والمسح والغسيل التي كنت أعاونه فيها من قبل، لكن ذلك كله كان أسهل عليه من إجبار نفسه على ألا يسترسل في الرغي حين يجمعنا الغداء وتوابعه، مكتفياً بالحكايات الصغيرة التي لا تستغرق وقتاً أطول من المقرر، وواعداً بتأجيل الحكايات المطولة والمسلسلة إلى ما بعد الامتحانات، وهو التعبير الذي أصبحت كلما أسمعه أكتم شخرة عميقة بداخلي وأنا أدرك أن ذلك العرص البارع يقصد «إلى ما بعد كبسة بوليس الآداب»، مبدياً أسفي أنني لن أستمتع برؤية خيبة الأمل وهي تكسو وجهه العِكِر، حين يدخل إلى الشقة في ذلك اليوم المنتظر، فيكتشف أن نقبه طلع على شونة.

كنت قد عزمت على أن أواصل الإقامة في الشقة حتى آخر يوم في امتحاناتي، وبعد أن أقوم بتسليم ورقة الإجابة، أخرج من قاعة الامتحان إلى باب الحديد في ميدان رمسيس لأستقل أول قطار متاح إلى الإسكندرية، تاركاً كل ما يخصني في الشقة لشعراوي، حتى لا يشك في هروبي من قبضته، ويظل في انتظار عودتي حتى ييأس ويستعوض ربنا في أحلامه الضائعة، وربما كان أقصى ما يمكنه فعله أن يلجأ إلى الاتصال بناجي وأمجد اللذين أصر من قبل أن يحصل على أرقام منزليهما، وقد منحه ناجي الحويط رقم شقة أخيه الخالية، أما أمجد فقد أعطاه رقم فاكس مصنع الزبادي الذي يملكه أبوه، مما يعني أنه لن يسمع إلا صوت صفارة طويلة مزعجة كلما اتصل بالرقم.

لم يكن لدي في الشقة ما آسى على فراقه، سوى بعض كتبي ومجلاتي التي كنت قد اشتريتها طيلة الأشهر الفائتة من سور الأزبكية وسور حديقة الأورمان، وجهاز الكاسيت الذي حصلت عليه من أمي، والذي كان أكثر ما أمتلكه قيمة مادية وعاطفية، لكن بقاءه في الشقة كان مهماً لعدم إثارة شكوك شعراوي، خاصة أنه كان يحب استخدامه من حين إلى آخر، ولذلك قررت أن أتركه له، لعله يعتبره غنيمة ويشيلني من دماغه، أما الكتب والمجلات التي كانت كلها عزيزة على قلبي، فقد اخترت منها الأجمل والأغلى، وقمت بتسريبه من الشقة في كل يوم أذهب فيه إلى الامتحان، طالباً من ناجي أن يحتفظ بها عنده حتى يجمعنا الله بعد انتهاء الإجازة الصيفية، ولعلك لن تستغرب أنني لم آت على ذكر الملابس، لأنك تذكر أنني لم أكن أمتلك منها الكثير، وأن القليل الذي كنت أمتلكه، لم يكن يستحق البكاء عليه، بل كان يستحق الحرق، ليس لرثاثته فقط، بل لما علق بنسيجه من ذكريات كنت أظن أنني سأتخلص منها إلى الأبد.

كنت حريصاً على ألا أترك لشعراوي فرصة للزياط وادعاء أنني قمت بالنصب عليه، حين لم أدفع له الزيادة الشهرية المفاجئة التي طلبها في الإيجار، لذلك اقترضت ذلك المبلغ من أمجد، واتفقت مع ناجي على أن يقوم في اليوم التالي للامتحان بالذهاب إلى عم سيد البقال، ويترك المبلغ لديه في ظرف، ويطلب منه تسليمه إلى شعراوي حين يراه، ويقول له إنني اضطررت للسفر إلى الإسكندرية بشكل عاجل، وأنني لن أعود إلى الشقة ثانية، وأن من حقه أن يتصرف في كل ما تركته فيها، وأنني تركت الكاسيت هدية له، تقديراً مني لنَفَسه الحلو في الأكل وحكاياته المسلية.

لم يوافق كل من استشرتهم على فكرة أن أترك خطاباً شديد اللهجة لشعراوي أبلغه فيها أنني عرفت تفاصيل المؤامرة التي كان يخطط لها مع «أبو سامية المعرص»، وأن ميمي هو الذي أبلغني بها، وأنني لم أستغرب ذلك من شخص وسخ مثله لم يصن العيش والملح الذي أكله مع شريكة حياته وأم عياله، ثم أصدمه بحقيقة أن كل أحلامه في النصب علي وعلى أسرتي كانت محض أوهام، لأن كل ما بلغه كان محاولة من أصدقائي لتحسين صورتي في المنطقة، وأنه في حالة إتمام المؤامرة، كان سيأخذ من أسرتي ما أخذته الريح من البلاط، طالباً منه إيصال نخبة منتقاة من أوسخ الشتائم لرحاب التي سأظل أضرب نفسي بالجزمة القديمة ما حييت لأنني تصورت أنها يمكن أن تزهق من النجاسة، وتعيش عيشة نظيفة بحق وحقيق.

بعض أصدقائي رأوا أن ذلك الخطاب يدخل تحت بند البكاء على اللبن المسكوب، لأن «العايط في الفايت نقصان عقل»، وبعضهم الأكثر حنكة رأوا أن ذكر سيرة رحاب في الخطاب يمكن أن يستخدم ضدي من والدها المعرص الذي سيعيش في دور الشريف العفيف، وربما قرر أن يبلغ عني البوليس بتهمة الإساءة إلى سمعة ابنته التي يمكن أن يتكفل طبيب من الذين تتعامل معهم العائلة بتحويلها إلى «البكر الرشيد»، فضلاً عن اعترافي بأنني كذبت بمساعدة أصدقائي على شعراوي وأهل المنطقة، وهو ما يمكن أن يستغله عقل منحط كعقل شعراوي، فيقول إنني اقترضت منه مبلغاً مالياً ضخماً على حس تلك الأكذوبة، ولذلك قال ناجي إنه سيقوم بإصلاح خطئه السابق، فيعترف لعم سيد بأنني لا أنتمي إلى عائلة سكندرية ثرية ولا دياولو، وأنه فعل ذلك بحسن نية ليساهم في تحسين صورتي، ولم يكن يتصور أن ذلك سيجعلني مطمعاً لشعراوي الوسخ، وهي رسالة كان عم سيد سيوصلها حتماً إلى شعراوي، الذي سيسقط في يده ولن يجد ما يقوله أو يفعله إزاء ذلك القلم المتين الذي نزل على قفاه، بدلاً من أن أقوم باستفزازه بكلام لا يودّي ولا يجيب.

كان ما قاله أصدقائي كافياً لإقناعي بالتخلي عن موضوع الخطاب وغيره من الحلول الدرامية المستمدة من خيال أفسدته نهايات أفلام الأبيض والأسود وحبكات المسلسلات التلفزيونية الرديئة، وكان حسناً ما قالوا وما فعلت، أو كان هذا ما أدركته بعد أن شجعتني زيارة طارئة تلقيتها من أم ميمي في المنام، على اتخاذ قرار جريء بالعودة إلى الشقة بعد انتهاء آخر امتحان، لا لكي أواجه شعراوي، فقد كان ذلك فوق طاقتي وقدراتي، ولكن لكي أواجه رحاب، وأبصق في وجهها إن استطعت، لأنها تصورت أنني أهبل وبريالة وقابل للقرطسة، بينما كنت أتعامل معها بوصفها حالة إنسانية تستحق دعمها ومساعدتها على الخروج من المستنقع الذي عاشت فيه طيلة عمرها، مؤكداً لها أنني لم أتورط في حبها ولو للحظة، وأن عليها أن تفهم ذلك وتقوم بإفهامه لحبيب قلبها ميمي الذي تعامل معي بوصفي الزبون المغفل الذي نجحت حبيبته في لطخه على قفاه، وأنني في الحقيقة أحب زميلة لي يمكن وصفها بكل موضوعية أنها «ستّ ستّها».

صحيح أن ذلك الحب من طرف واحد وليس له أي مستقبل من أي نوع، وصحيح أن رحاب كانت أكثر جمالاً وفتنة من الزميلة التي ستكشف الأيام أنها لم تكن تتخير كثيراً عن رحاب وأختها، لكن كل ذلك لم يكن مهماً بالنسبة لي، بقدر ما كان من المهم أن يدرك أحد أطراف المؤامرة أنني كنت على علم بما يدور من وراء ظهري، وإذا كنت لا أستطيع أن أسجل ذلك كتابة، فمن الأفضل أن أقوله شفاهة وفي مواجهة أحد أضلاع المؤامرة، صحيح أن رحاب كانت الضلع الأضعف، لكن

ذلك لا يعفيها من مسؤولية الاشتراك فيها، ولذلك لم يكن ممكناً أن أقفل تلك الصفحة من حياتي، دون أن أجري تلك المواجهة، على أمل أن تتحسن ظروفي في المستقبل، وأتمكن من إجراء مواجهة عاصفة وحاسمة مع أبيها المعرص وشريكه شعراوي الزِناوي الذي كانت المرحومة أم ميمي محقة في إخراجه من حياتها التي أفسدها مثلما كاد يفسد حياتي.

حتى الآن، لا أفهم لماذا زارتني أم ميمي في المنام فجأة، وأنا الذي أسقطتها من حساباتي فور موتها، واتخذت من عدوها اللدود شريكاً في السكن والأكل والشاي والحكايات. أغلب الظن أن ذلك حدث، لأن الجزء الهايف من عقلي الباطن تمسك بالحكاية التي رواها ميمي عن زيارة أمه له في المنام لكي توصيه بي خيراً وتطلب منه أن يحذرني مما يحاك لي، وهي حكاية لم تلزمني ببصلة حين سمعتها من ميمي، لكنها التصقت بنعل عقلي وأبت أن تفارقه، وأعادت بعث نفسها في صورة حلم جاءتني فيه أم ميمي وهي لابسة أبيض في أبيض، مع أنني لم أرها داخل البيت أو خارجه إلا وهي ترتدي «إسود في إسود»، ومع أن ارتفاع الشقة لم يكن يسمح، إلا أنها جاءتني طائرة وهي تركب مقشّتها المفضلة، واستقرت في موضعها الأثير في كنبة الصالة، وأخرجت من عبّها حلة محشي كرنب ضخمة يتصاعد منها البخار، وأنامتني على حجرها وبدأت في تزغيطي بأصابع المحشي، وهي تغني بصوت أوبرالي: «كان في واحدة ستّ.. عندها اتناشر بتّ.. اتناشر بنت ولاد الست.. أيوه اتناشر.. واحدة تخينة وزي البطة.. وواحدة سمارة.. وواحدة جميلة وزي القشطة.. أما الباقي خضرا وصفرا وفيهم واحدة حمرا وواحدة شقرا وفيهم واحدة زرقا كمان».

بعد أن قضيت أنا وأم ميمي على حلة المحشي بما فيه الأصابع «المِحروَقة» التي في قعرها وأجنابها، أخذتني في حضنها وبدأت في الطبطبة على ظهري محاولة تكريعي، وحين تكرّعت وقشطت على كتفها شتمتني بالأم، ومسحت التكريعة في ملابسي، ثم أخرجت ثديها الأيمن وقربته من كوباية وضغطت على حلمتها فانبجس منها شاي بالنعناع، ثم أخرجت من أسنانها سِنّتين تحولتا فجأة إلى حبّتي قرنفل وقامت بوضعهما في الكوباية، وقلبت الشاي بإصبعها الأوسط وهي تقول لي بغنج إن العسل المنبعث من إصبعها يكفي للتحلية وزيادة، وحين رفضت أن أشرب الشاي وقد بدت علي ملامح القرف، رمتني به، وحين تفاديته بأعجوبة سقط على فخذي فأحرقها حرقاً كالذي رأيته على جسدها في المشرحة، وحين أخذت أتلوى من الألم، قامت من على الكنبة وركبت المقشة وعادت للطيران في فضاء الشقة، وقبل أن تختفي التفتت نحوي وشخرت قائلة: «حد يصدق ميمي يا خرونج»، ثم سكتت سكتة طويلة قطمتها بشخرة أطول من سابقتها وقالت: «لكن ده انت صدقت

أبوه اللي هو أوسخ منه مليون مرة.. جتك ستين خيبة في خيبتك»، ثم تلاشت في الهواء كأنها لم تكن.

كان ذلك الحلم أثقل من أن أتجاهله، لكنني كنت أتمنى لو طال قليلاً لأواجه أم ميمي، فأقول لها إنني لم أصدق ميمي وأباه أصلاً، وإنني تعاملت مع كل ما قالاه وما فعلاه بوصفه أمراً واقعاً لا حيلة لي فيه، وأخذتهما على قد عقلهما حتى تحين لحظة الهروب الكبير، ومع أنني كنت قد درست ما يكفي في مادة علم النفس التي استمتعت بكتابها ومحاضرات مدرسها، لأعرف أن من زارني في الحلم لم يكن أم ميمي، بل كان عقلي الباطن أو بمعنى أصح عقلي الباطِن الذي لم يعجبه قراري بالانسحاب التام والمفاجئ من المعركة دون مواجهة مع أيٍ ممن جعلوني أعيش الشهور الماضية على أعصابي، حتى أصبحت لأول مرة أشعر في كثير من الليالي بآلام مبرحة في معدتي، كنت أخشى أن تكون آلام القرحة التي كانت قد أفسدت حياة عدد من أقاربي، قبل أن يتضح لي أنها كانت آلاماً ناتجة عن انتفاخ مزمن تسبب فيه إفراط شعراوي في وضع الشطة والبهارات في الأكل، وضاعفه التوتر العصبي من الامتحانات والخازوق الذي يعده لي شعراوي ورحاب وأبوها المعرص.

وبرغم حيرتي واندفاعي وسماحي لصوت عقلي الباطن أن يزايد عليّ، فإنني لم أسلم نفسي له تماماً، وقررت ألا أتورط في مواجهة من أي نوع مع شعراوي، مكتفياً برحاب التي تصورت أن مهمة مواجهتها ستكون أسهل وأكثر أمناً، ولو حتى من الناحية البدنية، خاصة إذا تحليت بقدر كبير من ضبط النفس اللازم للحوار مع واحدة مثلها تعودت بحكم الخبرة على أن «تلهيك وتجيب اللي فيها فيك»، متوقعاً أن صدمة معرفتها بحقيقة وضعي المالي والاجتماعي، ستجعلها أكثر هدوءاً في تقبل هجومي عليها لأنها فكرت في استغلالي أسوأ استغلال، ونسيت أنني احترمتها ولم أتطاول عليها ولم أفكر في التمادي معها، وإن كنت قد وطّنت نفسي في هذه الجزئية على التعامل مع سخريتها المحتملة من خيبتي «وقُصر ديلي»، وبالطبع لم أكن أتوقع أن تفضي تلك المواجهة إلى أن تخرّ راكعة أمامي وهي تطلب العفو والسماح، فغاية ما كنت آمله أن توصل إلى شركائها في المؤامرة أنني كنت على علم بها منذ فترة طويلة، وأنني لست باللطخ الذي يؤخذ على قفاه، حتى وإن بدا من شكلي أنني كذلك.

الغريب أنني لم أتوقف طويلاً عند العبارات الساخرة الغاضبة التي ختمت بها أم ميمي حديثها في الحلم، ليس فقط لأنني تعاملت معها بوصفها عبارات صادرة عن عقلي الباطن الذي كان يحلم بما لا أقدر عليه، وتطربه فكرة الدخول في مواجهات مفتوحة مع شعراوي وابنه و«أبو سامية المعرّص» وعائلته والمجتمع والناس، بل لأنني تصورت أن أم ميمي كان لا بد أن تصفي حساباتها القديمة مع شعراوي وميمي، حتى وإن كانت مجرد ديكور يختبئ خلفه عقلي الغاضب مما آلت إليه أحوالي، لكنني سرعان ما اكتشفت أنني حين رأيت أم ميمي في المنام، رأيتها حقاً، وأن عقلي الباضن لم يتمثّل بها، ولم تربطه بها أي صلة من أي نوع.

لم يمر وقت طويل حتى أصبحت أعتقد أن زيارة أم ميمي لي في المنام، كانت علامة من علامات ستر ربنا وإرادته أن أخرج من تلك الخرّارة بأقل خسائر ممكنة، وهو ما اكتمل حين أغناني عن الرجوع إلى الشقة بعد الامتحان لمواجهة رحاب، وهي الخطوة التي كنت متشككاً في أمانها وتبعاتها، خاصة لو كان قد تسرب إلى شعراوي خبر أو شك عن لقائي بميمي، ولذلك جاءتني رحاب بنفسها قبل يومي الأخير في الامتحان والشقة، وكنت قد اضطررت يومها إلى البقاء في الشقة بدلاً من الذهاب إلى معسكري اليومي مع ناجي في شقة أخيه، لأن أمه أصيبت بوعكة صحية، فاضطر إلى أن يلازمها، واتصل بي عند عم سيد البقال ليعتذر لي، وحين عدت من دكان عم سيد بعد انتهاء المكالمة لمحتني رحاب من بلكونتها، فنزلت لي بعد دقائق وهي تحمل لفة سندوتشات وطبق فاكهة.

حين فتحت لها الباب، كنت قد اتخذت قراراً على الهواء مباشرة بأن لا أؤجل المواجهة إلى الغد، معتمداً على عنصر المفاجأة، ومتحملاً العواقب أياً كانت، لكنني في الوقت نفسه قررت التمترس خلف قناع التهكم والسخرية الباردة، لكي لا أمنحها فرصة لتصعيد ينتهي بصويط وشق هدوم ورمي بلاء لست حِمله قبل آخر يوم امتحانات، ولذلك لم أستجب لمحاولتها احتضاني فور أن دخلت إلى الشقة، وأخذت منها اللفة وطبق الفاكهة ببرود، ثم نظرت إليها وأنا أسألها ساخراً هل وضعت الحبوب المنومة في السندوتشات أم حقنت بها الفاكهة، وهل قررت من تلقاء نفسها أن يحدث تنويمي اليوم بدلاً من الغد، أم أن هذا كان رأي شعراوي بالاتفاق معها ومع أبيها، مضيفاً أنني يمكن أن أقوم بعمل كل ما يتطلبه الأمر دون أن يتم تنويمي، خاصة أنني لا أمانع أن أستمتع بما ظلت تحرمني منه طيلة الأسابيع الماضية.

أعترف لك أنني كنت أتوقع منها الكثير من اللّوع والمكابرة قبل الاعتراف بالحقيقة، لكنني فوجئت أنها سرعان ما نظرت نحوي بذهول، وأطرقت برأسها إلى الأرض، لكنها حين فتحت فمها، قالت ما لخبط حساباتي وجعلني أقف أنظر نحوها بذهول فاشخاً ضبّي ومحاولاً فهم ما تقوله: «هو ميمي عملها؟ طب والله كنت حاسة إنه بعد ما اتقمص.. هيلجأ أكيد لشعراوي وأبويا ويقولهم وهيتكاتروا عليا.. ما هو في الآخر كلهم مهما كرهوا بعض.. مصلحتهم واحدة إني أفضل وسخة طول عمري.. مش هيحبوا لي النظافة أبداً»، قبل أن ترفع رأسها نحوي بحزن شديد وتلومني لأنني صدقت أنها يمكن أن تفعل في مغرزاً كهذا، وأنها يمكن أن تخون الإنسان الوحيد الذي عاملها كبني آدمة وتمنى لها الخير والنظافة.

بعد كثير من البكاء واللخبطة والتهدئة والتوقّف والتبيّن وشرب الماء والشاي، توالت على مسمعي مفاجآت كثيرة كان أغربها وأشدها وقعاً على نفسي أن شعراوي الزِناوي لم تكن له علاقة من أي نوع بأي مؤامرة تستهدفني، وأن تغير موقفه نحو «أبو سامية المعرص» لم يكن وراءه رغبته في تدبيسي في زواجة بالإكراه من رحاب، بل مبلغ محترم عَكَمه قبل إتمام الزواج من العجوز السعودي، لكيلا يتسبب في أي فضائح ليلة الفرح، وأن موضوع المؤامرة المزعومة كان كله ملعوباً تفتق عنه ذهن ميمي، حين عرف أن رحاب ستطير من بين يديه وتسافر للزواج من عجوز سعودي آخر، فقرر أن يغريها بالهروب من البيت عن طريقي، ورسم الملعوب من أوله لآخره، وقد رسمه باقتدار في الحقيقة، لكن خيوط اللعبة أفلتت من يديه، حين تأثرت رحاب بمعاملتي الطيبة لها، وتعجبت حين وجدت لأول مرة من يحترمها ويعاملها كبني آدمة، ويكبح جماح ريالته عليها، لذلك قررت رحاب بعد طول تفكير أن تهرب معي بالفعل، وتفتح صفحة جديدة في الحياة عن طريقي، مقررة أن تصارحني بالحقيقة في الوقت المناسب لكيلا تشغل بالي عن مذاكرتي ومستقبلي، بعد أن حسمت مع نفسها شكل علاقتنا بعد مساعدتي لها على الهروب، والتي ستكون علاقة أخوة وصداقة فقط، برغم أنها أصبحت لا تحب أحداً في الدنيا كما تحبني ولا تتمنى أحداً مثل ما تتمناني، لكن ذلك الحب جعلها تربأ بنفسها عن أن تضع على كتفي ماضيها التعيس الذي سيكون معوّقاً لي في حياتي، التي كانت تشارك شعراوي في القطع بأنها ستكون حياة سعيدة وأنني سأصبح فيها من الناجحين الذين يجب ألا يكون في ماضيهم ما يشين مثلها، متأكدة أن الله تعالى لن يضيعها لأنها اختارت اختياراً أخلاقياً صعباً مثل هذا وسيكتب لها الأحسن، لكنها في نفس الوقت لن تتخلى عن صداقتها بي واقترابها مني.

بعد أن أخذت ذلك القرار وتمسكت به بينها وبين نفسها وحضّرت نفسها لتحمل تبعاته، حاولت رحاب أن تتهرب من ميمي وإلحاحه الدائم عليها، لكي يتفقا على تفاصيل الإيقاع بي، وحين أزعجتها مطاردته المستمرة لها، قررت مواجهته وطلبت منه أن يحل عن سمائها ويتركها في حالها، قائلة له بمنتهى الوضوح إنها ستهرب معي إلى الإسكندرية، لا لكي تتزوجني، بل لكي تبدأ حياة جديدة نظيفة بعيدة عنه وعن أشكاله الوسخة، وهددته بأنه إذا لم يتركها في حالها، ستبلغ أباه بما كان يفكر فيه للاستيلاء على صيده الثمين الذي هو أنا، وستبلغ أباها بتفاصيل علاقتها بميمي، وأنه يحاول أن يفسد مشروعه المربح بشحنها إلى السعودية، وحينها سيكون عليه أن يتحمل غضب الاثنين وخوازيقهما، ولذلك قرر ميمي أن يأخذها على قد عقلها، ويقول لها إنه شال الموضوع من دماغها، وقرر بعدها مباشرة أن يطبّ عليّ في الكلية، ويحكي لي ذلك الفيلم الهابط الذي لعب فيه شعراوي دور الشر ظلماً، وهي أول مرة ربما تعرض فيها للظلم في حياته.

صحيح أن شعراوي كان يتعامل معي على الدوام بوصفي الفرخة التي ستبيض له ذهباً، لكنه كان كأي مربي دواجن شاطر، يعرف أن نفسية الفرخة مهمة في عملية إنتاج البيض، ولذلك كان في غاية الرقة واللطف معي في الفترة الأخيرة، لأنه كان يسعى لبناء علاقة طويلة معي، لم يكن لدي معرفة أكيدة بتصوراته النهائية لها، لكن المؤكد أنها لم تكن تحتوي على تخدير ولا بوليس آداب ولا كبسة تباغتني مع رحاب على سرير الخطيئة، ولا كل ذلك من تحابيش الأفلام الهابطة التي تليق بخيال ميمي، والتي لا ألوم نفسي على تصديقها لأن كل ما عشته طيلة الشهور الماضية كان متسقاً معها ويليق بها.

كان ينقصني في تلك اللحظة أن يدخل شعراوي علينا أنا ورحاب، بعد أن يكون قد سمع ما قالته من خلف الباب، فيبكي حتى تخضلّ لحيته لأنني ظلمته، ويطلب مني الاعتذار الفوري عن ظني السيئ فيه، وأن أصلح غلطتي في حقه بالطريقة التي يرغب فيها، لكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ، ولذلك تركزت جهودي على الاعتذار لرحاب التي سهّلت مهمتي، حين لامت نفسها لأنها لم تصارحني بالحقيقة منذ البداية، ولأنها صدقت ميمي الذي يكذب أكثر مما يتنفس، لكنها قالت إن ما يشفع لها في التسبب لي في كل هذه اللخبطة أنها رأت ولأول مرة فرصة حقيقية في تغيير حياتها، لتعود للتأكيد على الدور المحوري الذي لعبته في الموضوع بأخلاقي وحنّيتي ومعاملتي الدافئة الإنسانية، لكي أكشف لها أن البشر ليسوا جميعاً وحوشاً وجرابيع، وأن فيهم من يمكن أن يفعل الخير لوجه الله والإنسانية، دون أن يعود عليه بشيء.

بالطبع لم يكن الوقت مناسباً لكي أصارح رحاب بحقيقة مشاعري نحوها، وأن الخوف من الفضيحة والتجريس هو الذي لعب دوراً مهماً في ضبط أدائي معها، مكتفياً بعقوبة نزول كلامها الحزين على ضميري كالمرزبّات المتلاحقة، لكنني في الوقت نفسه لم أبال بكون الوقت مناسباً أم لا، واعترفت لها بحقيقة موقفي الأسري، وشرحت لها الملابسات التي دفعت شعراوي وميمي وعم سيد وغيرهم للاعتقاد بأن «تحت القبة شيخ»، وحين انهارت في البكاء وهي ترى انهيار أحلامها في الحياة الجديدة التي ستأتي عن طريق أسرتي الغنية المتنفذة، تمنيت لو أنني طاوعت وسواسي الخناس الذي زيّن لي أن أحايلها وأسايرها في موضوع الهروب، حتى تخرج من الشقة راضية مرضية وحالمة بالغد القريب، قبل أن تكتشف أنني «فصّ ملح وذاب».

توترت حين بدا لي أن بكاء رحاب لن ينتهي سريعاً، ومع أن موعد رجوع شعراوي من صالون الحلاقة لم يكن قد آن، فإنني خشيت أن يحدث ما يعيده إلى البيت سريعاً، فيكبس علينا أنا ورحاب التي رمت نفسها في حضني باكية يائسة هذه المرة، فأعطيه فرصة ثانية للعب دور الشر الذي سكّنته فيه ظلماً من قبل، وربما كان ذلك التوتر هو ما دفعني إلى أن أصعّب الأمور على رحاب، خصوصاً حين وجدتها بعد أن هدأ بكاؤها قليلاً، تقول لي إن ما عرفته عن وضع أهلي لن يغير إصرارها على الهروب معي من أسرتها اللعينة، وأنها سترضى بأي مطرح أوفره لها لكي تبدأ منه حياة جديدة حتى لو عملت في البدء شغالة أو جرسونة في مطعم، أو حتى فتّاحة في ملهى ليلي.

وقبل أن تتساهل أكثر في شروطها، قررت أن أختبر تطور قدراتي التمثيلية فأرتجل كذبة على الهواء، لأقول لها بجدية وتجهم إن المشكلة للأسف لن تكون فيها، بل في أنا، لأنني شخصياً لا أستطيع العودة إلى الإسكندرية أبداً، لأن عدداً من أعمامي وأخوالي متورطون في قضايا إرهاب، وبعضهم مقبوض عليه بالفعل، والآخر موضوع على قوائم الاشتباه، وهو ما دفعني لأن أسكن في هذا المكان الذي لا يخطر على بال أحد، لكي أرتاح من زيارات الداخلية المتكررة لبيتنا للبحث عن أعمامي وأخوالي، وحين امتقع وجه رحاب وجاب ألواناً، قررت أن جرعة النخع المرتجل كانت كافية لإحداث الأثر المطلوب، وأنني لست بحاجة إلى مواصلته وتعليته لأقول لها مثلاً إن أبي هو الذي قام بتفجير مقهى وادي النيل، وأنه يختبئ الآن في زراعات القصب مع أمي وإخوتي.

كان جزء من تفكيري يهنئني لأنني أجدت اختيار العذر الذي سيجعلها تبتعد عن سكتي اللبش فوراً، وجزء آخر يلومني لأنني قمت بتقفيل سكة الهروب أمامها، وهو ما سيدفعها لقبول عرض أبيها

بالزواج من العجوز الجديد والسفر إلى السعودية، أو ربما دفعها إلى الهروب مع ميمي الذي لن يتورع في تسريحها كما سرّحها أبوها من قبل، لكن صوت الجزء اللوّام كان أضعف لأنه كان يدرك حقيقة الوحلة التي أعيش فيها، ويعرف أنني لا أملك من أمري شيئاً، وأنني لا أضمن ما الذي يمكن أن يحدث لي لو تورطت مع أبيها المعرّص القارح الذي سيعتبر أنني وقفت في طريق سبوبته الأكيدة، ولن يكون من الصعب عليه أن يتسبب لي في مصيبة تخفيني من الوجود، ولن يعدم ساعتها مساندة من شعراوي الذي سيأخذ هروبي من ظلاله مسألة كرامة، وحينها لن ينوبني من لعب دور المخلّص إلا تمزيق أحلامي التي كانت تنحصر في ذلك الوقت في عبور العام الأول بأفضل نتائج ممكنة، لأتمكن من بلورة تصور أوضح لملامح مستقبلي.

قال لي الجزء الأكثر تشاؤماً من تفكيري إنه لن يشخر لي لأنني استمعت أصلاً لما يقوله الجزء اللوّام، فهو يقدر الظرف المضطرب الذي أنا فيه، لكنه يرغب فقط في أن يخفف علي بعض الشيء، فيذكرني بأن مسألة هروب رحاب وإن كانت حلماً رومانسياً، يدغدغ المصلح الاجتماعي الذي بداخلي، فإنها ككل الأحلام تظل قابلة للفشل السريع والتحطم على صخرة الواقع الوسخ، وعندها قد تتحول رحاب إلى إثبات جديد لصحة النظرية الشعبية القاسية القلب التي تقول إن مثلها لا يتوب أبداً، وعندها سيكون علي أن أتحمل مسؤولية اختياري لأن ألعب دوراً أكبر من قدراتي، مع فتاة لم أحبها ولو للحظة، ولم أفكر أصلاً من قبل في إنقاذها بجدية، وكنت أتعامل مع ما تقوله على أنه مجرد إعلان نوايا أو مشروع رغبة في تغيير حياتها التعيسة، ولم يكن لدي أدنى ثقة في أنها ستحوّل تلك الرغبة إلى واقع ملموس، وأن ما يربكني الآن هو أنني أدركت أنها كانت تفكر في الأمر بجدية.

وحين رأى تأثري بما قاله، خفّفَ نبرة صوته الجادة وقال لي بهدوء لا يخلو من لطف إن علي الآن ألا أستسلم للإحساس بذنب لم أرتكبه، وأن أسأل نفسي الآن عما أريد أن أفعله بحياتي وفي حياتي، لأن ذلك سيحدد ما إذا كنت سأتمكن في المستقبل من إنقاذ آخرين وأخريات، ربما كان بينهم من هو أشد احتياجاً إلى الإنقاذ وأصدق عزماً في التغيير من رحاب التي علي ألا أنسى أنها في النهاية لم تصارحني منذ أول لحظة بحقيقة اشتراكها في مؤامرة ما أو ملعوب ما مع ميمي منذ أول لحظة، كما كان ينبغي، وهو ما يجب أن يبقي باب الشك في كلامها مفتوحاً، لأنني لم أعرفها إلى الحد الكافي الذي يجعلني أستبعد كونها ماهرة في التأليف، وهو ما لا يمكن استبعاده من فتاة عاشت حياة صعبة وملخبطة مثلها، ولأن مثل هذه الحالات هي التي رأت الحكمة الشعبية المتوارثة عبر

الأجيال أن يكون سوء الظن فيها من حُسن الفِطَن، فمن الحكمة أن لا يعطي العاقل ختماً على بياض لرحاب، التي ربما يكون قد خطر على بالها أن تغير حياتها، وربما كانت الحكاية كلها مجرد ملعوب غامض المعالم، ليختم الجزء الأكثر تشاؤماً وواقعية في تفكيري مرافعته الطويلة بقوله: «ولّا لازم يعني أم ميمي تزورك في المنام عشان تحذرك وتديك كلمتين في جِنابك؟».

لم يكن بعد كلام مفحم كهذا مكان لتلك الاقتراحات البلهاء التي طرحتها الأجزاء الحسنة النية في تفكيري، والتي خاف أحدها على رحاب من آثار الصدمة التي ستنتابها حين أختفي في الغد، فاقترح أن أبلغها بما أنتويه وأعدها بأنني لن أنساها وسأعود لمساعدتها حين تتحسن ظروفي ويبان لها بيان، ورأى آخر أن ذلك قد يكون وسيلة مثالية لتوصيل رسالة شديدة اللهجة إلى ميمي وشعراوي، تحذرهما من التفكير في تتبعي أو اقتفاء أثري بعد أن أختفي، وهو ما نبهت أجزاء أخرى أكثر حذراً إلى عدم جدواه، ناصحة بعدم الإدلاء بأي معلومات عما أنتوي فعله في الغد، لأنه يمكن أن يتسرب من باب الانتقام أو حتى الارتباك - إذا أحسنّا الظن– إلى أبي رحاب أو ميمي ويصل إلى شعراوي الذي لن يسمح بانسحابي من حياته في هدوء، ولن أستبعد حينها أن أجده أو أجد ميمي بالمرصاد لي أمام باب اللجنة.

لحسن الحظ، ساعدتني رحاب على حسم الجدل، حين هدأت قليلاً وأخذت تجفف دموعها ثم سألتني عما إذا كنت يمكن أن أوصلها بصديقي أمجد الذي قالت إنها توسمت فيه الخير والجدعنة، وأنه يمكن أن يساعدها في الهروب إلى أي مكان يختاره، إذا كانت ظروفي لا تسمح بالهروب معها، فأقول لها بمنتهى الهدوء إن هذا سيكون أول ما أفعله في الغد حين ألتقي بأمجد بعد نهاية الامتحان، وأنا متأكد أنه لن يتأخر في البيت، وسيحدد موعداً للالتقاء بها في الشقة لمناقشة التفاصيل، وحين سألتني بلهفة عما إذا كان ذلك يمكن أن يحدث في الغد، نبهتها إلى أن غداً هو يوم الإثنين إجازة الحلاقين، وهو اليوم الوحيد الذي يلبد فيه شعراوي في الشقة طول الوقت، لكن أمجد لن يتأخر في تحديد موعد قريب، قد يكون الثلاثاء أو الأربعاء على أقصى تقدير، وحينها سيتاح لهما الحديث في الفكرة وتفاصيلها، وسأكون في غاية السعادة بذلك.

بدا كلامي مقنعاً لها، فلم تطلب مني أن أحلف، ولو طلبت لفعلت دون تردد، غير مبالٍ بعاقبة الحنث باليمين، لأنني أدرك أنه منكر أهون بكثير من المنكر الذي ربما يفعله بها أمجد الذي لا يمتلك قلباً مرهفاً مثلي ويؤمن عن تجربة أن للمرسيدس لغة أقوى من لغة المشاعر والعواطف،

خصوصاً حين يعرف تفاصيل الملعوب الذي كانت ضالعة فيه قبل أن ينكشف، وهو إدراك لم تكن رحاب ستفهمه لو صارحتها به، لذلك فضلت أن تحتفظ لي بذكرى سيئة لأنني اختفيت في صمت ودون أن أرمي السلام، على أن تحتفظ لي بذكرى مريرة لأنني سلمتها لذئب بشري متنكر في صورة فاعل خير يمتلك مرسيدس ومصنع ألبان، وحتى لو سلّمت لها بأنها ستكون أقوى من رغباته العارمة، وستتمكن من كبح جماحه مثلما فعلت معي، ومن يدري ربما أوقعته في حبها، وقرر هو الآخر أن يتغير معها، فإنني لا أحب أن تتذكرني أم أمجد بوصفي الشاب الذي لم تطمر فيه أكلاتها الحلوة وصلواتها في الكنيسة، وقام بتسليم ابنها لامرأة لها ماضٍ ليس بنصاعة الزبادي الذي ينتجه مصنع العائلة، هذا إذا افترضنا أن رحاب لم تضعف بعد ابتعادي عنها، لتقوم بتجديد حبال الوصل مع ميمي، وتقوم بعمل ملعوب يستهدف أمجد هذه المرة.

شعرت براحة غامرة لأنني أقفلت ملف رحاب مع نفسي بسرعة لم أكن أتوقعها قط، لكن تلك الراحة لم تدم طويلاً حين تذكرت أنني مقبل على المواجهة الأخيرة مع شعراوي، الذي لا أقول إنني أصبحت أشعر نحوه بتأنيب الضمير لأنني ظلمته وجعلته طرفاً في مؤامرة قذرة، وهو منها براء، فقد كان له من رصيد القذارة ما يمنع الشعور بذلك، وكان يكفي أن ترد إلى ذاكرتي ومضة تحمل صورة جسد أم ميمي الذي تسبب في حرقه، لألعن اليوم الذي عرفته فيه، وأستعجل الخلاص منه، لكنني في الوقت نفسه أدركت أن براءة شعراوي من تلك المؤامرة، ستزيد من صدمة تلقيه لرحيلي المفاجئ، وسيتعامل معه بمرارة أشد، وسيضعني في خانة ناكر الجميل، حتى لو قمت بتسديد كل مليم يرى أنه من حقه، لأن نَفَسه في الأكل وإمتاعه في الحكي ولطفه في المعاملة وحنّيته في الكلام، كل ذلك كان يجب ألا يقدر بثمن، وكان أقل ما يجب أن أفعله لتقدير كل ذلك أن أسمح له بأن يكون جزءاً من حياتي حتى يلقى الله.

لكن ما الذي يمكن أن يفعله شعراوي للتعبير عن غضبه وإحباطه؟ هل سيحرر لي محضر نكران جميل في القسم؟ هل سينزل إلى الإسكندرية ويبحث عن الشوارع التي حكيت له عن سكني فيها؟ هل سيطُبّ على مصنع أمجد في العمرانية، أو يرشي موظفاً في السنترال ليعرف عنوان أسرة ناجي في إمبابة؟ وما الذي سيحققه إن ذهب إلى أمجد أو ناجي ولعن سنسفيلهما لأنهما ساعدا في لطخه على قفاه؟ ومن سيسكت له إن فعل؟ هل سأجده واقفاً على باب معهد الإحصاء في أول يوم في العام الدراسي القادم ليتسبب لي في فضيحة أمام زملائي؟ أم سيقدم شكوى إلى إدارة الكلية يلبّسني فيها تهمة سرقة أو أي مصيبة تخطر على باله؟

كانت كل هذه الأسئلة قد خطرت على بالي من قبل حين قررت أن أخلع من الشقة فجأة، فلم أتعامل معها بجدية، لأنني وضعت شعراوي في خانة المتآمر المهزوم الذي لن يجرؤ على فتح ملف تآمره على الملأ، وسيكتفي بوضع ذيله بين رجليه وينسحب مؤثراً السلامة، خصوصاً لو أخذ مستحقاته المالية حاراً وناراً على جِتّته، لكنني لم أعمل حساب شعراوي المجروح عاطفياً الذي لن يتعامل ببساطة مع ضياع استثماراته المعنوية، وسيلوم نفسه لأنها سابته لشوية عيال كان يجب أن يتغدى بهم قبل أن يتعشوا به، وحينها سيبدو له «التعوير قبل الانسحاب» خياراً مهماً للحفاظ على ما تبقى من ماء وجهه، ولو حتى ليطفئ به لظى أعصابه.

لم أكن أمتلك وقتاً طويلاً للمخمخة وابتداع سيناريوهات مختلفة للتعامل مع الأزمة ثم تقليبها في دماغي قبل الاستقرار على أحدها، فقد كان الوقت المتبقي من اليوم يكفي بالكاد لمراجعة نهائية لمادة علم الاجتماع التي سأمتحن فيها غداً، والتي كان من حسن حظي أنها كانت من أسهل المواد وأخفها على قلبي، لذلك استطعت أن أتعامل مع موقف رحاب بهدوء كبير، كان لا بد أن أحافظ عليه في تعاملي مع شعراوي، حتى يحين موعد عتقي من الشقة صباح الغد.

بدا لي وقد كنت محقاً والحمد لله أن أفضل سيناريو للتعامل مع شعراوي، سيكون بتخويفه مني، ليكسر ورائي قُلّة حين أختفي، ويحمد الله أنه أخرجني من شقته على خير، ولم يكن هناك أفضل لتحقيق ذلك من السيناريو الذي طرأ على دماغي بإلهام الخطر والرغبة في النجاة من فخ رحاب، خاصة أنني كنت متأكداً أنها ستحكيه لميمي حين أختفي، وأنه كان سيستخدمه في التنطيط على أبيه الذي طلع نقبه على شونة، حين فضّل عليه فرداً ينتمي إلى عائلة مطلوبة للعدالة، ومن يدري ربما كان هو ذاته هارباً مثل أهله ومتواطئاً معهم في الإرهاب الأسود، وهو ما تؤكده طريقة اختفائي المباغت وتركي لكل متعلقاتي خلفي، وحينها ستكون ورطة شعراوي بجلاجل وشخاليل، وربما ابتزه ميمي لكي لا يبلغ عنه مباحث أمن الدولة.

لم أكن متأكداً مئة بالمئة من فعالية ذلك السيناريو، لكنني لم أكن أملك غيره، فلم يكن هناك في تلك الأيام ما يخيف أحداً أكثر من الارتباط بالجماعات الإرهابية بأي شكل، وآسف لأن أقول إن الأقدار شاءت أن تصب في مصلحة ذلك السيناريو، حين وقعت بعد فترة وجيزة من اختفائي عملية إرهابية في فندق «الفاندوم» المطل على شارع الهرم، وكان يقع بعدنا بمحطة أتوبيس، فتعرضت كل المناطق السكنية المحيطة به لحملات تفتيش دقيقة، طلع فيها دين أصحاب الشقق الذين أجروا

شققهم المفروشة دون إبلاغ قسم الشرطة، وهو طلعان دين لم يستمر طويلاً كالعادة، لكنه كان فعالاً في إقناع شعراوي بأن يشيلني من دماغه، ويكتفي بضمي إلى قائمة خيبات الأمل الطويلة في حياته البائسة.

لا أنكر أن أحد الأجزاء المفرطة الطيبة في تفكيري تعاطف مع شعراوي حين سألني بعد أن فرغنا من تناول الغداء الأخير عما أحب أن آكله في الغد، لأنه ينوي عمل عزومة على ذوقي بمناسبة انتهاء الامتحانات، ولذلك تخليت للحظات عن حذري، وقلت لشعراوي إنه لا يجب أن يكلف نفسه في الغد، لأنني سأحتفل مع زملائي بمناسبة نهاية الامتحانات، وسنتغدى معاً ونذهب إلى السينما، وحين شعرت أنني يمكن أن أثير شكه ولو للحظة، بادرت إلى القول إنه يستحسن أن يؤجل عزومته إلى بعد الغد، على أن يسمح لي بردها له في اليوم الذي يليه، ولكن خارج البيت، وحين سألني ساخراً من أين هبط علي ذلك الكرم و«التفييس» المفاجئ، تقمصت ملامح زوجة مخلصة تعترف لزوجها بشطارتها في التحويش من مصروف البيت وقلت له إن البركة فيه، وفي نظامه الغذائي المتقن الذي ساعدني على التوفير، وطلبت منه ألا يشغل باله بالمصاريف ويفكر في المكان الذي يحب أن نتغدى فيه، على ألا تتجاوز ميزانية ذلك الغداء عشرين جنيهاً، وهو ما اعتبره رقماً مبالغاً فيه، قبل أن يفاجئني باقتراح وضع ميزانية غدائي وغدائه معاً، لنحولها إلى عشاء فاخر مع السهرة في ملهى درجة ثالثة يعرف فيه صديقاً يمكن أن يخدمنا في تضبيط سهرة تليق بالمناسبة السعيدة، فبالغت في إظهار حماسي لاقتراحه، ثم قلت له وأنا أتصنع الأسف إنني كنت أتمنى لو كان قد أجّل إعلان الاقتراح حتى الغد، لأكون قد انتهيت من الامتحانات دون أن يغضب مني الله لأنني سأعصيه بهذه السرعة، وأنا الذي لا أفوّت فرضاً في أيام الامتحانات، فوافقني شعراوي واعتذر عن حماسه المتسرع، ثم نظر إلى السماء وسحب اقتراحه أمام الله تعالى، وقال إن سهرتنا ستكون في سيدنا الحسين وفي رحاب أولياء الله الصالحين وأهل البيت، قال ذلك وهو يغمزني بعينه ويعض على شفته، وهو يمسك ضحكة رقيعة بالعافية، لتكون تلك آخر صورة أحتفظ بها له في ذاكرتي.

بالتأكيد، لو لم يكن شعراوي قد نام آمناً مطمئناً من ناحيتي، لما كان قد أسلم نفسه لسلطان النوم في الصباح التالي، ولوجدته واقفاً على دماغي كما كان يفعل في كثير من الأيام التي كان يذهب فيها إلى شغله، لكنه ظل نائماً في سريره، وكنت حريصاً على أن أتحرك في الشقة على طراطيف أصابعي، فلا أتورط في لقاء أخير معه، ولا أنكر أن الشيطان وسوس لي بأن أستغل فرصة

استغراق شعراوي في النوم، فآخذ الكاسيت وأختار المزيد من كتبي ومجلاتي وبعض ملابسي - الداخلية على الأقل– لأصطحب ذلك كله إلى الامتحان وأركنه لدى أحد السعاة حتى ينتهي الامتحان، لكنني استعذت بالله من الشيطان، ليس فقط لأنني خشيت من يقظة مفاجئة لشعراوي ستتحول حتماً إلى مواجهة لن أذهب بعدها إلى الامتحان، فأكون كمن تطوع ببعبصة نفسه بمفكّ، ولكن لأنني كنت حريصاً على تأكيد معنى أن يكون خروجي من شقة شعراوي بمنزلة ولادة جديدة، أتحرر فيها من كل ما عايشه أو عاصره، ولولا الملامة لخرجت من الشقة عارياً كيوم ولدتني أمي أو حتى ملفوفاً بملاءة، ليستقبلني ناجي وأمجد على ناصية الشارع بملابس الولادة الجديدة، فأكون كأنني حاج انتهى من رمي الجمرات ورجع من حجه عارياً من الذنوب والخطايا، وحتى تلك الملاءة اللعينة التي ستحتفظ بأثر من ريحة شعراوي وميمي، كنت سأحرقها تحت لافتة «شارع خلف كازينو إيزيس»، بل ربما نزعت اللافتة نفسها ورميتها في النار التي سأحرق بها الملاءة كتعبير مهم وأكيد عن الخلاص الذي طال انتظاره.

تنازلت يومها عن أكل لقمة وشرب كوباية شاي قبل الذهاب للامتحان، لكي أسارع في الخروج قبل صحيان شعراوي، وحين ألقيت على جسده الممدد على السرير نظرة أخيرة قبل أن أغادر الشقة، لم أتمالك نفسي من تذكر جثمان أم ميمي الذي فارق الدنيا على السرير ذاته، وحين غاب عني صوت شخير شعراوي المألوف، سألت نفسي: يا ترى هل تلعب الأقدار لعبتها فيفارق شعراوي الحياة الآن وعلى نفس السرير؟ ومع أنني ضحكت من الفكرة الطارئة، إلا أن ضحكتي لم تطُل حين طال صمت شعراوي، وتوالت بعدها سيناريوهات عديدة على دماغي أنذرتني بتدبيسة سيضيع بعدها الامتحان، فيكون شعراوي قد انتصر علي وحرمني من بهجة الضحكة الأخيرة، لكن كل تلك السيناريوهات المقبضة تلاشت حين علا صوت شخير شعراوي من جديد، فبدا لي نسخة من صوت الشخر الذي سيوجهه لنفسه بعد قراءة الخطاب الذي سيتركه له ناجي عند عم سيد، لأنه سلّم ذقنه لـ«عيِّل» ينتمي إلى أسرة عريقة في الإرهاب كان يمكن أن يودي به في ستين داهية لولا ستر ربنا.

كانت الخطوات التي مشيتها من باب الشقة وحتى شارع الهرم، أطول خطوات مشيتها في تلك السنة، مع أنني قطعتها بأسرع ما أستطيع، دون أن أبالي بتصبب عَرَقي أو تغبّر حذائي، وكان عليّ أن أمشيها متماسكاً دون أن تظهر على وجهي انفعالات الفرحة التي كانت تعربد داخلي، مع أنني لم أكن أمتلك خططاً بديلة، ولم أكن أعرف أين سأجد مسكناً بديلاً في العام التالي، وهل

سأكون محظوظاً فأجد سُكنة آدمية على قد الحال؟ أم أنني سأخرج من نُقرة شعراوي وميمي لأقع في دحديرة ألعن وأضل؟ لكنني وحياتك لم أسلم نفسي لتلك الأسئلة المشروعة والمهمة، وشعرت أن فرحة الإفلات من خازوق شعراوي وميمي، تكفي لأن أقف في الجزيرة الوسطى لشارع الهرم وأنا أصفق جذلاً وأهزّ وِسطي نشوةً، مؤجلاً التفكير في الخطوة التالية إلى وقت النكد الذي سيأتي حتماً، لكنني سأحرص على أن أكون مستعداً له هذه المرة، وحين ركبت أول ميكروباص صادفني متجهاً إلى جامعة القاهرة، كان ذلك آخر عهدي بشعراوي الزِناوي ومن معه وحوله، وبداية رحلتي نحو حارة سمكة التي سأنبئك بأخبارها إن عشنا وكان لنا عُمر.

الفهرس

لا أدري متى بالضبط لمعت تلك الفكرة النمية في ذهن شعراوي، لكن أغلب الظن أن ذلك حدث حين رأى نظراتي الشبقة التي استقرت على منحنيات ومنعطفات جسد رحاب وهي ترقص بذمة وضمير في فرح أختها سامية، مع أنني لم أكن وحدي الذي انبهرت برحاب التي رأت في الفرح فرصة لإعلان إمكانياتها التي تؤهلها ببراعة لتجاوز أختها، ولم يكن ذلك الإعلان عاماً لكافة من حضروا الفرح وهم قلة على أي حال، بل كان موجهاً نحو ثلاثة من أقارب العريس حضروا في الأغلب لإسعافه في حالة حدوث مضاعفات في ليلة الدخلة، لكن رحاب لم تحظ باهتمامهم، ليس فقط لأنهم لم يكونوا سعداء بالزيجة إيماناً منهم بمبدأ إعلاني كان منتشراً في تلك الأيام يقول "ليه تدفع أكثر لما ممكن تدفع أقل؟"، ولكن لأنهم شعروا أن تسليط نظراتهم على جسد أخت العروسة وإن كان فائراً مثل بركان فيزوف، سيغضبه أو سيحرجه، والواقع أنهم صبروا ونالوا، لأن "أبو سامية" كان قد قرر إكرام ضيوف صهره بـ"نِمرة" خاصة كان ذكرها يمرّ علي أحياناً في بعض ما أقرأه عن أخبار المجون والليالي الحمراء التي ينفق فيها الأثرياء آلاف الجنيهات والدولارات، ولم أكن أتصور أنني سأشهدها عياناً بياناً دون أن أدفع مليماً أحمر.

لم يكن حجم الشقة يتسع لحضور فرقة غنائية، فقد كان يكفي بالكاد للعشرين ثلاثين كرسي التي جلس عليها المعازيم المتقون على القرازة، لكن الكاسيت الذي انبعثت منه أكثر الأغاني ترقيصاً وهشتكة قام بالواجب وزيادة، ليتم إسكاته فجأة، ثم يقوم أبو سامية وشخصان من أقاربه أو من شركائه لا أدري، بوضع ترابيزة خشبية متوسطة إلى جوار الكوشة الصغيرة التي جلس عليها العروسان، في الوقت الذي كانت أم سامية ورحاب قد دارا علينا بأطباق كبيرة تحوي قطعاً منتقاة من الكفتة والكباب وخرطة مكرونة باشميل وبعض أصابع محشي الكرنب وورق العنب، وبعد أن انتهى أغلبنا من التهام ذلك الأكل البيتي اللذيذ، قام أبو سامية بإطفاء أنوار الصالة التي ظلت مضاءة إلى حد ما بالأنوار المنبعثة من باقي الشقة، وفور أن أعاد تشغيل الكاسيت ليصدح بمطلع أغنية "حبيبي يا عيني"، اندفعت من مكان ما امرأة ترتدي عباءة سوداء فضفاضة، وقام أبو سامية بمساعدتها على الصعود إلى الترابيزة التي كانت أعلى من أن تقفز عليها لوحدها.



بعد أن بدأت ذات العباءة في التمايل من باب التسخين على الترابيزة التي ثبت متانتها، أضاء أبو سامية أنوار الصالة وبدأ في التصفيق فتبعناه دون حماس في البداية، لكننا سرعان ما تحمسنا، حين اكتشفنا أنها لا ترتدي العباءة لكونها من أقارب سامية الراغبين في المجاملة، بل كانت على وشك تقديم وصلة رقص استربتيز، حيث بدأت بفك أزرار العباءة على مهل، وانتهت بعد فترة من الزمان مرت كأنها ثوانٍ، بالشروع في خلع ورقة التوت الكلوتّي التي كانت آخر ما ترتديه، لولا أن أوقفتها صرخة العريس الذي أمرها بالتوقف عن ذلك، لأن لكل شيء حدوداً كما قال.


9 789933 655525